

الحوار في الإسلام
والتفاعل الحضاري مع الآخر

فضيلة الأستاذ الدكتور

أحمد عبده عوض

الداعية والمفكر الإسلامي

مركز الكتاب للنشر

الحوار في الإسلام
والتفاعل الحضاري مع الآخر

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

عوض، أحمد عبده

الحوار في الإسلام والتفاعل الحضاري مع الآخر / إعداد: أ. د. أحمد عبده عوض/ ط ١ / القاهرة:

مركز الكتاب للنشر، ٢٠١٤م.

٤٣٨ ص؛ ١٧ X ٢٤سم

تدمك: ٢-٥٢٥-٢٩٤-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٣٤٠٩

دار النشر: مركز الكتاب للنشر

عنوان الكتاب: الحوار في الإسلام والتفاعل الحضاري مع الآخر

اسم المؤلف: أ. د. أحمد عبده عوض

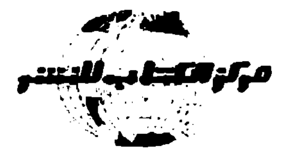
رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: ٢٠١٤

تنسيق عام: سلوى الكشكي

التصميم الداخلي: سامح غريب

تصميم الغلاف: م. هبة إمام



مركز الكتاب للنشر

شارع الهداية - قطعة ١ - بلوك ١٨ - (برج نور ١) حى السفارات - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٠٤٠٩٥ - ٢٢٧١٣٠٣٧ فاكس: ٢٩٠٦٢٢٥٠ - ٢٦٧٠٦١٥٤

www.markazelkitab.com E-mail: markazelkitab@hotmail.com

mkgaafar@hotmail.com

الحوار في الإسلام
والتفاعل الحضاري مع الآخر

فضيلة الأستاذ الدكتور

أحمد عبده عوض

الداعية والمفكر الإسلامي

مركز الكتاب للنشر

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يليق بجلاله وكماله وعظمته وسلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ آتاه الله عظيم فضله، وكريم هدايته؛ فشرح به الصدور، وأنار به الأفئدة، وزكى به أولي الألباب، وعلى آله وصحبه ذوي البصائر الأطهار.

أما بعد..

فإن الإسلام يشمل النشاط القولي والعملي والحركي والزمني والمكاني للإنسان وللأفراد في حياتهم، ولا تجد - سلمك الله تعالى - صغيرة أو كبيرة إلا ولها تفصيلات عظيمة في هذا الدين العظيم الذي أكمله الله لنا، وأتم به النعمة، وارتضاه لهذه الأمة الشريفة.

ومن نافلة القول أن نؤكد أن الأنشطة الكلامية (القولية) الاتصالية بين الناس عُني الإسلام بها في أدب التخاطب، وأدب التحدث، وأدب التعبير، وأدب الجدل، وأدب الرد على الناس بعامة، وأدب الرد على الخصوم... إلخ.

وهذا المنهج التأديبي التعليمي إنما هدانا إليه القرآن الكريم، حيث علمنا كيف نتحاور، وكيف نتفق، وكيف نختلف، وكذا علمنا الرسول الكريم ﷺ المنهج الصحيح للتعبير والاتفاق والاختلاف، ويتسع الأمر لأكثر من هذا في كيفية التحاور مع الأمم الأخرى، وفي التبادل الفكري الثقافي، وفي التواصل الإنساني من خلال التعارف والتلاقي حول مفاهيم إنسانية؛ تحقيقا لمبادئ التحاب والتواد والتواصي بالخير والتسامح.

وقد دعا الإسلام المجتمع الإسلامي إلى أن يكون متسامحًا مع نفسه ومع الآخرين ومتعايشًا معهم، وله في هذه الإرادة دواع وأسباب كثيرة يمكن إجمالها في دوافع ثلاثة هي:

أولا: أن الإسلام في أساسه لا يرضى بالتعصب كيفما كان، لقيام هذا التعصب على الهوى، وحب الذات وحدها، ورفض ما سواها و إلغاء الآخر.

ثانيًا: أنه يدعو إلى التعارف، أي إلى التجمع، والتساكن، وتبادل المنافع، والمصالح. وإلى التعايش، في أخذ وعطاء، وفي تأثر وتأثير دائمين، بعيدًا عن أية عصبية جنسية أو عنصرية إقليمية أو نعرة ثقافية. وهو بذلك لا يرى فضلًا لأحد على الآخر إلا بالتقوى. يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣] والتقوى تعني طلب الوقاية التي هي الصيانة من كل ما قد يصيب الإنسان من ضرر ومكروه. والحفظ منها والحصانة والمناعة.

والتعارف يقتضي القدرة عليه، وأكثر ما تتمثل فيه القدرة، هو قبول الاختلاف في الرأي، والمخالفة في العقيدة.

ثالثا: أنه ينطلق من أن الاختلاف كامن في طبيعة الحياة، وجبلة الخلق. إذ أن الله تعالى خلق الكون وما فيه ومن فيه على أساس من الاختلاف البارز في التنوع والتعدد؛ مما يتجلى في مختلف الظواهر والمظاهر.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩] ويقول: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

ويؤكد عَزَّوَجَلَّ هذه الحقيقة التي لا تبديل فيها فيقول: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] أي أن سنة الله في الأرض تقوم على تباين البشر سواء أكان هذا التباين يتعلق بالجنس أم اللغة أم الدين، أم بأي مكون من مكونات الحضارة والثقافة.

فالإسلام لا يقاطع الآخر مقاطعة شاملة، ولا يحرم أصل التعامل مع غير المسلمين لتحقيق مصالح المجتمع الإسلامي من خلال تلك العلاقات.

وإن دعوة الإسلام تنطلق من نظرة شاملة للإنسان. وأن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر في كل زمان ومكان.

وثمة أمور يحسن أن نؤكد عليها، وهي:

١- أن القرن الذي نحن فيه هو قرن التواصل البشري، وقرن التحاور الثقافي، ويمكن القول: إنه قرن التدافع الثقافي، وهذا توجه مهم ومفيد؛ يلزم المسلمين استقباله والتعامل معه بإيجابية وارتياح؛ لأن منهجية الحوار بالبيان والحكمة، هو منطلق أساسي في منهج القرآن الكريم وأدبيات الدعوة إلى قيم الإسلام، التزامًا بالتوجيه الرباني ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل: ٢٥].

٢- المسلمون مطالبون بالسعي للحوار مع الناس بما يحقق وضوح الرؤية، ويجمع الكلمة على المبادئ والقيم الربانية الخالدة. وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

ولعلنا ندرك: أن هذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ في علاقات المسلمين بغيرهم، ومنها:

- مبدأ الاعتراف بالآخرين.
- مبدأ الحوار وأهميته.
- مبدأ استشراف المستقبل في ظل علاقات إنسانية سامية.

وإذا كانت الحضارة تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشري. وغالبًا ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة، فإنه من الطبيعي أن تختلف كل حضارة

في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة.

والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة، أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية ليست ملكًا لأمة بعينها. ولا هي وقف على جماعة من الناس؛ لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب.

والحضارات الإنسانية قد تتشابه في مظاهرها، وفي عناصرها، وفي أسلوبها ـ ولا سيما ـ إذا تعايشت في جهات متقاربة. والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها في لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها؛ وينتفع بعضها من بعض.

ومما ينبغي أن نشير إليه أن الأمة الإسلامية تحكم علاقاتها وتحاوراتها مع الآخرين قاعدة أساس تقوم بها، وعلى أساس منها صحة كل علاقة وسلامة كل حوار، وهي التزام مبادئ وقيم وتعاليم دين الله، وهذا بين في قول الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقد يكون واضحًا أن مبدأ المسلمين وهم يعرضون مبادئ وتعاليم الإسلام على الناس، تحكمه قيم وآداب لا ينبغي للمسلمين تجاوزها ومخالفتها، ولا يصح معها تجريح وسباب معتقدات الآخرين، وهذا صريح في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والمجتمعات الإسلامية وفق تعاليم الإسلام وقيمه مأمورة بالتزام العدل، وإنصاف الناس مع وجود الاختلاف في العقيدة، وقيام الخصومة والشحناء معهم؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

والمسلمون يعتقدون بمشروعية التدافع الإنساني. ويؤمنون بأن منهجية التدافع بين الناس القائمة على أساس التنافس، في جلب المصالح، ودرء المفاسد، كفيلة بتحقيق الحياة الأفضل لهم جميعًا، وتوفير الأمن والاستقرار، وصرف الفساد عن الأرض، وهذا مؤكد في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

ومن جهة أخرى: فإن التدافع بين الناس لجدير بحماية حرية الناس في معتقداتهم وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

إن مبادئ الإسلام وقيمه تعلم المسلمين وتؤكد عليهم ألا يبخسوا الناس أشياءهم وألا يحتقروا كدحهم وجهدهم في كل عمل بناء، يحقق الإعمار، والإبداع الحضاري.. وتلزمنا تعاليم الإسلام احترام وتقدير كل عطاء خيِّر في ميادين القيم والسلوكيات، وفي ميادين الماديات والوسائل والمهارات، وهذا يلتقي مع توجيهات منهج الاستخلاف الرباني في عمارة الأرض؛ لأن القرآن الكريم يعتبر احتقار سعي الناس، وبخس دورهم الإيجابي الفعال المثمر في الأرض، من العبث والإفساد الذي يمقته الإسلام، ونهى عنه. وهذا في قوله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

والمسلمون وفق هذا المنهج الرباني العادل، وموروثه القيمي والتشريعي، وفي ضوء قدراتهم المادية والسياسية؛ ليجدون أنفسهم مؤهلين كل التأهيل لأداء مهمتهم ومساهمتهم الإيجابية الفعالة في معترك التدافع الإنساني البشري لإقامة نظام عادل ينهي حالة القلق والذعر التي تحيق بالناس، ويصرف أسباب الفساد عن الأرض، ويضع حدًّا لتدهور العلاقات في أكثر من موقع. ويزيل عوامل الاضطراب والجشع والاصطراع السياسي والاقتصادي بين الأمم. ويضبط حركة التدافع الإنساني، ويقيم موازين القسط للتعايش،

والتعاون البشري، ويرتقى بمنهج التبادل والتكامل الثقافي، بما يحقق للناس تطلعاتهم لحياة إنسانية آمنة مطمئنة تهتم بالأمن والاستقرار والعدل والسلام.

ونحن نشير إلى المعالم الإسلامية في قضية الحوار، ونؤكد فيها على ما يلي:

أولا: أن حوار الحضارات الذي ندعو إليه ينبغي أن يجنبنا عمليات فرض التجارب والنماذج الوافدة من بلدان وحضارات معينة، والتي يتم إسقاطها على واقع مغاير للواقع الذي بعثت فيه.

وأن نقل التجارب ونشر المفاهيم التي أفرزتها سياقات تاريخية واجتماعية معينة وتصدير البرامج؛ لا يمكن أن ينجح إلا في سياق تواصلي، ومناخ تفاعلي، ورؤية تبادلية تحترم خصوصية الآخر وذاتيته الحضارية والثقافية.

وفي هذا الإطار نؤكد على أهمية الترابط الإنساني، ونرفض عمليات إسقاط المفاهيم على واقع مختلف التضاريس، كما نرفض تعليب القيم، وإملاء التجارب.

ثانيا: كما أن مفهوم المسلمين للحوار الحضاري لا ينفصل عن الأبعاد الخلقية للقيم الثقافية والدينية عموما. فثقافة المسلمين انبثقت تاريخيًّا عبر منظومة القيم التي كانت ولا تزال تمثل جزءا من رصيدنا الحضاري، وهي منظومة تميز نسيج الأمة الاجتماعي بمختلف خلاياه. وأن إبراز البعد الخلقي في الحوار نابع من إحساس المسلمين وقلقهم؛ مما يهدد وجودهم الحضاري من انحرافات تجسدها المنافسة الشرسة التي باتت محكومة بمنطق الربح والخسارة، فضلا عن الكثير من الظواهر التي أبرزتها ظروف العصر، وباتت تهدد المجتمع.

ومع هذه المحاذير يتعين كذلك تبين طبيعة المعوقات التي تعترض طريق هذا الحوار، خصوصًا الحوار الإسلامي ـ الغربي، وفي مقدمتها ما يشوب الصورة الغربية من سلبيات وتشويهات ليس المسلمون مسؤولين عنها.

ثالثا: إن صورة المسلمين الحضارية في غالبية وسائل الإعلام الغربية، لا تعكس صورة المسلمين الحضارية، كما أن الأحكام المعيارية حولها لا تستند إلى موضوعية موثوقة.

لقد شكلت صورة الشخصية العربية والإسلامية في سياق سلبي لدى الرأي العام، فغلب على ملامحها الانغلاق والتعصب والجهل والعدوانية. إنها الصورة القاتمة للأسف في ذهن الإنسان الغربي العادي الذي يتلقى معلوماته عن العرب والإسلام من وسائل إعلام موجهة في غالبيتها من مراكز وقوى ضغط ليست محايدة.

ويمثل اعتماد مبدأ الاستماع إلى الآخر فرصة لإجلاء صورة الثقافة والحضارة الإسلامية لدى الغرب؛ الذي نطمح إلى تطوير علاقة المسلمين معه وتدعيمها؛ لكن المشكل يتجسد في كيفية تبلغ المسلمين الحقيقة والتعرف بأنفسهم.

لقد آن الأوان للكف عن النظر إلى الحوار الحضاري باعتباره وسيلة لتحقيق المنافع، واكتساب الأسواق، كما آن الأوان للكف عن ربطه بالنزعة الأمنية، فنحن لا نمثل مصدر تهديد، ولا منطقة خطر بالنسبة إلى الغرب.

رابعا: لقد بات من الضروري تصحيح صورة الحضارة الإسلامية المشوهة والمنقوصة لدى العالم الغربي. ويجب أن نعترف بوجود جهل بنا أو تجاهل لنا على رغم أننا نعرف تاريخ الغرب وحضارته ولغاته أكثر مما يعرف هو عنا حتى أبناؤنا المهاجرون، على رغم أهميتهم الحضارية في بعض المجتمعات الغربية، لا يحظون في مجتمعات المهجر بالقدر الكافي من تعليم اللغة العربية، وكثيرا ما يؤدي التهميش اللغوي والقيود. إلى إبعاد الأجيال الجديدة في بعض الجاليات العربية والإسلامية عن جوهر القيم الإسلامية الحقيقية.

والحق أن الحوار الحقيقي بين الحضارات يشكل أبرز التحديات التي يواجهها العالم اليوم، فهو شرط أساسي من شروط التعايش السلمي بين الشعوب.

ونحن نعتقد أن الحضارة العربية الإسلامية قادرة في ظل التحولات الدولية والتحديات المستجدة بفضل رصيدها التاريخي، والثقافي، وتجاربها الثرية؛ على أن تلعب دورا إيجابيًّا في تعميق مبادئ الحوار بين الأمم والشعوب، وتحقيق معاني التفاهم والسلام الدوليين.

ولعل هذه الكلمات التي قدمنا بها لمضمون هذه الدراسة يأخذنا إلى شيء من التناول لمحتواها بشيء من الإيجاز.

ففي الفصل الأول عرضنا لمدخل إلى الحوار من خلال مباحث ثلاثة، تناولت تعريفات ومفاهيم حول الحوار والجدل، ثم أبرزنا أهمية الحوار، وأهدافه.

وتحول الفصل الثاني إلى ذكر مشروعية الحوار من خلال مبحثين عرضا لمشروعية الحوار في القرآن الكريم، ثم مشروعية الحوار في السنة النبوية.

وعرجنا بعد ذلك إلى منهجية الحوار في الفصل الثالث من خلال خمسة مباحث تناولت أصول الحوار وقواعده ومقوماته، والتفريق بين الجدل والحوار، ورصدت موضوعات الحوار، وتناولت أدب الحوار في الإسلام ومعوقات الحوار.

ثم عرض الفصل الرابع للحوار في التاريخ الإنساني من خلال مقدمة تاريخية، ثم تناولنا التأريخ للحوار من خلال ثمانية مباحث تناولت تطور الحوار قديمًا وحديثًا، وفق صفات المخاطبين وطبيعتهم.

ورصد الفصل الخامس الحوار مع الذات من خلال محاسبة النفس، ثم التأمل والتدبر، وكذلك الحوار مع الآخر من خلال المناظرة ومحاورة غير المسلم.

وأما الفصل السادس فقد تناول قضية حوار الحضارات من خلال خمسة مباحث تناولت كل أطراف القضية بتفصيل شديد من حيث الخلفية التاريخية، ثم رصدها حديثًا، تقديم رؤية مستقبلة لحوار الحضارات.

وجاء الفصل (السابع) تطبيقيًا؛ حيث عرض لثمرات الحوار من خلال مباحث ثلاثة. تناولت ثمرات الحوار في مجال الدعوة، وثمرات الحوار في مجال التربية، وثمرات الحوار في مجال الثقافة.

وأما الفصل الأخير (الثامن) فقد تناول: رؤية تحليلية في علاقة الإسلام بالغرب من خلال ثمانية مباحث، ناقشنا فيها: قضية الحوار مع الآخر، والتفاعل معه ومعرفته، وفهمه وكيفية التقارب بين الإسلام والغرب، وكيفية مواجهة التحديات والعقبات في طريق التقارب.

ونأمل أن يكون هذا التناول جامعًا لأطراف الموضوع، وملمًا بجزئياته؛ دون إفراط أو تفريط.

وما كان من تقصير أو نسيان أو عجز فاللهم تجاوز عنا كل ذلك، وما كان من فضل و إجادة فذلك بعونه وهدايته وتثبيته عَزَّوَجَلَّ.

اللهم علمنا علمًا ينفعنا، وانفعنا اللهم بما علمتنا، واكتب لنا الخير كله وللمسلمين في الدنيا والآخرة.

اللهم أخلص قلوبنا لك، وأعمالنا لك، واجعلنا نخشاك كأنا نراك.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه
الراجي عفو مولاه
والفقير إلى رحمة ربه
أحمد عبده عوض
١١ من رمضان ١٤٣١ هـ

الفصل الأول

مدخل إلى الحوار

- المبحث الأول: تعريفات ومفاهيم.
- المبحث الثاني: أهمية الحــوار.
- المبحث الثالث: أهداف الحــوار.

مدخل إلى الحوار

المبحث الأول
تعريفات ومفاهيم

بداية يحسن أن ندرك أن الحقائق الظاهرة. يلمسها الإنسان، وتنطق بها شواهد الكون. ولا تحتاج إلى برهان على ثبوتها أو دليل على صحتها، ولكن قد يحتاج البعض إلى حوار هادئ يبصره بهذه الحقيقة.

وحاجتنا إلى الحوار حاجة ماسة في مجالات شتى، وأهداف متعددة. وقبل التحدث عن ذلك علينا أن نتعرف إلى مواطن ورود الحوار في القرآن الكريم.

ونحن إذا تتبعنا لفظ الحوار في القرآن الكريم وجدنا: أنه قد جاء في ثلاثة مواضع:

١- في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ [الكهف: ٣٤].

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴾ [الكهف: ٣٧].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

وأكثر ما جاء في القرآن من أقوال وأحداث قصصية. كان الحوار هو طريق عرضها، ولكي نعرف المقصود من كلمة «الحوار» نعرض لمفهوم كلمة (حوار) لغةً واصطلاحًا، ونفرق بينها وبين مفاهيم أخرى كالجدل، والمحاجة، والمناظرة.

والحوار في اللغة: أصله من الحور - بفتح الحاء وسكون الواو - وهو الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء. قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

ويقال: حار بمعنى رجع. وهم يتحاورون أي يتراجعون، وحاورته: راجعته الكلام والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة: وكلمته فما حار جوابًا[١].

قال الأخطل:

هل ربعت فتسأل الأطلالا   ولقد سألت فما أحرن سؤالًا[٢]

فالحوار هو المراجعة في الكلام. قال القرطبي: «والله يسمع تحاوركما» تحاورك أي تراجعك الكلام.[٣]

ويقول الإمام الزمخشري: يحاوره أي يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع. وسألته فما أحار كلمة.[٤]

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] أي رجع إلى ربه. ويأتي الحوار بمعنى المجاوبة. والتحاور التجاوب. ويقال: كلمته فما أحار إلى جوابًا، وما رجع إلى حويراء ولا محورة ولا حوارًا. أي: ما رد جوابا[٥].

وأحار عليه جوابه: رده وأحرت له جوابًا، وما أحرت بكلمة. والاسم من المحاورة. وفي القاموس المحيط: المحاورة: الجواب، وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، والتحاور التجاوب[٦].

ويأتي الحوار بمعنى المخاطبة، ويقول الطبري: قوله تعالى ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧]. وهو يخاطبه ويكلمه[٧].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٢١٧، والفيروزآبادي: القاموس المحيط، جـ٢، ص ١٥.
(٢) الزمخشري: أساس البلاغة، ص ١٤٦
(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٧، ص ٢٧٢.
(٤) الزمخشري: الكشاف، جـ٤، ص ٤٨٤.
(٥) الجوهري: الصحاح، جـ٢، ص٦٣٨.
(٦) الجوهري: القاموس المحيط، جـ٢، ص ١٦.
(٧) الطبري: جامع البيان، جـ١٥، ص٤٧.

فالخطاب أصله الكلام بين اثنين فحاوره: راجعه في المنطق والكلام في المخاطبة. وخاطبه مخاطبة: كلمه وراجعه في الكلام، وتخاطبا: تراجعا الكلام وتكالما. والخطاب ما يكلم الرجل به صاحبه.

وإن الحوار هو تراجع الكلام، والتجاوب فيه بالمخاطبة، والرد. وهذا عبر عنه القرآن الكريم في المواضع الثلاثة السابق ذكرها.

ويظهر من هذه المواضع التي جاء فيها ذكر كلمة الحوار: أن الحوار فيها هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرد، وتراجع الكلام والمخاطبة والمجاوبة فيه.

ويمكن أن نقول بناء على هذا: إن الحوار له معان: المراجعة والتجاوب والخطاب[1].

وقد ذكر الباحثون: أن الحوار اصطلاحًا: نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين. يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر. ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب.[2]

وهو ضرب من الأدب وأسلوب من أساليبه، وحالة من التفاعل والتجاوب والمجادلة: من الجدل وهو شدة الفتل. ويقال: جدلت الحبل أجدله جدلًا إذا شددت فتله، وفتلته فتلًا محكمًا. ومنه قيل لزمام الناقة: الجديل. فالجديل هو الزمام المجدول من آدم، ومنه قول امرئ القيس:

وكشح لطيف كالجديل مخصر   وساق كأنبوب السقى المذلل

والجدل: اللدد في الخصومة، والقدرة عليها[3].

إذن أصل مادة الجدل في اللغة: تدل على الشدة والقوة: ويقصد بالجدل شدة الخصومة، واللدد مع القدرة عليها[4].

(١) الأصبهاني: المفردات، ص١٥٠.
(٢) الندوة العالمية للشباب: في أصول الحوار، ط ٢، الرياض ١٤٠٨ هـ، ص ١١.
(٣) الجوهري: الصحاح، جـ٤، ص ١٦٥٣.
(٤) د. يحيى زمزمي: الحوار في ضوء الكتاب والسنة، ط دار التربية، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ص٢٣.

أما الجدال في الاصطلاح: فهو دفع المرء خصمه قصد إفساد قوله بحجة، أو شبهه، أو يقصد به تصحيح كلامه. وهو الخصومة في الحقيقة(١).

وقال صاحب المصباح المنير بعد أن عرفه لغة: ثم استعمل على لسان حملة الشرع في تعامله الأدلة لظهور أرجحها(٢).

وقد يكون معلومًا: أن لفظ الجدل ورد في القرآن الكريم تسعًا وعشرين مرة. كلها في سياق الذم إلا في ثلاثة مواضع:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ﴾ [المجادلة: ١].

أما بقية المواضع التي ذكرت فيها كلمة الجدال في القرآن الكريم. فإما أن تكون في سياق عدم الرضا عن الجدل، وإما عدم جدواه(٣)، أو فقدانه شرطًا أساسيا في طلب الحق ويكون بغير علم أو نحوه.

أما في السنة النبوية؛ فقد بوب الأئمة في كتبهم، بما يدل على كراهية الجدل؛ لأنه في الأصل: فن الخصومة والشدة.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «المراء في القرآن كفر»(٤) وكذلك ما روته السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ

---

(١) الجرجاني: التعريفات، ص ٧٨.
(٢) المقري: المصباح المنير، ص ٣٦.
(٣) الندوة العالمية للشباب: في أصول الحوار، ص ١٢.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: السنة، باب: النهي عن الجدال في القرآن، رقم (٣٩٨٧).
(رقمت الأحاديث النبوية الشريفة بترقيم (المكتبة الشاملة).

﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فقال: يا عائشة: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم»(١).

وروى أبو أُمَامَةَ عن رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هُدى إلا أوتوا الجدل» ثم تلا هذه الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨](٢).

فهذه الأحاديث تدل على معنى الجدل بالباطل واللدد في الخصومة.

ويبدو لنا أنه وردت نصوص في القرآن الكريم أطلقت فيها المجادلة على المحاورة ونحوها. من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ﴾ [المجادلة: ١]. فأطلق الجدال والحوار على شيء واحد وهو مراجعة الكلام بين النبي ﷺ، وبين خوله بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ومثله ما رواه أبو سعيد الخدري من قوله ﷺ: «ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار»(٣).

فالحديث الشريف كما ترى قد بين أن المجادلة قد تكون في الحق وهي عندئذ مذمومة.(٤)

فالجدال لم يؤمر به، ولم يمدح في القرآن الكريم أو السنة على إطلاقه. وإنما الممدوح منه ما قيد بالحسنى أو بالحق. كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وأن الأصل في الجدل أنه مذموم ما لم يقيد.

ولعل من المفيد أن نتعرف إلى الفرق بين الحوار والجدل؛ فالحوار والجدال يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين. ولكنهما يفترقان بعد ذلك.

أما الجدال فهو في الأغلب: اللدد في الخصومة، وما يتصل بذلك. ولكن في إطار التخاصم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: منه آيات محكمات، رقم (٤١٨٣).
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن الكريم، باب: ومن سورة الزخرف، رقم (٣١٧٦).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: زيادة الإيمان، رقم (٤٩٢٤).
(٤) د. يحيى زمزمي: الحوار في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٥، ٢٦.

بالكلام. فالجدال والمجادلة والجدل. كل ذلك ينحو منحى الخصومة. ولو بمعنى العناد والتماسك بالرأي والتعصب له.

وأما الحوار، والمحاورة، فهو مراجعة الكلام والحديث بين طرفين. ينتقل من الأول إلى الثاني ثم يعود إلى الأول وهكذا. دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجوب الخصومة(١).

وفي القرآن الكريم ما يدل على الفرق بين الحوار والجدال. حيث نجد أن القرآن الكريم يستعمل الجدال في المواضع غير المرضي عنها أو غير المجدية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]. أما المحاورة فقد وردت في القرآن الكريم على أنها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين.

والحوار يرد في القرآن الكريم في مواطن كثيرة جدًّا، وإن لم تستعمل مادة الحوار نفسها.

فالحوار والجدال: مراجعة للكلام بين طرفين. لكن الجدل فيه لدد وخصومة وشدة وتعصب للرأي، وإلزام للطرف الآخر، وعدم بحث عن الحق. بينما الحوار مجرد مراجعة للكلام بين طرفين دون وجود خصومة أو تعصب للرأي. فالحوار والجدال بينهما عموم وخصوص(٢).

وتناولنا لمفهوم الحوار وتعريفاته واصطلاحاته يأخذنا إلى إلقاء الضوء على أهميته، وهذا ما يتناوله المبحث التالي:

---

(١) الندوة العالمية للشباب: في أصول الحوار، ص ١٢.

(٢) سناء محمود: الحوار في القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤٢٠هـ، ص٣٠.

المبحث الثاني
أهمية الحوار

ليس من العجيب أن ينزل «الحوار» منزلة الحقيقة.

فكما أن الأصل في الكلام من جهة مضمونه هو الحقيقة، فكذلك الأصل فيه من جهة قائله هو الحوار.

وكما أنه على المتكلم الشاهد خصوصًا أن يقول الحقيقة. فكذلك على المتكلم العادي عمومًا أن يمارس الحوار.

وكما أنه على الأول أن يقول الحقيقة وحدها، فكذلك على الثاني أن يمارس الحوار وحده. وكما أنه على الأول أن يقول شيئًا غير الحقيقة. فكذلك على الثاني أن يمارس شيئًا هو الحوار[١].

وبيان هذه الحقيقة الحوارية من الوجوه الثلاثة:

أولها: أن طريق الوصول إلى الحق ليس واحدًا لا ثاني له، وإنما طرق شتى لا حد لها. لأن الحق هو نفسه على خلاف الرأي السائد ليس ثابتًا لا يتغير، بل أصله أن يتغير ويتجدد وما كان في أصله متجددًا، فلا بد أن يكون الطريق الموصل إليه متعددًا، وحيثما وجد المتعدد في الطرق، فثمة حاجة إلى قيام حوار بين المتوسلين بها.

والوجه الثاني: أن تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة فئات أو أفرادًا؛ يفضي مع مرور الزمن إلى أن هذا الطرف أو ذاك، قد يأخذ في الانصراف عن رأيه متى تبين له عند مقارعة الحجة بالحجة، ضعف أدلته عليه؛ ثم يتجه تدريجيًا إلى القول برأي من يخالفه أو يأخذ على العكس من ذلك، في تقوية أدلته متى تبينت له قوة رأيه، مستجليًا مزيدًا من الاهتمام به من لون مخالفه؛ حتى ينتهي هذا المخالف إلى قبوله والتسليم به وهكذا.

فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء الذي يفرق فإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذي يشفى منه.

(١) د/ طه عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، ط جريدة الزمن، الرباط المغرب، د. ت، ص٤.

والوجه الثالث: أن الحوار يسهم في توسيع العقل، وتعميق مداركه؛ بما لا يوسعه ولا يعمقه النظر الذي لا حوار معه. إذ الحوار هو بمنزلة نظر من جانبين اثنين: وليس النظر من جانب واحد. كالنظر من جانبين اثنين.

فمعلوم أن العقل يتقلب بتقلب النظر في الأشياء، وأنه على قدر تقلبه يكون توسعه وتعمقه. والعقل الذي لا يتقلب ليس بعقل حي على الإطلاق.

والعقل الذي يبلغ النهاية في التغلب؛ فذلكم هو العقل الحي الكامل.

و إذا كان الأمر كذلك. لزم أن يكون تقلب العقل في حالة النظر من جانبين: ضعف تقلبه في حالة النظر من جانب واحد. فيكون عقلًا أوسع وأعمق. و إلا فإن تقلبه أكثر من هذا متى علمنا أن أدلة الجانبين لا يجتمع بعضها إلى بعض فحسب. بل يزدوج بعضها ببعض، ومعلوم أن في الازدواج من الكثرة ما ليس في الاجتماع. بحيث تزداد سعة العقل وعمقه، ودرجات كثيرة في حالة الازدواج عنهما في حالة الاجتماع[١].

إذن حاجة الإنسانية تقتضي ضرورة الحوار، ولعلنا ندرك أنه منذ وقت قريب شاع تخصص يتصل بشكل أو بآخر بالحوار هو فن العلاقات العامة، وأنشئت لدى الدوائر والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية أجهزة خاصة بالعلاقات العامة؛ تجدها لدى دوائر الحكومات ولدى الشركات، ولدى دور النشر والصحافة.

ويمكن أن توصف المسئولية الأساسية لهذه الأجهزة بأنها حسن الاتصال بالآخرين للإقناع برأي، أو ترويج سلعة، أو تصحيح فكرة أو التمهيد لقضية.

ونظرًا لأهمية هذا الفن، والتركيز عليه؛ يمكن أن نقول: إن الحوار أمر قديم لكنه أخذ شكلًا أكثر تحديدًا أو تخصيصًا ودقة، وبذلك فهو وصف جديد لحقيقة قديمة، نستطيع إبراز أهميتها فيما يلي:[٢]

أولًا: كثرة استعمال الحوار في الكتاب والسنة، وكثرة وقوعه من الأنبياء، بل تكراره

---

(١) المرجع السابق: ص ٤، ٥.
(٢) الندوة العالمية للشباب: في أصول الحوار، ص ٩.

واستخدامه في التاريخ كله فلا يخلو منه زمان، ولم يستغن عنه نبي ولا عالم ولا داعية، وكما هو واقع في الدنيا فهو موجود في الآخرة كذلك، بل في الجنة والنار، ففيهما حوار وجدال ومحاجة ومخاصمة، كما ستأتي أمثلة على ذلك إن شاء الله.

ويكفي دليلًا على هذه الكثرة: أن هناك أكثر من مائتي نص من القرآن والسنة، تعرض نماذج مختلفة من الحوار.

ومن أمثلة ما يبين كثرة وقوعه من الأنبياء: إنكار قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه حين قالوا ما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود: ٣٢]. كما ينبغي أن يعلم: أن الحوار يرد كثيرًا وإن لم تستعمل مادته، وإنما قد تستعمل كلمة «قال» ومشتقاتها التي وردت في القرآن سبعًا وعشرين وخمسمائة مرة[1] ونحوها من الكلمات الدالة على وجود الحوار. ولا بأس من الإشارة إلى بعض نماذجه في القرآن، وباختصار وبدون ذكر الآيات لأن كثيرًا منها سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن نماذجه ما دار بين الله تعالى وملائكته في موضوع خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢]. ومنها ما دار بين موسى «عَلَيْهِ السَّلَامُ» وقومه في ذبح البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

(١) الندوة العالمية للشباب أصول الحوار: ص ٩.

ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى و إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين طلب أن يريه كيف يحيي الموتى[١]، ومنها قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وطلبه رؤية ربه عَزَّوَجَلَّ[٢]، وقصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الحواريين في طلبهم المائدة[٣]، ومنها حوار صاحب الجنتين في سورة الكهف[٤]، وقصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الخضر في السورة نفسها[٥]، وقصة قارون مع قومه[٦]، وقصة داود مع الخصمين[٧]، وحكاية بلقيس مع قومها ومع سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٨] إضافة إلى حوار نوح و إبراهيم وهود وشعيب وغيرهم عليهم السلام مع أقوامهم، كما في سورة الأعراف وهود والأنبياء والشعراء ونوح وغيرها. والأمثلة كثيرة جدًا في الكتاب والسنة، وكلها تدل على أهمية الحوار وخطورته[٩].

و إضافة إلى كثرة استعماله كما تقدم، فإن أثره الإيجابي في الواقع أكبر دليل على أهميته ودوره، فكم من كافر قد دخل الإسلام عن طريق الحوار، وكم من مبتدع ضال رجع عن بدعته بسبب الحوار والمناظرة، وكم من عاص تاب إلى ربه، ورجع إلى عقله بعد محاورته.

ومن ذلك الحوار الذي كان سببًا في إسلام عمر بن الخطاب، والحوار الذي كان سببًا في إسلام عمير بن وهب، وحوار ابن عباس مع الخوارج الذي كان سببًا في رجوع ألفين منهم عن بدعتهم.

ومن ذلك الحوارات المصيرية الحاسمة الكثيرة التي كانت سببًا في كبت الفتن، وتوحيد الكلمة، و إنهاء النزاع والخلاف مثل الحوار الذي كان بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعده، والذي انتهى بمبايعة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالخلافة.

(١) انظر البقرة: ٢٦٠
(٢) انظر الأعراف: ١٤٣
(٣) انظر المائدة: ١١٢ -١١٣
(٤) الكهف: ٣٢-٤٣
(٥) الكهف: ٦٦- ٨٢
(٦) القصص: ٧٦
(٧) ص: ٢١
(٨) النمل: ٢٨

والحوارات التي كانت بين عبد الرحمن بن عوف وأصحاب الشورى بعد وفاة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحوار أبي بكر وعمر في قتال المرتدين، وكذا حوارهما في جمع القرآن وغيرها، وهذا عدا المناظرات العلمية الكثيرة التي كانت تجري بين الصحابة أو بين العلماء في مسائل مختلفة، والتي بينت أرجح الأقوال في كثير من تلك المسائل كمناظرة ابن عباس وابن الزبير في حكم المتعة ومحاورة عائشة وعروة في رؤية النبي ﷺ لربه، مثل مناظرة الشافعي وإسحاق في كراء منازل مكة، وكذا مناظرتهما في طهورية جلود الميتة بعد دبغها، ومناظرة الإمام أحمد في خلق القرآن.

وعلى كل حال فإن أثر هذه الحوارات والمناظرات أكثر من أن يحصر، وهذا يدل على أهمية الحوار وضرورته والحاجة إلى طرح هذا الموضوع وتهذيبه ببيان أصوله وآدابه، وضوابطه وطرقه[1].

ثانيًا: إن أقوال علماء الأمة في أهمية المناظرة، وضرورة استخدامها، له صلة كبيرة بموضوع الحوار، إذ أن المناظرة قريبة من الحوار، كما سيأتي، وتشترك معه في الغاية منها وهو الوصول إلى الحق، وإظهار الصواب، لذلك تدل كلمات الأئمة على أهمية الحوار وضرورته. قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[2].

ثالثًا: لقد ظهرت في الآونة الأخيرة دعاوى باطلة، حيث يكثر المنافقون من العلمانيين وأعوانهم من طرح موضوع الحوار والدعوة إليه، بكتابة المقالات، وإجراء الندوات والتحقيقات في الصحف والمجلات، ويهدفون من وراء ذلك إلى أهداف خبيثة ماكرة، منها مثلًا: إسكات صوت الحق الذي يجاهدهم باللسان، ويغلظ عليهم بفضح مؤامراتهم، وكشف ألاعيبهم استجابة لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩] فيقصدون بالدعوة إلى الحوار

(١) د. يحيى زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص٣٥.
(٢) الإمام ابن تيمية: الفتاوى (٢٠/١٦٤-١٦٥).

الهادئ والأدب فيه؛ إظهار الدعاة والمصلحين بمظهر سوء الأدب والتعصب والتشنج وعدم التفاهم، في الوقت الذي يظهرون فيه أنفسهم بدعاة الحوار، والمراعين لأدب الخلاف.

ويهدفون أيضًا: إلى الوصول إلى المرحلة التي يطرحون فيها كل قضايا الشريعة للنقاش والحوار، دون التسليم أو الاعتراف بالأصول والأسس التي لا تقبل الخلاف أصلًا، ودون الرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة أو إلى أقوال علماء هذا الدين في القديم والحديث.

ومع علمنا بأن هؤلاء العلمانيين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فهم حين يرد عليهم مالا يرضونه أو يفضحون أو تكشف مؤامراتهم، ويبين نفاقهم، ويكشف عن سوء نواياهم وتربصهم بالإسلام وأهله، عندها يدعون إلى الحوار الهادئ، ويطرحون أدب الخلاف في الإسلام، وأدب الاجتهاد في الشريعة، وينقلون النصوص والأقوال من كتب السلف في ذلك، فهم عندئذ يؤمنون بالكتاب ويرجعون إلى هدى الإسلام.

أما حين يكتبون ويتكلمون فلا يتورعون عن الكذب والاتهام والتلفيق والطعن في الدين ونبذ العلماء والدعاة تصريحًا أو تلميحًا، دون مراعاة لأدب الحوار، أو احترام الرأي الآخر عند الاجتهاد، وأما في دعواتهم الهدامة؛ مثل الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة، وموالاة أعداء الله، والدعوة إلى تحرير المرأة. فهم عند ذلك يعرضون عن الكتاب، ويعتبرون الرجوع إليه تخلفًا ورجعية، وأن أحكامه قد عفا عليها الزمن، ولا تناسب العصر، وأن الأحكام والفتاوى في هذا الجانب ستتغير بتغير الزمن.

رابعًا: مما يبين أهمية الموضوع أيضًا: ما يظهر في هذه العصور المتأخرة مع كثرة الخلاف من خروج الحوار بين المسلمين عن أهدافه وغاياته، وما يطرأ عليه غالبًا من سوء الأدب وحدة الكلام، وربما تطور إلى تبادل التهم والسب والشتم.

بل أصبح من سمات الحوار في كثير من الأحيان في عالمنا الإسلامي، ومن ظواهره المؤلمة: رفع الصوت والتعالي فيه والصراخ والتهويل وتحميل الألفاظ ما لا تحتمله، وإطلاق الأحكام على قائلها بالكفر والفسق والضلال والعداوة للإسلام أو التربص بالسنة وأهلها، وكذلك وصف الطرف الآخر بأوصاف لا تليق كجاهل سخيف حقير.. أو أنه ليس أهلًا للحوار، وربما قيل عنه عميل لأعداء الإسلام، وربما تعدى هذا الأمر إلى الحكم على النيات،

وما تكنه الصدور، هذا عدا الخطأ في الأمور الشكلية أو الفنية، مثل عدم اختيار الوقت والمكان المناسبين، وعدم مراعاة ظروف الطرف الآخر ونفسيته ومنزلته، أو الاستئثار بالكلام، وأخذ زمام الحديث بالقوة إلى غير ذلك من السلبيات والمساوئ التي تطرأ على الحوارات بين المسلمين والمسلمين، وربما بين أهل السنة وأهل السنة، والتي تستدعي دراسة هذا الموضوع وتأصيله، واستنباط آدابه من كتاب هذه الأمة وسنة نبيها ﷺ وتجارب علمائها ومفكريها.

خامسًا: إن هذا الموضوع له تعلق كبير بفنون أخرى مستقلة مثل «فن الجدل» وفن «البحث والمناظرة»، وقد ذكر العلماء آدابًا لتلك الفنون مما يستفاد منه في الحوار، ويحتاج إلى جمع وترتيب من جديد، كما أنه قد شاع في العصر الحديث تخصص يتصل بهذا الموضوع، وهو فن العلاقات العامة، وأنشئت لدى الدوائر والمؤسسات أجهزة خاصة بالعلاقات العامة، المسئولة الأساسية لهذه الأجهزة هي حسن الاتصال بالآخرين لإقناعهم بآراء معينة، أو تصحيح أفكارهم نحو قضية أو غير ذلك، وعلى أهمية هذا الفن والتركيز عليه في العصر الحديث، وتأليف كتب خاصة به، يمكن أن يقال إنه فن قديم، لكنه أخذ شكلًا أكثر تحديدًا أو تخصيصًا ودقة.

ولذلك فدراسة هذا الموضوع واستنباط الآداب المتعلقة به، يساعد في إثراء هذه العلوم، وفي إحياء ما اندثر من تلك الآداب التي تمثلها الأنبياء والعلماء، ومحاولة السير على نهجهم فيها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولعل الحديث عن أهمية الحوار قديمًا وحديثًا ومستقبلًا. يأخذنا إلى إبراز أهداف الحوار في مجال نشر الدعوة الإسلامية وتثبيت المفاهيم الصحيحة، مما سنتناوله في المبحث التالي:

المبحث الثالث
أهداف الحوار

إن معرفة أهداف الحوار، لها أهمية كبيرة في دراسة هذا الموضوع، إذ أن هدف الحوار هو ثمرته المطلوبة، وأن الهدف من الحوار يحدد موضوعاته وأساليبه وآدابه. وعليه فإن الحكم على الحوار إنما يكون بمعرفة أهدافه، لأن الأمور بمقاصدها. كما أن معرفة الأهداف هي التي تحدد مدى نجاح الحوار، لأن نجاح كل شيء متعلق بتحقيقه لأهدافه المحددة. إضافة إلى أن تحديد الأهداف هو الخطوة الأولى في كل عملية يريد أن يقوم بها الإنسان.

لذلك فلابد من تحديد أهداف الحوار، ومعرفة الغاية منه، والأهداف التي يمكن تحديدها للحوار - فيما يلي:

١- الدعوة:

أي دعوة الآخرين وإقناعهم، سواء دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وهو هدف وغاية مطلوبة، أو دعوة الجاهلين إلى تعاليم الإسلام، أو دعوة غيرهم إلى الحق. وأقل ما يتحقق من هذا الهدف هو إقامة الحجة على الخصم، وإبراء الذمة أمام الله عَزَّوَجَلَّ. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر الجدال بالتي هي أحسن ضمن وسائل الدعوة حيث قال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن كثير: (أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب)[١].

وعليه فالحوار الهادئ المراعى فيه الأدب الرفيع، يمكن أن يكون مفتاحًا للقلوب، وطريقًا إلى الأفئدة، ومحققًا لنتائج كثيرة، قد يخسرها الشخص إذا لم يسلك سبيل الحوار، أو إذا لم يراع فيه الضوابط والآداب.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٥٩١/٢).

وبالنظر إلى تاريخ الدعوة والدعاة من الأنبياء والصحابة والعلماء ومن سار على نهجهم، فإن الحوار قد حقق أهداف الدعوة، وكانت له آثاره الجيدة، من دخول الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ، أو رجوع الضالين عن ضلالهم، وغير ذلك فحقق الغايتين: استجابة الناس وتقواهم، والاعتذار إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهما الغايتان المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومن المعلوم أن مهمة الداعية هي بذل الأسباب في هداية الناس، ودلالتهم إلى الخير. ولابد أن يواجه في ذلك التواءات النفوس، وخلافهم معه في الرأي، فإذا لم يكن لديه من الإلمام بآداب الحوار والاختلاف الشيء الكافي لكي يصبر ويستمر في دعوته، فقد الناس منه وهو يسعى لجمعهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

والخلاصة: أنه إذا كانت للداعية مجموعة من الطرق والوسائل يسعى من خلالها إلى نشر دعوته بين الناس، فإن عليه أن يتذكر دائمًا أن أداته الأولى المقدمة على ما سواها: هي الحوار.

٢-الوصول إلى الحق:

من أهداف الحوار الوصول إلى الحق، وترجيح أحد الآراء المطروحة، وتضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر. فإننا نعيش في عصر كثرت فيه الخلافات مصداقًا لقوله ﷺ: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا»(١)، وليست المشكلة في وجود الخلاف، فإن وجوده أمر طبعي كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] ولكن المشكلة في ما يؤدي إليه الخلاف من فرقة وتباغض وتناحر وتضارب، عندما يعجز المختلفون عن التفاهم بالمحاورة أو يغفلون عن ضرورة الالتقاء لتقريب وجهات النظر أو يقللون من قيمة الحوار، ويرون ألاَّ فائدة منه أصلًا، وهو خطأ يقع فيه كثير من المختصمين والمختلفين، ذلك هو أن يتصور كل واحد

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم (٤٣).

منهم أنه لا بد من إقناع الخصم بالرأي الذي يتبناه، أو لا بد من ترجيح رأيه وتخطئة رأي محاوره، و إلا فلا جدوى من الحوار ولا داعي له.

ولا يتصور أن الحوار إذا لم يحسم قضية الخلاف بترجيح رأي معين فإنه يقرب وجهات النظر، ويضيق هوة الخلاف، بل يحدد الخلاف ويحصره في حيز ضيق، ويساعد في تقارب القلوب وتفهم الأفكار، مما يكون له أثر في التماس العذر للطرف الآخر في حمله لرأيه، وخاصة إذا كان الخلاف بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، فإن تفهم هذه الأمور مؤكد في حقهم. إذ إنه يؤدي إلى تحقيق وحدة الأمة المنشودة.

وكما أن الحوار يعتبر ناجحًا إذا انتهى أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر واتفقا على موقف واحد، فكذلك يعتبر الحوار ناجحًا أيضًا إذا توصل الطرفان إلى أن كلا القولين صحيح وسائغ، أو هو في الإطار الذي يسعه الخلاف وعندها يمكن أن يقال (اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية).

٣- بيان الباطل:

ومن أهم غايات الحوار بيان الباطل الذي عليه الخصم، والرد على الشبهات والطعون الموجهة ضد الحق والصواب وذلك لإقامة الحجة على المخالف، ولإظهار الباطل على حقيقته حتى يحذره الآخرون، ولتستبين طرق الضلالة، وحتى يختار كل واحد أحد الطريقين عن بينة ووضوح: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وكذلك فإن كشف الشبهات، وتفنيد الأباطيل، يزيل الغشاوة التي ربما تكون على الأعين، وكما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله: (أن كثيرًا من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون إلى أجوبة عليها)[١].

وكذلك فإن كثيرًا من المختلفين يمنعهم من التسليم بالحق والرجوع إلى الصواب، شبهات وشكوك وأباطيل، تحتاج إلى جواب وتفنيد وإبطال. والحوار يحقق هذا الهدف؛ فبه يمكن إزالة كل شبهة، وتفنيد كل باطل.

(١) الإمام ابن تيمية: الجواب الصحيح: (٧٦/١)

وكذلك فقد عني القرآن بهذا الهدف؛ فذكر كثيرًا من شبهات غير المسلمين من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ورد عليها بأوضح برهان، وأقوى حجة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي حجة وشبهة، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾: أي ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم[1] الباطل، وكشف زيفه، واستبانة سبيل المجرمين، وكذلك الرد على الشبه والأباطيل، إسكاتًا للطاعنين، وبيانًا للحائرين.

٤- تحقيق أهداف أخرى مشروعة:

فهناك مصالح أخرى وأهداف كثيرة يمكن تحقيقها عن طريق الحوار، وهي ليست رئيسة ثابتة، ولكن تتنوع وتختلف باختلاف القضايا والمحاورين: فمثلًا - قد يقصد من الحوار مع كافر ويقصد منه إظهار عزة الإسلام وقوة حجته، وذلك ليزداد المؤمنون إيمانًا ويقينًا وتمسكًا، ويكون الهدف تثبيت بعض المؤمنين على الإيمان، أو زيادة اطمئنانهم إلى الحق، ومن الأمثلة كذلك: أن يكون الحوار لهدف تعليم التلقين، كما كان في حديث جبريل الطويل، حيث كان الحوار بين جبريل والنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة؛ بهدف تعليم الصحابة، ولذلك قال ﷺ في آخر الحديث «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[2] إلى غير ذلك من الأمثلة، والأهداف المشروعة التي يمكن تحقيقها بالحوار.

ولعل تناولنا النظري المتقدم في هذه المباحث الثلاثة لمفهوم الحوار وأهميته وأهدافه؛ يأخذنا إلى المزيد من التركيز حول دلالة كلمة الحوار قرآنيًا ونبويًا من خلال تناول مشروعية الحوار في القرآن الكريم والسنة المشرفة؛ مما سيتناوله الفصل الثاني بحوله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣١٧ - ٣١٨)

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان (١/٣٦) رقم ٢١.

الفصل الثاني

مشروعية الحوار

- المبحث الأول: مشروعية الحوار في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: مشروعية الحوار في السنة النبوية.

مشروعية الحوار

المبحث الأول

مشروعية الحوار في القرآن الكريم

تعرضت آيات القرآن الكريم في مواضع شتى للحوار وبأساليب مختلفة(*)، ففي بعض الآيات تظهر الدعوة إلى الحوار، أو إلى شيء من مستلزماته وأصوله، وفي نصوص أخرى حث على التزام آداب عامة للحوار، وفي قسم منها بيان آداب خاصة من آداب الحوار، وفي قسم منها نماذج وأمثلة للحوار.

فمن النصوص العامة التي وضعت مقومات الحوار، وأصوله، وشروط الانتفاع به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

تأتي هذه الآية ردًا على المشركين الذين طعنوا في النبي ﷺ دون تدبر أو تفكير فاتهموه بالكذب تارة وبالسحر تارة أخرى كما في الآيات قبلها: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

فأقام الله عَزَّوَجَلَّ هذه الموعظة العظيمة التي من أخذها بجميع مقوماتها فلابد أن يصل إلى الحق، وهذه المقومات هي:

١- القيام لله تعالى: ﴿بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ [سبأ: ٤٦] وهو الإخلاص والتجرد في طلب الحق.

(*) لا نجد فائدة من إعادة الحديث عن ألفاظ الحوار في القرآن الكريم مرة أخرى، فقد تحدثنا عنها في الفصل الأول عند تناولنا لمفهوم الحوار وماهيته في القرآن الكريم.

وهذا شرط أساسي لكل عمل، وبدونه يفسد العمل ولا يوفق فيه صاحبه ولا يبارك فيه، فالإخلاص في البحث عن الحق والصدق في طلبه شرط للوصول إلى ذلك الحق.

وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق. ولو كان مثل فلق الصبح؛ لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه عَزَّوَجَلَّ، ثقل عليه الانقياد للحق، وقصرت همته عن بلوغه العمل به، وعندما يوجد الإخلاص في القصد والصفاء في النية والتجرد لاتباع الحق، يسهل على صاحبه الانقياد له عند ظهوره، ولو على لسان مخالفه؛ لأنه يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى في الباطل.

وهذا الأصل يدخل تحته عدد من الآداب مثل تصحيح النية، وحسن الاستماع، والتسليم بالخطأ، والرجوع إلى الحق والتواضع، وتجنب الكذب، والمراوغة، والأمانة، والإنصاف والعدل، والهدوء، وضبط النفس، وعدم الغضب، وتجنب الهزء، والسخرية بالطرف الآخر وغير ذلك.

٢- مراجعة النفس على انفراد أو مع الآخرين: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦] والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطى الحق، أو تشوه وجهه، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة، والتي غالبًا ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى، واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال؛ مما يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس، متهمًا نفسه، ظانًّا أن الحق مع الأكثرية.

وهذا الأصل أيضًا يدخل تحته عدة أمور تجب مراعاتها، مثل مراعاة الجو المحيط بالحوار، والظروف النفسية والاجتماعية للطرفين، والتعارف قبل الحوار، والتحدي والإفحام، والمحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجته وسيأتي تفصيله بمشيئة الله تعالى.

٣- التفكر فيما يقوله المخالف: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦] وهذا الأصل هو الوسيلة الأساسية للوصول الى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين، فالتفكير والعلم وإمعان الرأي هو المتمم لهذا المنهج الإلهي للوصول الى الحق، وتبين الهدى من الضلال، لأن أداة التفكر الأساسية هي العلم بحال القضية المختلف فيها ومعرفة ملابساتها، والمقصود بالتفكر هو

البحث عن الأدلة الشرعية العلمية والتحقق من ثبوتها ودلالتها على المراد، والجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول الى الحق فيوجه التقليد الأعمى دون فكر أو نظر(*).

ويدخل تحت هذا الأصل عدد من الآداب العلمية مثل البيان وحسن العرض والتثبت والتوثيق، والبدء بمواطن الاتفاق، وطلب الدليل والمبادرة به، والتسليم بالحق والبدء بالأهم، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وتظهر أهمية تلك المقومات والأصول في كلام علماء التفسير رحمهم الله تعالى - عن هذه الآية ومن ذلك:

قال الطبري رحمه الله: (وقيل: إنما قيل: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى، ﴿مَثْنَىٰ﴾ يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنونًا قط، ثم ينفرد كل واحد منكم، فيفكر ويعتبر فردًا هل كان ذلك به، فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم).

ويقول الزمخشري: [والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصًا متفرقين اثنين وواحدًا واحدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به.

أما الاثنان فيفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين، لا يميلان إلى اتباع الهوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح، والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الرؤية ويخلط القول، مع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب][1].

(*) سيأتي بيان لهذين الأصلين (مراجعة النفس- التفكر التأمل) في الفصل الخامس عند حديثنا عن الحوار مع الذات.

(١) الإمام الزمخشري: الكشاف (٢/٢٩٤).

فظاهر من كلام الطبري، وكذلك الزمخشري: أن الآية فيها دعوة و إشارة إلى المناظرة والمحاورة مع مراعاة الأصول والمقومات التي تحقق الهدف، وتثمر النتيجة، كما أشار غيرهما إلى المعنى نفسه. والمعنى: أن التي أعظكم بها: قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام على الأقدام. والمراد بقوله: «مثنى» أي يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ والمراد بـ «فرادى» بأن يتفكر الرجل وحده.

ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده وليخل بغيره، وليناظر وليستشر، فيستدل بالمصنوعات على صانعها، و يصدق الرسول على اتباعه.

والمراد هنا: أنني بخصلة واحدة أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها؛ لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب و إخلاص لله، مجتمعين ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك حيث يدعوكم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهه من غير زيف ولا خلل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ الآية، إنها دعوة للقيام لله بعيدًا عن الهوى، بعيدًا عن المصلحة، بعيدًا عن ملابسات الأرض، بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشتجر والتي في القلب، فتبعد به التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة، دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة، ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها.

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس، والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة. منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات، وعلى مراقبة الله وتقواه.

وهي: «واحـدة» إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق، القيام لله.. لا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة ... التجرد.. الخلوص.. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾... مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء.. وفرادى مع النفس وجهًا لوجه في تمحيص هادئ عميق. [﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فما عرفتم به إلا العقل والتدبر والرزانة. وما يقول شيئًا يدعو إلى التظنن بعقله ورشده إن هو إلا القول المحكم القوى المبين][(١)].

وبعد هذه الأقوال من هؤلاء المفسرين - رحمهم الله - حول الآية الكريمة، تبين أن القرآن عُنى بموضوع الحوار، وأشار إليه، ووضع أصوله ومقوماته العامة التي ينطلق من خلالها الباحث عن الحق.

وقريب من هذا ما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] حيث قال الطبري رحمه الله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك][(٢)].

وقال الزمخشري: [﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف][(٣)].

وقد بين الشوكاني - رحمه الله - أساليب الدعوة المذكورة في الآية حيث قال: [ثم أمر سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾، وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي بالمقالة المحكمة الصحيحة.

قيل: هي الحجج القطعية المفيدة لليقين، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها المستمع وتكون في نفسه حسنة باعتبار انتفاع السامع بها.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم (٥/٢٩١٤).
(٢) الطبري: تفسير الطبري (١٤/٤٣٥).
(٣) الكشاف: (٢/٤٣٥).

قيل: الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة وهما سبيلا الدعوة، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقصة ونحو ذلك من الجدل. ولهذا قال سبحانه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة. وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقًا وغرضه صحيحًا، وكان خصمه مبطلًا وغرضه فاسدًا][1].

إذن لا تخلو هذه الآية من إشارة عامة إلى قضية الحوار، وتنبيه على ضرورة مراعاة الأدب الحسن فيه، وهنا يقول صاحب الظلال في بيان الآية ما نصه [والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبنيه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويير في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه، وفي الموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق والموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدال، ولكن الاقتناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلًا عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصر رأيه وهزيمته الرأي الآخر][2].

(١) الإمام الشوكاني: فتح القدير (٣/٢٠٣).
(٢) سيد قطب: الظلال (٤/٢٢٠٢)

خصائص الحوار القرآني

للحوار الجيد شروط ينبغي تحققها بداية، ومنها:

١- شموله على أسلوب وصفي جيد.

٢- عدم الاستطراد في تصوير الحوادث استطرادًا مملًا بعيدًا عن الواقع.

٣- التشويق الذي يدفع بالباحث إلى متابعة الدراسة في لهفة حتى النهاية.

والأسلوب الجيد يتطلب ذوقًا رفيعًا راقيًا لمعانيه ونحن في حاجة إلى تطبيق هذه الشروط على الحوار القرآني كي تتبين سماته وأهدافه.

فمن الثابت البين: أن من لم يحكم فهم القرآن فهمًا صحيحًا لا تتم له فضائل هذا الدين وما فرط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلا منذ أن فرطوا في لغته؛ فأصبحوا لا يفهمون كلمه، ولا يدركون حكمه، ولا يقرؤون هذا الكتاب إلا أحرفًا، ولا ينطقونه إلا أصواتًا، وتراهم يرعونه آذانهم وهم بعد لا يتناولون معاني كلام الله إلا من كلام الناس[(١)].

فالمسلمون الأولون كانت سلائقهم قد سلمت فمكنتهم أن يفهموا كلام الله في يسر، وأن يدركوا ما وراء التراكيب من كوامن الأسرار، وأن يستشعروا سر إعجازه عند سماعه، وأن يستعصموا بعقائدهم على الملحدين.

إذا كان الأمر كذلك فقد نشأت في حجر الإسلام أجيال تصعب عليهم كل ذلك أو تأبى؛ لأن الفطرة الإسلامية قد وهنت في نفوس الناس بما خالطوا وابتعدوا عن موئل السلامة ومعدن الفصاحة، وعزت على غير العرب بما ارتضوا من أفاويق العجمة في البيان لذلك اتجه العلماء إلى أن يربوا في الناس قوة الحس البلاغي، وأن يعودوهم ذوق البيان حتى لا تستغلق عليهم أساليب القرآن[(٢)].

---

(١) الرافعي: إعجاز القرآن، ص ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٢) الخطيب القزويني: مقدمة الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٥.

وحوار القرآن يعتمد في طريقة تعبيره عند تنسيق الحوادث على تصوير أبرز المواقف تاركًا بين المشاهد كثيرًا من التفصيلات التي تعمل فيها الذاكرة أو يتصورها الخيال.

وقدرة القرآن الكريم على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر وبراعته في العرض والأداء وإعجازه في التعبير المركز القصير المشع بالإيحاءات تبعث الحياة في الحوار وتحوله إلى صور حية، وشخوص متحركة تنبض بالحياة[١].

فحوار القرآن واقعي وأسلوبه حقيقي. ولقد عرف عبد القاهر الجرجاني الحقيقة بأنها: كل كلمة أريد بها ما وضعت له[٢] في وضع واضح وإن شئت فقل في مواضعه وقوعًا لا يستند إلى غيره.

والأسلوب القرآني - بعد هذا العرض لمعنى الحقيقة - أسلوب يعتمد على كثرة الحقائق وصحتها ووضوحها، فالحقائق مع الكثرة والصحة والوضوح تتلون بلون الصورة وتشكل عنصرًا من عناصر الصورة الأدبية، ومن ثم نمطًا جديدًا في مجال الإعجاز القولي.

فأسلوب القرآن في الحوار أن يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ولا يثقلها بما هو تافه من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار كما يختار الرسام للمشاهد من الأشكال والألوان وما يحقق له الانسجام، إنه يروي بعض أحداث القصة بأسلوب يبعث فيها الحياة فتتخطى القرون ويجعلها كأنها ماثلة[٣] كما في قصة قوم لوط:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ
قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ
مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا
رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ
إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

(١) محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٤٤.
(٢) الإمام عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص ٣٠٣.
(٣) التهامي نقره: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٨٧.

عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٧٧-٨٣].

الشخصيات في الحوار القرآني:

ويعتبر الحوار الوارد في القرآن أروع وأعظم حوار على وجه الإطلاق، وبه من الإعجاز الفني واللفظي والمعنوي ما أعجز البشر وخبراء لغة العرب على أن يأتوا بسورة من مثله.

وعند الحديث عن الشخصيات والأحداث في القصة القرآنية. يجب أن نلاحظ أن العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني، وترتيب زماني وعقدة لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية ولا موزعة توزيعًا بل لكل منها دور يختل بانعدامه توازن القصة؛ لأن المقاصد التي يوحي بها السياق هي التي توجه أسلوب العرض وتتحكم في ترتيب الأحداث وتسلط الأضواء على العنصر المراد وتمييزهم إبرازه.(١)

فقد يكون القصد الإنذار والترهيب مثلًا فيبرز عنصر الأحداث(٢) قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤-٧]

وقد يكون القصد تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين على الذي يدعون إليه. رغم ما يلقون في سبيله من أهوال، فيبرز عنصر الأشخاص وتمييزهم الأحداث التي ألمت بهم وما كانت من عاقبة يطمئن إليها المجاهدون.

قال تعالى: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

(١) سناء محمود عبد الله عابد: مرجع سابق، ص ٥٦.
(٢) التهامي نقره: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٩٣.

إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣١-٣٤].

وقد يكون القصد إقامة الحجة والإقناع بحكاية أقوال الخصم أو التعريف بشخصية ما والتعقيب عليها؛ فيبرز عنصر الحوار على طريقة الرواية للأقوال، ومن التعقيب على أقوال الخصم ومحاجتهم هذا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه على نحو ما تقدم في سورة هود (٣١-٣٤).

وقد يأتي الحدث والشخصية متساوين في الأهمية فيكمل كل منهما الآخر: ويتناوبان على مركز الاهتمام[1] كما في قصة مولد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٧-٩].

أما المكان والزمان: فهما عنصران مهمان في الحوار بإلباسهما صورة من الواقع وتشخيصهما للأحداث في جو البيئة التي جرت فيها، وكل ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها تأثير في أخلاق الأشخاص وتصرفاتهم.

إن الحوار القرآني لا يعنيه من ذكر المكان إلا ما جعلت منه جملة الأحداث المهمة مسرحًا له مثل ذكر مصر في حوار يوسف العزيز والملك وفي غياهب السجن وعلى عرش الحكم[2]. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١].

كما لا يعنيه من ذكر الزمان تحديد تاريخ الحادثة، ولا مدتها لكن قد يكون في تعيينها أبعاد لقيمة الحادثة نفسها مثل المدة التي نامها أهل الكهف قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥].

(١) التهامي نقره: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.

والمدة التي أمات الله فيها الرجل الذي مر على قرية، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقد نجد الحدث والشخصية مجتمعة مع بعضها أو موزعة:

فنرى عنصر الأحداث: هو العنصر البارز في الحوار الذي يقصد به التخويف والإنذار كما في قصة ثمود في سورتي الشمس والقمر.

وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز: إذا قصد الإفاضة والإيحاء أو تثبيت قلب النبي ﷺ فنلاحظ تعدد الشخصيات في سورة الأعراف والشعراء.

الشخصية: ولا نقصد بها الإنسان إنما نقصد كل شخصية وقعت معها أحداث وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دورًا إيجابيًّا في الحوار ومن الشخصيات: شخصية الملائكة والجن والحيوانات والناس مما سنشير إليه إجمالًا فيما يلي:

أما الحيوانات والحشرات:

فقد ذكر منهم القرآن جملة مثل الحمار، والكلب، والبقرة، والغراب. لكن الحوار لم يرد إلا في بعض الطيور والحشرات مثل الهدهد والنملة، ونرى أن القرآن عندما يتحدث عنهم يذكر أن الحيوانات تقوم بما يقوم به الشخص العادي، فقد تحدثت النملة، وتحدث الهدهد كل بلغته وفهمه سليمان لأن الله قد علمه منطقهما، وهذا قد أحدث لبسًا عند البعض مثل الرازي وغيره فأنكروا أن يكون الحوار واقعيًّا أو على الحقيقة، ويبدو أن السبب فيما وقع فيه هؤلاء المفسرون في حيرة هو اضطرابهم بين ما يشاهدون ويلمسون وبين ما يذهب إليه بعضهم في حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات.

والملائكة والجن:

يذكرهم الله سبحانه وتعالى أنهم يجيئون بصورة بشرية فهذا جبريل يأتي مريم بصورة بشر: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٦-١٨] وهذه الملائكة تأتي لوطًا وإبراهيم أضيافًا أي في صورة بشرية أيضًا، وفي كلتا الحالتين يجهل لوط وابراهيم حقيقة ضيوفهما.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٦٩-٧١].

وجاء الملك مريم في زي البشر فاضطربت واستعاذت بالرحمن، وتدخل الملائكة على داود فيفزع ويقوم وهو في المحراب، كذلك عند مجيئهم إلى إبراهيم ولوط جاءوا بصورة بشرية غير معلومة بالنسبة لمن يراهم، وهم يخبرون عن أنفسهم الهدف الذي جاءوا من أجله بصورة أشخاص بشرية.

أما الجن فمنهم مؤمن ومنهم غير مؤمن يتحاورون مع الرسول ﷺ بما يخص الإيمان: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٤-١٧].

فهم يشبهون في تصرفاتهم إلى حد كبير البشر لكنهم لا يظهرون عليهم.

الناس: في الحوار القرآني رسل وأنبياء وملوك ووزراء وأناس عاديون، والإنسان له صفات جسمية وله اسم يدل عليه فمن حيث الصفات الجسمية:

١- يشترك الناس جميعًا في أن القرآن لم يقم وزنًا لصفاتهم ومميزاتهم الحسية. فلا طول ولا عرض ولا لون ولا ملامح ولا قسمات من كل تلك التي تميز شخصية عن أخرى نجدها بارزة في الحوارات القرآنية ولنأخذ مثالًا أصحاب القرية، قال تعالى:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ

ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ١٣-٢١].

وفي بعض الأحيان فقط نجد: أن القرآن يذكر شيئًا من هذه السمات للضرورة كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

٢- يهمل القرآن الأسماء إهمالًا تامًا في الحوار الذي يراد به التخويف والذي يبرز فيه عنصر الحوادث ويخفي ما عداه.. كقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فهنا اختفى الاسم واختفت سمات الشخصية، بينما التركيز على الحدث للعبرة، وهو حينًا آخر يذكر الأسماء ليتمكن القارئ من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

فلا حاجة لذكر الأسماء إلا لتمييز أصحاب القصة عن غيرهم مثل أسماء الأقوام أو الأنبياء.

وعلى الجملة: فالذي نستطيع قوله في مثل هذا الحوار الذي يقصد فيه إلى الآراء والأفكار: إن عنصر الشخصية فيه يكاد أن يختفي لولا بعض الأسماء وبعض الصفات، وإن العنصر القوى الذي يسير جنبًا إلى جنب مع الحوار هو الحدث.

والحوار القرآني يعتمد على تنسيق الحوادث وعلى إبراز المواقف والأحداث تاركًا من التفصيلات التي تعمل فيها الذاكرة، أو يتصورها الخيال، وقدرة القرآن على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر، وبراعته في العرض والأداء، وإعجازه في التعبير المركز المشع بالإيحاءات وتحوله إلى صورة حية وشخوص متحركة، ومشاهد تنبض بالحياة[1] ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠-١٦].

لقد تنزه حوار القرآن عن أن يقول أي شيء غير ذي بال أو يساق لأى غرض يخالف الأخلاق بل هو مملوء بالعبر والمواعظ التي تقترن بالعرض لذا كان حواره تعليميًا. والحوار القرآني حوار من نوع خاص. وهو ليس فنًا خالصًا إنما هو حوار صاغه الله سبحانه وتعالى ليكون مثلًا للناس، وهنا يختلف المؤلفون البشر عما هو تنزيل من عزيز حكيم، فحوار القرآن الكريم بطبيعة الحال لابد أن يكون المثل الأرفع في الخلق والإيمان فإذا نحينا جانب الموعظة التي يحملها القرآن ونظرنا إلى العرض الفني في الحوار القرآني لوجدنا في أغلب الأحيان عجبًا ولا عجب فإنه تنزيل من عزيز حميد.

والحوار الوارد في القصص القرآني أعظم وأروع حوار على وجه الإطلاق وبه من الإعجاز الفني واللفظي والمعنوي ما يجعل أعظم الباحثين يقف مشدوهًا من العجب والإعجاب.

وهكذا يتضح لنا مما سبق:

١- أن حوار القرآن الكريم واقعي يساق للعبرة ولم يأت لمجرد التسلية أو المتعة[2]،

---

(١) محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٤٤.

(٢) محمد أبو زهرة: انظر المعجزة الكبرى (القرآن)، ص ١٦٢ - ١٦٣.

وقد قرر تعالى هذه الحقيقة حيث قال: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

٢- أهمية الحوار في توجيه الدعوة الإسلامية، ذلكم أن واقعية القرآن وجديته يجعلان توجيهاته وتقريراته تعين الدعوة الإسلامية على إصدار مواقف صحيحة ومدروسة تجاه ما تلاقيه. وهذا ما كان يحدث عند نزول القرآن على رسوله الله ﷺ في مكة.

والقلة المؤمنة محصورة بين شعابها، والطريق شاق، طويل. فكان الحوار يكشف لهم نهاية الطريق ويبين لهم معالمه.

إن صدق الحوار فيما قصه الله تعالى من غيب مجهول للنبي ﷺ كان سببًا في إثبات الوحي والرسالة. فما نجده من حوار بين نوح وقومه، وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - دليل على صدق الرسالة وإثبات الصلة بوحى الله ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

٣- الحوار القرآني دقيق في رسمه الشخصيات فهو على قلة عدد الألفاظ المستخدمة فيه فإن فيه دقة في رسم ملامح واختيار اللحظة الحاسمة لتوجيه القلب إلى العبرة.

نماذج من الحوار في كتاب الله

من خلال القصص القرآني الذي يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله، ومن بين ما نتعلمه من هذا القصص، فضلًا عما يرد فيه من تشريع معجز، يغفل عنه الكثير، نجد نماذج الحوار العفو الكريم.. بين أنبياء الله وأقوامهم، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين أصحاب الحق وأصحاب الباطل. وسوف نختار من بين هذه النماذج العديدة نماذج ثلاثة، ونحيل القارئ إلى كتاب الله يستخرج منه غير ذلك، وما يزال كتاب الله سبحانه وتعالى معطاء على مر العصور، لا تبلى جدته، ولا يخلق على كثرة الرد.

النموذج الأول: بين نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقومه:

نوح نبي الله ورسوله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. من أولى العزم من الرسل. جاء قومه يدعوهم إلى الله ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، المؤمنون: ٢٣] وهم هائمون في عبادة الأصنام، وكان له جدال مع ابنه، كما كان لإبراهيم جدال مع أبيه.

أما جدال نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه: فنأخذ له نموذجًا من سورة هود:

بدأ فدعاهم إلى التوحيد: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٥- ٢٦]. فردوا عليه بتهم له ولمن اتبعوه.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

فرد عليهم نوح بأربع: أنه على بينة من ربه عميت أبصارهم عنها، ولن يكرههم عليها. أنه لن يسألهم أجرًا؛ لأن أجره على الله. إنه لن يطرد الذين آمنوا، لأنه يخاف الله، ومن ينصره من الله، وأنه لن يقول لهم لن يؤتيكم الله خيرًا؛ إنه إن فعل ذلك كان ظالمًا، وأخيرًا أنه لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يدعي أنه ملك(١).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٢٨-٣١] ونصل إلى الإفحام فيقول قومه له:

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

(١) علي جريشة: مرجع سابق، ص١٣٦.

فيرد نوح على ذلك: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٣-٣٥].

وتأتي العاقبة في النهاية بعد استهزائهم منه وهو يصنع الفلك ...

وقبل أن يشير إلى العاقبة يشير إلى حواره مع ابنه، ويليه حواره مع ربه. أما حواره مع ابنه فقد قال له: ﴿ ... يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢].

فكان رد ابنه الجاهل أنه سيعتصم بالجبل ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٤٣] فجاء رد الوالد الناصح الأمين ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

ولم يستطع الابن جوابًا فقد تاه جوابه مع أمر الله الذي جاء ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

وانتهى المشهد الأليم للأب يشهد مصرع ابنه فتأخذه الشفقة بولده ويخاطب ربه.

حواره مع ربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] وكان قد صدق وعد الله ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ... ﴾ [هود: ٤٠] وهنا تتقرر القاعدة الربانية التي تفصل بين الكفر والإيمان، ويأتي معها التوجيه والتأنيب: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

وهنا يعود العبد الأواب إلى ربه يسأله المغفرة والرحمة في تذلل وخضوع: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

النموذج الثاني: أهل الجنة وأهل النار:

في الحوار أطراف ثلاثة: أهل الجنة، أهل النار، أصحاب الأعراف «على اختلاف في كنههم».

■ يبدأ الحوار بأصحاب الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

■ ثم يتوجهون إلى أصحاب النار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

■ وهنا يظهر صوت أصحاب الأعراف متوجهين لأصحاب الجنة: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

■ ثم ينتقل الحوار إلى أصحاب النار: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٧-٤٩].

■ وتأتي خاتمة الحوار ندمًا يوم لا ينفع الندم: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ...﴾ [الأعراف: ٥٠].

ويأتي التبكيت من أهل الجنة مع الحرمان أليما أليما أليما أليما ﴿... قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١).

النموذج الثالث: مؤمن آل فرعون:

وهو نموذج يتكرر. إذ فرعون يتكرر ... ومعه قائم لله بحجة، لا يخشى في الله لومة لائم، يكتم إيمانه.. حتى إذا وجد الباطل يهم أن يبطش بالحق صار سكوته إثمًا، وصار أمره ونهيه. وقوله الحق واجبًا.

يبدأ فرعون فيتهم «موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ» بالسحر والكذب، ويأمر بقتل الأبناء، واستحياء النساء. ثم يمضي إلى موسى نفسه فيأمر بقتله لأنه يخشى أن يبدل دين قومه أو أن يظهر في الأرض الفساد.

ويستعيذ موسى بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ويهم فرعون اللعين بالتنفيذ، فينهض المؤمن الذي يكتم إيمانه ليلقنهم دروسًا، وليقول كلمة الحق، وليجادلهم..! ولنستمع إلى الآيات:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٢٣-٣٣].

وكانت النتيجة بعد هذا الحوار الكريم والدعوة الطيبة وكلمة الحق: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

المبحث الثاني
مشروعية الحوار في السنة النبوية

إن المتأمل في أحاديثه الشريفة ﷺ يجد أن الجانب الحواري أساسي في مادة كلامه الشريف ﷺ، حيث كان يتخذ من الحوار سبيلًا إلى تعليم أصحابه الكرام أحكامًا جديدة، أو أن الصحابة يسألونه ﷺ كي يتعلموا منه، وكي يفضي الحوار إلى معلومة جديدة.

ففي جميع أبواب الحديث الشريف: الذكر، والدعاء، والأخلاق، والعبادات والمعاملات، ومن قبل في أمور العقيدة والقضاء والقدر نجد البحث عن المعرفة أمرًا أساسيًّا في محاورة الصحابة إياه ﷺ، أما هو ﷺ فهو حريص على إكسابهم المزيد من المعرفة، ومن هنا كان يتخذ من الحوار والسؤال والمناقشة مجالًا يتوصل الصحابة من خلاله إلى اكتساب هديه الشريف بسهولة ويسر.

حوارات من السنة المشرفة:

سجلت كتب السنة النبوية تساؤلات متعددة وقعت من الصحابة لرسول الله ﷺ، تتعلق بقضايا العقيدة الكبرى وبدء الخلق، والقدر، والتشريعات، والعبادات. وعلى سبيل المثال:

١- السؤال حول العقيدة:

عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلت على النبي ﷺ، وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: اقبلوا البشري يا بني تميم.

قالوا: قد بشرتنا فأعطنا (مرتين).

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشري يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم.

قالوا: قد قبلنا يا رسول الله.. جئنا نسألك عن هذا الأمر.

قال: كان الله ولم يكن شيء غيره.

وكان عرشه على الماء.

وكتب في الذكر كل شيء.

وخلق السموات والأرض.

قال عمران: فنادى مناد، ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها.

ففي هذا الحديث يقص عمران بن حصين مشهدًا في حضرة رسول الله ﷺ، لقد دخل عليه بنو تميم فقال لهم اقبلوا البشري أي هلموا أعلمكم عملًا صالحًا يصل بكم إلى الجنة ويحقق لكم السعادة الأبدية، لكن القوم ظنوا البشرى مالا ومآكل ومشارب فطلبوا العطاء العاجل وألحوا في سؤاله.

وفي هذه الأثناء دخل قوم آخرون جاءوا من أجل الهدف السامي والاستقامة على الحق، فبدأ الرسول ﷺ يشرح الحق، ويبين بدء الخلق ويجيب على تساؤلات القوم.

وعن الزهري قال:

أخبرني أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورًا عظامًا، ثم قال: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه؛ فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا..

قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلوني، فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟

قال: النار.

فقام عبد الله بن حذافة

فقال: من أبي يا رسول الله؟

قال: أبوك حذافة..

قال أنس: ثم أكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلوني.. سلوني.. فبرك عمر على ركبته فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولا.

فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك ثم قال:

«والذي نفس محمد بيده لقد عرضت على الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط: وأنا أصلي، فلم أر كاليوم في الخير والشر».

ومعنى هذا الحديث: أن النبي ﷺ أخذ يحث الناس على التساؤل عما يعن لهم من أمور الدين وعقائد الإسلام وحقائق الوجود، لكن البعض أخذ يسأل استهزاء أو تعجيزًا أو لهوًا.

حتى سأل أحدهم عن مصيره في الآخرة أفي الجنة أم النار؟

وسأل أحدهم عن حقيقة نسبه إلى أبيه.

وهنا أدرك عمر بن الخطاب بفطرته ونقاء سريرته وصدق عقيدته أن الأمر بدأ يأخذ مسلكًا غير طبيعي فجثا على ركبته وقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولا[١].

٢- نماذج الحوار في القضاء والقدر:

أخرج البخاري في صحيحه بسنده أن على بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.**

فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع شيئًا ثم سمعته وهو يضرب فخذه، يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

لقد حرص الرسول الكريم ﷺ على إيقاظ ابنته وزوجها لصلاة الليل؛ حتى يتعرضا لنفحات الله، ويحصلا على الثواب الجزيل الذي أعده الله للمستغفرين بالأسحار.

---

(١) محمد سيد أحمد المسير: الحوار بين الجماعات الإسلامية، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ١٩٧٧، ص١٠١.

واعتذر علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقدر وقال: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنًا.

وبمجرد أن سمع الرسول الكريم ﷺ هذا الاعتذار لم يراجع عليًا بشيء، وإنما خرج متعجبًا وهو يتذكر الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال- إن سول الله ﷺ «خرج على الصحابة وهم يتنازعون في القدر، هذا ينزع آية، وهذا ينزع آيه فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال:

بهذا أمرتم - أو بهذا وكلتم - أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟! انظروا إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه».

وفي موقف آخر تساءل الصحابة في أمر القدر «وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث[1] بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: أمَّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وتعدد تساؤل الصحابة في هذا الأمر، فجاء سراقة بن مالك وقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم وقد جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟

(١) المخصرة - بكسر الميم - ما أخذه الإنسان بيده واختصر من عصا صغيرة وعكاز صغير وغيرها، ونكس - بتخفيف الكاف وتشديدها - لغتان فصيحتان أي خفض رأسه، ونكث أي خط خطًا يسيرًا مرة بعد مرة.

وقال رجل: يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال: نعم قال: ففيم يعمل العاملون؟

وجاء رجلان من مزينة فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟

وكانت إجابة رسول الله ﷺ في كل هذه الأحوال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

ومع كل هذه التساؤلات والمناقشات لم يكن الموقف يمثل ظاهرة فكرية قلقة ولا اتجاها دينيا متحزبا، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والأمة مجتمعة على صفاء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣- كما أن الحوار كان له مردود عظيم في الجانب التشريعي والعبادات:

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا».

ويستفاد من هذا الحديث وقوع اجتهاد الصحابة في زمن النبي ﷺ وأن المجتهد لا لوم عليه إذا بذل وسعه وإن لم يصب الحق، وأنه إذا عمل بالاجتهاد لا تجب عليه الإعادة».

وفي صحيح البخاري عن طريق عكرمة عن ابن عباس:

أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: البينة أو حد في ظهرك.

فقال يا رسول الله إذا رأي أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يتلمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينة أو حد في ظهرك.

فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد.

فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأنزل الله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور: ٦-٩].

إن الله تعالى جعل حد القاذف بالزنا ثمانين جلدة ما لم يأت بأربعة شهداء لكن ما الحكم إذا قذف الرجل زوجته أيخرج يلتمس البينة فيكون المشهد قد انتهى أم يسكت ويكون ديوثًا؟

لقد جاء هلال بن أمية بتهم امرأته بالزنا ولم يكن أمام الرسول ﷺ بد من بيان حكم القذف العام الذي نزلت به الآيات، وظل الرجل يجادل رسول الله ﷺ حتى نزل الوحي يستثني الأزواج من هذا الحكم العام، ويجعل لهم حكمًا خاصًا هو اللعان.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وتقول:

«يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدى ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة: ١]. وهو أوس بن الصامت.

إن الظهار كان طلاقًا في الجاهلية، وكان أوس بن الصامت شيخًا كبيرا ساء خلقه، فظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة، فجاءت تلتمس الفتوى من رسول الله ﷺ فقال لها: قد حرمت عليه، لكن المرأة كانت في حاجة إلى زوجها أبي أولادها وعائلها وقالت: إن لي منه صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا. وظلت تجادل رسول الله ﷺ وتقول إنه لم يذكر طلاقًا، حتى نزل الوحي بحكم جديد هو أن الظهار ليس طلاقا وإنما فيه كفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينًا على هذا الترتيب.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله فقال: ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا، تمضي عليّ ثلاثة أيام وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا

وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه، ثم سار فقال: إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا هكذا هكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم».

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي أبدًا.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول لله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وبعد تناولنا في هذا الفصل لمشروعية الحوار في القرآن الكريم والسنة المشرفة، وما قدمنا من نماذج لهما، وبيان خصائص الحوار القرآني والنبوي؛ فإننا نتحول إلى إلقاء الضوء حول بعض المفاهيم والموضوعات المتعلقة بالحوار ومنهجيته وموضوعات الحوار وآدابه وذلك في الفصل الثالث بحوله تعالى.

الفصل الثالث

منهجية الحوار

- المبحث الأول: الأصول والقواعد الرئيسة للحوار (مقومات الحوار).
- المبحث الثاني: بين الجدل والحوار.
- المبحث الثالث: موضوعات الحوار.
- المبحث الرابع: آداب الحوار.
- المبحث الخامس: معوقات الحوار.

منهجية الحوار

المبحث الأول
الأصول والقواعد الرئيسة للحوار

(مقومات الحوار)

الأصول: هي عبارة عن القواعد الرئيسة الثابتة التي تضبط مسار الحوار، وأما الآداب فهي طريقة الحوار، والقواعد السلوكية التي ينبغي مراعاتها قبل الحوار أو أثنائه أو بعده، والتي تساعد في نجاح الحوار. مع أن هناك تداخلًا وتقاربًا بين الأصول والآداب، فقد يكون من الأصول ما هو أدب يساعد في إنجاح الحوار، ولذلك فإننا نشير إلى بعض الأصول المهمة، والتي يؤسس الحوار عليها:

- **الأصل الأول:** تحديد الهدف، بأن يكون هو الوصول إلى الحق؛ لا لإظهار الغلبة والمجادلة في الباطل، ويدخل ضمن تحديد الهدف أيضًا تحديد القضية التي يدور حولها الحوار، فإن كثيرًا من الحوارات تتحول إلى جدل عقيم سائب ليس له نقطة محددة ينتهي إليها.

إذن لا بد من التجرد في طلب الحق، والحذر من التعصب والهوى، ويكفي مثلًا في ذلك ما يروى عن الإمام الشافعي أنه قال: (ما ناظرت أحدًا إلا تمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه)[١].

وقول الإمام الغزالي في الإحياء عند ذكره علامات طلب الحق: (أن يكون في طلب الحق مثل ناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق)[٢].

---

(١) الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٩/١٠).
(٢) الإمام الغزالي: الإحياء: (٥٧/١)

كما يكفي مثلًا في تحديد القضية التي يدور حولها الحوار ما فعله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مناقشته الخوارج. وذلك أنه سألهم أول مرة: ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ فذكروا مسائلهم الثلاث، ثم أخذها مسألة مسألة، وبعد انتهائه من كل مسألة يقول لهم: أخرجت من هذه؟ فيقولون: نعم، ثم ينتقل إلى غيرها وهكذا[1].

- **الأصل الثاني:** الاتفاق على أصل يرجع إليه، والأصول المرجعية عند المسلمين هي الكتاب والسنة، وما كان عليه علماء الأمة، وقد أمر الله بالرد إليه و إلى رسوله ﷺ في عدة آيات كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٥٩]: وقال العلماء: معناه إلى الكتاب والسنة[2]، فالرد إلى الكتاب والسنة هو الذي يدرأ النزاع بين المتحاورين، ويقضي على الخلاف بين المتنازعين، وبهما يعرف مراد الله سبحانه وتعالى ومراد رسوله ﷺ. ولهذا ذكروا عن شيخ الإسلام ابن تيميه كلامًا ملخصه: (أنه متى تنازع المسلمون في مسألة، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ﷺ، فأي القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه، ثم يبين سبب ذلك: وهو أنَّ الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منّزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فكل واحد منهم له عقل)[3].

فالاتفاق على منهج التلقي والنظر والاستدلال قبل البدء في أي نقاش - خاصة إذا كان علميًّا - يضبط مسار الحوار ويوجه نحو النجاح؛ لأن الاختلاف في المنهج ابتداء سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة. وقد ذكر الإمام الشاطبي – رحمه الله - بعضًا من هذه المناهج غير المنضبطة والتي تناقض هذا الأصل، ومنها:

١- منهج الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وهذا المنهج مرفوض وباطل، وإذا لم يتفق على رفضه فلن يفلح الحوار في أداء نتيجة.

---

(١) الإمام الغزالي: الإحياء: (٧٥/١).
(٢) رياض الصالحين: (باب الأمر بالمحافظة على السنة) ص ٨٦.
(٣) الفتاوى: (٣٤٧/٣، ١٦٣/٢٠).

٢- منهج رد الأحاديث التي توافق الهوى أو المذهب، أو رفض الاستدلال بخبر الآحاد مثلًا، وهو منهج مرفوض أيضًا عند أهل السنة، وسبب في فشل الحوار.

٣- منهج المغالاة في تعظيم المشايخ والاحتجاج بأقوالهم والتعصب لآرائهم، وإن خالف الكتاب والسنة وهو باطل أيضًا، ويفضي إلى مزيد من النزاع والخلاف. إلى غير ذلك من مناهج باطلة، إذا تلبس بها أحد المتحاورين فلن يستقيم لهما حوار[1].

- **الأصل الثالث:** عدم مناقشة الفرع قبل الاتفاق على الأصل، لأن الحوار حينئذ يتحول إلى جدل عقيم لا طائل تحته، إلا في حالات استثنائية. كأن يكون الطرف المقابل كافرًا ويناقش في قضية فرعية، فعندها ينبغي نقله إلى الأصل وإرجاعه إليه ومناقشته فيه، أو أن يناقش في الفرع بالحجج القاطعة وإفحامه بها، وربما إذا اقتنع بالفرع أن يرجع إلى الأصل. فلا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها، والذي يتأمل الأصول التي ينطلق منها الحوار في الإسلام يلحظ أنها تختلف عن آداب الحوار التي سنعالجها في مكان آخر من هذا الفصل (في المبحث الرابع).

ولكوننا لا زلنا نبحث عن الحقيقة للحوار في الإسلام وما يتشابه معه من مرادفات؛ فإننا نعود إلى الغوص في أعماقها من خلال المبحث التالي:

(١) الإمام الشوكاني: الاعتصام (١/٢٢٤، ٢٣١، ٢٥٨).

المبحث الثاني

بين الجدل والحوار

نبرز هنا مفهوم الجدل ومتشابهاته حتى نميزه عن الحوار ومضامينه على النحو التالي:

أولًا: الجدال:

■ لغـــة / مجادلة وجدالًا: خاصمه.

■ والاسم: الجدل، وهو شدة الخصومة.

■ وقيل: مشتق من الجدل وهو القتل، ومنه زمام مجدول.

■ وقيل: مشتق من الجدالة التي هي على الأرض، فكان كل من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه فيكون كمن ضرب به الجدالة.

وقد ورد اللفظ في القرآن باشتقاقات مختلفة.

ورد فعلًا: ماضيًا، ومضارعًا، وأمرًا، واستفهامًا، وورد مصدرًا لصيغ مختلفة:

جدلًا، جدالًا، ولم يرد بصيغة «مجادلة» (مفاعلة).

والذي نلحظه من استعمالات القرآن الكريم أن استعماله بمعناه «المذموم» هو الغالب:

■ ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

■ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٧].

■ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [النساء: ١٠٩].

■ ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج: ٦٨].

■ ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ [الأعراف: ٧١].

■ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

■ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦].

■ ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

■ ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

■ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٥].

■ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

■ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

■ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

■ ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

■ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

■ ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]

■ ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] «أي تخاصم».

وإذا أخذنا مثلًا آية: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فقد اختلف العلماء حول المراد بالجدال في هذه الآية، لكنهم يتفقون على أنه شيء مذموم على النحو التالي:

الجدال بمعنى المراء حتى تغضب مسلمًا فينتهي إلى السباب كما قال: ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

■ الجدال بمعنى السباب.

■ الجدال بمعنى الاختلاف.

■ الجدال بمعنى المماراة في الشهور.

■ الجدال بمعنى أن تقول طائفة لأخرى: حَجُّنا أبرُّ من حجكم.

■ الجدال بمعنى الفخر بالآباء[١].

وقد يرد الجدال بالمعنى المحمود:

■ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فقد وردت هنا بمعنى الحوار «الهادئ».

■ ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

■ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ (هود ٧٤ - ٧٥).

وهذه المواضع الأربعة التي ورد فيها حسنًا (بالمعنى الحسن المقبول شرعًا).

والجدال في الحالة الأخيرة كما في الحالة الأولى كان حوارًا هادئًا بين نبي الله ورسوله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وبين ملائكة الرحمن «وقد رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة» رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وذلك أنهم لما قالوا ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟

قالوا: لا.

قال: فأربعون؟

قالوا: لا.

قال: فثلاثون.

قالوا: لا.

قال: فعشرون.

قالوا: لا.

(١) الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص ٤١٠.

قال: فإن كانوا فيها عشرة، أو خمسة (شك حميد).

قالوا: لا.

قال: فقال - يعني إبراهيم - قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم.

وقيل: إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟

قالوا: لا.

فقال: عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢][١].

والجدال بالتالي هي أحسن: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] جاءت قيدًا على الجدال، لتميزه عن الجدال المذموم من ناحية، ولبيان أنه لا ترذيل فيه، ولا تقبيح حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدال، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق.[٢]

ثانيًا: التحاج:

وهو مجاذبة الحجة أو التخاصم، وفي المثل لج فحج فهو رجل محجاج أي جدل[٣] وقد وردت في القرآن ثلاث عشرة مرة.

١- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٢- ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

٣- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

٤- ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: ٨٠].

---

(١) الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص ٧٢.
(٢) سيد قطب: الظلال - ج١٤، ص ٢٠-٢٢.
(٣) مختار الصحاح: ص ١٢٣ - تحت حجج.

٥- ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

٦- ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٧- ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

٨- ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

٩- ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

١٠- ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٧٦].

١١- ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣].

١٢- ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ [الشورى: ١٦].

١٣- ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧].

وقال فيها الإمام القرطبي تعليقًا على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة.

وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله:

▪ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة ١١١].

▪ ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾ [يونس: ٦٨] أي من حجة.

وقال في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٢-٣٥].

وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

فهو تعليم من الله عَزَّوَجَلَّ السؤال والجواب والمجادلة في الدين، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل.

وجادل رسول الله ﷺ أهل الكتاب وباهلهم بالحجة.

وتحاج آدم وموسى فغلبه آدم بالحجة.

وتجادل أصحاب رسول الله ﷺ يوم السقيفة وترافعوا وتقرروا وتناظروا حتى صدر الحق في أهله.

وتناظروا بعد مبايعة أبي بكر في أهل الردة إلى غير ذلك مما يكثر إيراده، وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ.. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦] «دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر».

والذي يبدو لنا أنه لا تصح المناظرة، ويظهر الحق بين المتناظرين؛ حتى يكونا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والإنصاف، وإلا فهو مراء أو مكابرة.

ونحن نلاحظ أن استعمال «التحاج» جاء قريبًا من استعمال الجدال وإن غلب في استعماله في الآيات الكريمة الإشارة إلى الجدال «المذموم» عدا قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وإذا صح منا هذا الاستنتاج فإن المحاجة بمعنى الجدال المحمود تكون قد جاءت هنا من قبيل المشاكلة التي يستعملها القرآن مثل قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] فمكرهم مكر سيئ ومكر الله حسن.. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥] وغيره كثير.

ثالثًا: المراء:

يأتي بمعنى الجحود: ماراه حقه أي: جحده.

ومنها قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢].

وماراه مراء: جادله.

والمرية: الشك، وكذلك الافتراء.

المراء في القرآن: وقد وردت اللفظة في القرآن باشتقاقات كثيرة (ثماني عشرة مرة):

١- ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

٢- ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ [النجم: ١٢].

٣- ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

٤- ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر: ٣٦].

٥- ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم: ٥٥].

٦- ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ﴾ [الزخرف: ٦١].

٧- ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢].

٨- ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٠].

٩- ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤].

١٠- ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧].

١١- ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠].

١٢- ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

١٣- ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

١٤- ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [هود: ١٧].

١٥- ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [هود: ١٠٩].

١٦- ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الحج: ٥٥].

١٧- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ [السجدة: ٢٣].

١٨- ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٤].

فقد وردت في ثمانية عشر موضعًا كما تقدم، وهي تتردد بين:

الجحود، والشك، والجدل المذموم.

لكنه لم يأت بمعنى الجدل الحسن، وعندما جاءت قريبًا من ذلك ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ [الكهف: ٢٢] جاءت على طريقة المشاكلة، فضلًا عن القيد الذي جاء مصاحبًا للكلمة «مظاهرًا» مما يؤكد المعنى.

ومن هنا ذهب المفسرون إلى أنه لم يبح له في هذه الآية أن يماري، ولكن قوله ﴿ إِلَّا مِرَآءً ﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب، سميت مراجعته لهم مراء، ثم قيد بأنه ظاهر ففارق المراء الحقيقي المذموم.

وفي الحديث عن «أبي أمامة مرفوعًا»:

«أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[1].

من كل ذلك نصل إلى:

١- أن الجدال، والمحاجة، والمراء.. جاءت مترادفات بمعان متقاربة.

٢- أنها إذا أطلقت فإنها تعني الشيء المذموم.

٣- أن ترتيبها في أداء معنى الذم تأتي في مقدمته المراء ثم المحاجة ثم الجدال.

٤- أن القرآن أورد قيد «الحسن» على الجدال؛ ليميزه عن الجدل المذموم؛ وليشير إلى «إباحته» أو «الندب إليه» أو وجوبه تبعًا للأحوال، وأنه في غير الآيتين الكريمتين اللتين جاء فيهما هذا القيد؛ فإن قيد «الحسن» يفهم من سياق الآيات.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (١٠/ ٤٠٦).

رابعًا: حكم الجدل والحوار:

إن الداعي إلى بحث هذه القضية والكلام عنها، هو ما جاء عن بعض العلماء من كراهية الجدل والتحذير منه، وحيث إن الجدل هو نوع من الحوار، ويتفق معه في بعض معانيه، فربما اشتبه الأمر على أناس فأنكروا الحوار والجدال والمناظرة احتجاجًا ببعض تلك النصوص التي تحذر من الجدال وتنهى عنه، كما أنه ربما بالغ أناس في استعمال الجدال والمحاورة وغالوا فيها وخرجوا عن الحد المشروع منها بحجة النصوص والأدلة التي تبيح الجدال والمناظرة.

ولذلك فخلاصة هذا المبحث هو التوفيق بين الأدلة الظاهرة التعارض، أي بين النصوص التي تأمر بالجدال وتحث عليه والأدلة التي تنهى عنه وتحذر منه، وذلك بعد سرد هذه الأدلة وبيان مواضع الاستشهاد فيها:

أما النصوص التي تأمر بالجدال، وتحث على المناظرة والحوار، فمنها:

١- قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] وقد تقدم الكلام عنها وذكر أقوال المفسرين فيها، وبيان أن الآية تدعو دعوة صريحة إلى الحوار والجدال الحسن والمناظرة؛ إذا احتاج الأمر إليها، وأن ذلك وسيلة مستقلة من وسائل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

٢-قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. ووجه الدلالة فيها أن الله تعالى أمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن من الرفق واللين والإنصاف ونحوه[١]، وقد رجح الطبري وغيره أن الآية تدعو إلى ذلك وأنها محكمة وليست منسوخة ومما قال رحمه الله: (لا معنى لقول من قال نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال، وزعم أنها منسوخة، لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل)[٢].

---

(١) مناهج الجدل، ص ٥٣. الطبري (٣/٢١)، وانظر ابن كثير (٤١٥/٣).
(٢) الطبري (٣/٢١)، وانظر ابن كثير (٤١٥/٣). هود: ٣٢.

٣- هناك آيات، أقرت فيها المجادلة والحوار والمناظرة مما يدل على جوازها وإباحتها ومنها: قوله تعالى في ذكر رد قوم نوح عليه ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: ٣٢] فنسب الجدال إلى نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم ينكره القرآن.

وقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧] وذكر هذا الكلام، والتعبير بلفظ المحاورة يدل على إقرارها وإثباتها.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] وهذه الآية تقر المجادلة والحوار كما هو ظاهر منها.

٤-وهناك أحاديث تقر المجادلة والمحاورة والمحاجة منها:

قوله ﷺ «ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا، بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار»[1].

ومنها حديث: «احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق فقال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى مرتين»[2].

وحديث (تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله تبارك وتعالى للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه أحدًا وأما الجنة فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينشئ لها خلقًا).[3]

وهذه الأحاديث الثلاثة يظهر منها إقرار ما جاء فيها من الألفاظ التي لم تنكر فدل على مشروعيتها وإباحتها. ومثلها ما كان من حوارات بين النبي ﷺ وأصحابه، مثل الذي

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: زيادة الإيمان، رقم (٤٩٢٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣١٥٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله «تقول هل من مزيد»، رقم (٤٤٧٢).

حصل بينه وبين السعدين في غزوة الأحزاب حول إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة، حيث استشارهما في ذلك فقالا: يا رسول الله! أمرًا تحبه فنصنعه أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟.

قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر من شوكتهم إلى أمر ما.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أَنْتَ وَذَاكَ»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: (ليجهدوا علينا)[1].

ومثل ذلك ما حصل بينه وبين عمر من مجادلة في الحديبية، وذلك حين جرى الصلح ولم يبق إلا الكتاب، فوثب عمر فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟

قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين، قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: (أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني)[2].

ومن ذلك مناظرة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع اليهود، حيث كان لعمر أرض بأعلى المدينة، فكان يأتيها، وكان ممره على طريق بيوت اليهود، وكان كلما دخل عليهم سمع منهم، وأنه دخل

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠٦/٤) إسناد وتفسير ابن كثير (٤/ ١٩٦).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٧٠/٤).

عليهم ذات يوم، فقال: يا عمر ما في أصحاب محمد ﷺ أحد أحب إلينا منك، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا، وتمر بنا فلا تؤذينا، و إننا لنطمع فيك.

فقال لهم عمر: أي يمين فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتجدون محمدًا ﷺ عندكم، فأسكتوا.

فقال: تكلموا ما شأنكم فوالله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني، فنظر بعضهم إلى بعض فقام رجل منهم فقال: أخبروا الرجل، لتخبرنه أو لأخبرنه، قالوا: نعم، إنا نجده مكتوبًا عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحى هو جبريل، وجبريل عدونا، وهو صاحب كل عذاب أو قتال أو خسف، ولو أنه كان وليه ميكائيل إذن لآمنا به، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث.

فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين مكان جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، قال عمر: فأشهدكم أن الذي هو عدو للذي عن يمينه عدو للذي عن يساره، والذي هو عدو للذي عن يساره عدو للذي عن يمينه، وأنه من كان عدوهما فإنه عدو لله.

ثم رجع عمر ليخبر النبي ﷺ فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فدعاه النبي ﷺ فقرأه عليه، فقال عمر: والذي بعثك بالحق، لقد جئتك وما أريد إلا أن أخبرك(١)، إلى غير ذلك من الحوارات التي سيأتي ذكر شيء منها في ثنايا البحث، والتي تقر الجدل والمحاورة.

٥ - يمكن الاستدلال على مشروعية الجدال بالحسنى والمحاورة بما وقع من كثير من الصحابة العلماء من المناظرات والحوارات ومنها: المحاورة التي كانت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة والتي انتهت بمبايعة أبي بكر خليفة للمسلمين بعد الخلاف والجدال الطويل الذي كان بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة من جانب وبين سعد بن عبادة والحباب بن المنذر من جانب آخر(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١ / ٤٣٤)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (١٢٤/٢).
(٢) تاريخ الطبري (٢٤١/٢ - ٢٤٤).

فهذه خلاصة ما يمكن الاستدلال به على مشروعية الجدال بالحسنى وإباحة الحوار والمناظرة.

وأما النصوص التي يظهر منها التعارض مع ما سبق، والتي تحذر وتنهى عن الجدال فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - هناك آيات عديدة يظهر فيها كراهية الجدل في قضية معينة، أو بأسلوب معين، وقد يستدل بها في كراهية الجدل مطلقا، ومنها:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأمثالها كثير من الآيات التي تشعر بخطر الجدل المذكور فيها والوعيد الشديد لمن تعاطاه.

٢ - وهناك بعض الأحاديث التي تحذر من الجدال وتبين كراهيته، ومنها: **قوله ﷺ:** «المراء في القرآن كفر»[1].

وقوله أيضًا **«ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل» ثم تلا هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾** [الزخرف: ٥٨].

ومثله حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: تلا رسول الله ﷺ **هذه الآية ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾** [آل عمران: ٧] **فقال يا عائشة: «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عاندهم الله فاحذروهم».**

وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **«أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».**

ومما يدل على أفضلية ترك الجدال وكراهيته، قوله ﷺ: **«أنا زعيم بيت في ربض الجنة** لَمَنْ ترك المراء، وإن كان محقًّا. .. .. .. الحديث».

٣ - **مما يستدل به على كراهية الجدل: ما أثر عن بعض السلف من أقوال تنهى أو تحذر منه ومن ذلك:**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: السنة، باب: النهي عن الجدال في القرآن، رقم (٣٩٨٧).

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كفى بك إثما أن لا تزال مماريا».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل».

وقال مسلم بن يسار: «إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان زلته».

وقال الإمام مالك رحمه الله: «ليس هذا الجدال من الدين في شيء».

وقال بلال بن سعد: «إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته».(١).

وقال الشافعي: «المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن»(٢).

وللجمع بين ما تقدم من تعارض ظاهر حول الجدل والمناظرة، فإن قصارى القول: إن إنكار الجدل وذمه مطلقا فيه تعسف ومكابرة للحق والواقع، كما أن قبوله والدعوة إليه مطلقا فيه أيضًا تعسف ومكابرة، فقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تأمر بالجدل وأخرى تنهى عنه، فعلمنا يقينا أن الجدل الذي تأمر به هذه النصوص غير الجدل الذي تنهى عنه؛ لأن نصوص القرآن ونصوص السنة الصحيحة لا تتعارض في حقيقة الأمر.

إذن فالجدل نوعان: جدل ممدوح وعليه تصرف نصوص الإباحة والجواز، وهو ما كان لنصرة الدعوة وتبليغها، وجدال مذموم، وعليه تحمل أدلة النهي والكراهية، وهو ما كان بباطل وبغير علم؛ ولنصرة الباطل والهوى.

والذي يبدو جليا من قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [غافر: ٤]: أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل في دفع آيات الله وتكذيبها والقصد إلى دحض الحق كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥].

وأما الجدال لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال

(١) المصدر السابق ٣/١٢٦.

(٢)) الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٨).

إلى المحكم فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب

والخلاصة: أنه قد تبين مما سبق أن حكم الجدال والحوار، يرجع إلى القصد منه والغرض من استعماله: فإن كان بالحق وللوصول إلى الهدى والصواب، ولكشف الباطل ودحض الشبهات فهو مباح جائز، وربما كان واجبًا إن كانت الحاجة ملحة إليه وهو من أنواع الجهاد، وأما إن كان جدالًا بالباطل لرد الحق ودفع الحجة، أو للوصول إلى الباطل فهو مذموم محرم، كما دلت النصوص والأقوال على تقرير ذلك.

وإذا كنا تناولنا الآن حكم الحوار والجدل شرعًا؛ فإننا في حاجة إلى بيان موضوعات الحوار التي ينصب حولها؛ مما سنعرض له الآن بحوله تعالى.

المبحث الثالث
موضوعات الحوار

جاءت موضوعات الحوار في الكتاب والسنة، محققة للأهداف المشروعة، لذلك فإننا نذكر أبرز تلك الموضوعات على سبيل المثال فيما يلي:

١-الدعوة إلى التوحيد:

فقد أخذ هذا الموضوع حيزًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة، وكذا من نماذج الحوارات الواردة فيهما، وقد تعددت طرق طرحه فتارة يكون بالدعوة إلى توحيد الله وبيان أهمية ذلك التوحيد، وتارة يكون بالنهي والزجر عن الشرك والإلحاد، وأحيانًا يكون حول إثبات وجود الخالق ووحدانيته، أو في ربوبيته وألوهيته.. إلى غير ذلك، ويكون القصد هو الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك، والأمثلة على هذا الموضوع كثيرة جدًا نذكر منها:

محاجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للنمرود بن كنعان في إثبات ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

الحوار مع أهل الكتاب ودعوتهم إلى التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومثل ذلك حوار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النصارى كما في الآية ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

الحوار مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حول هذه القضية كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

حوار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه ودعوته إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤] ومن ثم قال في محاجته لقومه كما في الآيات الآتية بعدها: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١].

إضافة إلى دعوة الرسل لأقوامهم، وبدئهم بأمر التوحيد و إصرارهم على كلمة التوحيد هي ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] كما هو واضح من قصصهم في سورة الأعراف وهود والشعراء وغيرها.

ومن أبرز تلك الحوارات ما كان بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه كما في سورة الأنبياء. قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ الآيات [الأنبياء: ٥١-٥٦].

أما الأمثلة من السنة فمنها:

- حديث أنس بن مالك وفيه: «قال يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق. قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك؟ قال نعم ... الحديث»(١).
- وغيرها من النصوص التي تدل على عناية الكتاب والسنة بهذا الموضوع، وطرحه في الحوار والمناقشة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: السؤال عن أركان الإسلام، رقم (١٣).

٢- الرسل والرسالات:

ومع الدعوة إلى التوحيد هناك حوارات وجدال طويل حول إثبات الرسالات والدعوة إلى تصديق الرسل، فما من نبي إلا ويجادله قومه حول هذه القضية، وينفون نبوته - إلا من رحم الله - ولذلك فقد أخذ هذا الموضوع حيزًا من حوارات الرسل، ومن نماذجه:

مجادلة قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٣]. ويتضح من الآيات أن أكثر الحوارات كان حول إثبات أنه رسول من رب العالمين، وكذلك فيه الدعوة إلى التوحيد.

مجادلة قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الآيات [الأعراف: ٦٥- ٦٩].

وواضح أيضًا من خلال الآيات تأكيد هود عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنه رسول من رب العالمين، وأن مهمته هي إبلاغ الرسالة والنصح لأمته مع ما في الآيات من الدعوة إلى التوحيد كذلك.

وكذلك الحال في مجادلة قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذ أنه دعاهم إلى التوحيد، وإلى الإيمان به؛ فكان جوابهم عليه ما ذكره الله في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ

بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٩].

ومن أقوى الحوارات وأطول الجدالات ما جاء في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ الآيات [الأعراف: ١٠٤-١٠٦].

إلى غير ذلك من قصص الأنبياء وحواراتهم مع أقوامهم حول الموضوع نفسه، مع ملاحظة أن هذه الآيات التي عرضناها الآن هي ما جاء في سورة الأعراف فقط، وهناك مثلها - وفي الموضوع نفسه - في سور أخرى مثل سورة هود والشعراء والأنبياء وغيرها. أما من السنة فالنصوص متعددة في إثبات الرسالة؛ لأن كل حوار مع المشركين مرده إلى إنكار النبوة والرسالة ومن الأمثلة على ذلك:

ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ فقالوا: محمد فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

ففي هذا الحديث وما دار فيه من حوار دعوة واضحة إلى الإيمان بالنبي ﷺ وتصديقه في رسالته.

(١) الطبري: (١٩/ ١٢١).

ومثله حديث جابر بن سليم حيث قال: «رأيت رجلًا يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئًا إلا صدروًا عنه. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ - قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك. قال: فقلت: أنت رسول الله؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشف عنك، وإن أصابك عام أو سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك ... الحديث»[1].

إلى غير ذلك من النماذج والأمثلة التي تشير إلى أن موضوع الرسل والرسالات كان من أهم موضوعات الحوار في الكاتب والسنة.

٢- البعث:

لقد أخذ موضوع البعث واليوم الآخر اهتمامًا كبيرًا وحجمًا واسعًا في نصوص الكتاب والسنة، وذلك لعلاقته المباشرة بالتوحيد والإيمان بالله ولكثرة اعتراض المشركين عليه وإنكارهم له والآيات في هذا الموضوع أكثر من أن تحصر فلا تكاد تخلو سورة مكية من التعرض لهذا الموضوع بأسلوب أو بآخر، كما في سورة الأنعام ويونس والنحل والإسراء ومريم والمؤمنون والنمل والروم والسجدة ويس والصافات وق، هذا عدا السور التي سميت باسم يوم القيامة كالواقعة والتغابن والحاقة والقيامة والغاشية والزلزلة والقارعة، وعدا السور التي كان موضوعها الرئيسي هو هذا الموضوع، كالمعارج والنبأ والتكوير والانفطار والانشقاق والطارق والتكاثر ونحو ذلك.

ومن نماذج الحوار في هذا الموضوع:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في إسبال الإزار، رقم (٣٥٦٢)..

وكذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إلى آخر السورة [يس: ٧٧-٨١].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات ما يوضح القضية وملابساتها، حيث (قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار، ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس...»)(١).

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير قال: (جاء العاص بن وائل السهمي إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيديه، فقال: يا محمد أيبعث الله هذا حيًّا بعدما أرم! قال: نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم قال: ونزلت الآيات)(٢).

ومثله ما تكرر من تعجب المشركين من أمر البعث، وجدالهم فيه كما في سورة الصافات حيث قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات: ١١-١٩].

وفي السورة نفسها تذكر قصة القرين المنكر للبعث قال سبحانه ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ

---

(١) ابن كثير: (٣/٥٨١) وانظر الرواية التي بعدها.
(٢) الطبري: (٢٣/٣٠-٣١)، ورواه الحاكم كتاب التفسير (٢/٤٢٩).

رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٥١-٦١].

إلى غير ذلك من النماذج الرئيسة والأمثلة، ويكفي لبيان حجم هذا الموضوع أن نعلم أن القرآن الكريم قد ركز على أربعة أدلة رئيسة لإثبات البعث كثيرًا ما تكرر في ثنايا السور، وخاصة المكية. وهذه الاستدلالات الأربعة هي:

١- الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيهما، إذ إن الذي خلق هذه الأجرام العظيمة قادر على أن يخلق الإنسان الضعيف الصغير كما قال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

٢- الاستدلال بإحياء الأرض الميتة: وأن الذي أحياها هو الذي يحيي الموتى، والذي يخرج منها النبات هو الذي يخرج الناس من قبورهم كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] ومثلها قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وكذلك قال عَزَّوَجَلَّ عن نزول الماء من السماء ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ١١].

٣- الاستدلال بالخلق الأول، وأن الذي خلق الإنسان أول مرة قادر على أن يخلقه مرة أخرى، بل إعادة الخلق أهون كما قال سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

٤- الاستدلال بإحياء الموتى بالفعل في الدنيا، وإن الذي فعل ذلك أمامكم وأحيا بعض الموتى قادر على أن يحيي الناس كلهم في الآخرة، كما في قصة قتيل بني إسرائيل[(١)]،

(١) البقرة: ٧٢ - ٧٣.

وقصة عزير(١) وطيور إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢) وكلها في سورة واحدة، ومنه نوم الإنسان ثم بعثه كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ومن الأمثلة كذلك ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] حيث صح من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقًّا لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: بلى، قال إن لي هناك مالًا وولدًا فأقضيك فنزلت الآية)(٣).

٤-موضوعات مختلفة:

إضافة إلى تركيز الكتاب والسنة على الموضوعات السابقة، فإن هناك حوارات متعددة حول موضوعات مختلفة متفرقة، وسنضرب بعض الأمثلة من القرآن الكريم، وأما بالنسبة للسنة فإن أمثلتها لا تحصر وقد ذكرنا بعضها وسيأتي ذكر كثير منها في ثنايا البحث، ومن أمثلة القرآن الكريم.

حوار الله مع الملائكة في خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، وحوارهم الطويل مع نبيهم حول القتال في سبيل الله.(٤)

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible] ٢٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله أرأيت الذي كفر بآياتنا، رقم (٤٣٦٣).

(٤) البقرة: ٢٤٦ - ٢٤٩.

حوار صاحب الجنتين كما في سورة الكهف قال تعالى ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴾ الآيات [الكهف: ٣٤-٣٧].

حوار موسى مع الخضر كما في السورة نفسها[1].

حوار مؤمن آل فرعون مع قومه، ودعوتهم إلى الإيمان، مع الدفاع عن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما في سورة غافر[2] إلى غير ذلك من الموضوعات والأمثلة والنماذج المتعددة.

ومن موضوعات الحوار مع أهل الكتاب ما يلي:

أولًا: بيان التوحيد وأهميته، وأنه لا نجاة لأحد إلا به فيدعوهم إليه ويحذرهم من الشرك بأنواعه المختلفة، فتارة يبين أنه بعث به جميع الأنبياء، وقد ورد ذلك في آيات عديدة في سياق محاورة أهل الكتاب منها قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ٤].

وتارة يبين لهم عاقبة الشرك كقوله تعالى محاورًا أهل الكتاب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

(١) الكهف: ٦٦ - ٨٢.

(٢) غافر: ٢٨ ٤٤-.

وكقوله تعالى للنصارى على لسان نبيهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وتارة يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن اتخاذ المخلوقين أربابًا حتى لو كانوا ملائكة وأنبياء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وتارة ينكر عليهم نسبة الولد لله ويبين لهم أن هذا من الشرك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٧]. كما ينكر على النصارى التثليث الذي هو نوع من الشرك ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣).

ولأجل هذا الموضوع يبين لهم بعض الحقائق التاريخية المتعلقة بعيسى وحقيقته وقصة ولادته وبيان أنه لم يصلب.

ثانيًا: دعوتهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وبالكتاب الذي أُنزل إليه، وبالدين الذي جاء به، وهو دين الإسلام، ويحذرهم من الكفر به خاصة وقد بشرت به كتبهم وعلموا أنه رسول من عند الله. وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وكقوله تعالى ذامًّا أهل الكتاب على تفريقهم بين الأنبياء، وكفرهم بمحمد ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧]. وكقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١]. وكقوله تعالى محاورًا أهل الكتاب: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] وكقوله تعالى في سياق محاورتهم: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد عنيت السنة النبوية بهذا الموضوع، ومن ذلك ما ورد أنه لما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله. وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب..»(١).

كما أرسل النبي ﷺ الكتب إلى الملوك كهرقل والنجاشي وكسرى والمقوقس والمنذر ابن ساوى وملك عمان وصاحب اليمامة وصاحب دمشق يدعوهم فيها إلى الإسلام(٢) وسنورد كتابًا منها، وهو كتاب النبي ﷺ إلى هرقل - وكان ملك الروم وكان نصرانيًا - قال ﷺ: **«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»** و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، رقم (٤٠٠٠)
(٢) ابن القيم: زاد المعاد (٣/٦٨٨- ٦٩٧)

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذا الكتاب متضمن دعوتهم إلى الإسلام، وإلى التوحيد والتحذير من الشرك، واتخاذ بعضهم بعضًا أربابًا، وهذان الموضوعان هما أسس جميع المواضيع الأخرى فهما أهم موضوعين حاور فيهما القرآن والسنة النبوية أهل الكتاب.

ثالثًا: بيان تحريفهم لكتبهم رغبة في المال، وطمسًا لحقائق التوحيد والبشارة بمحمد ﷺ، وقد ذكر القرآن أن الكتب السابقة وقع فيها جميع أنواع التحريف، وهي التبديل والزيادة والنقص، والآيات في هذه الموضوعات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦].

ويقول تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

رابعًا: الرد على شبهاتهم وادعاءاتهم وافتراءاتهم: وهذا من المواضيع التي عُنى بها القرآن الكريم، فهو يفند شبه أهل الكتاب المختلفة كما يرد ادعاءاتهم وافتراءاتهم الباطلة، حتى يتضح الحق، ومن ذلك:

١- دعوى كل طائفة منهم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منها، فرد عليهم الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران ٦٥ -٦٧]. وقوله ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٢- دعوى كل طائفة أنها وحدها على الحق ولن يدخل الجنة سواها، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]. وقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤ – ٩٥].

٣- دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

٤- افتراؤهم على الله بقولهم: إنه فقير، و إن يده مغلولة تعالى الله عما يقولون وزعمهم بأنهم أغنياء، كما قال تعالى عنهم: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤].

٥- زعمهم بأن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، وهذا من تعجيزاتهم ومبرراتهم لعدم الإيمان بمحمد ﷺ، وقد ذكر الله ذلك عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: ١٨٣ -١٨٤].

٦- طلبهم من محمد ﷺ الإتيان بمثل ما جاء به موسى، وأن عدم إتيانه بذلك هو المانع من إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨-٤٩].

٧- زعم اليهود بأن المانع من إيمانهم هو أن الملك الذي يأتي بالوحي هو جبريل، وهو عدوهم، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

٨- زعمهم أن المانع من إيمانهم هو أن القرآن يحل من الأطعمة ما حرم على بني إسرائيل كلحوم الإبل وألبانها، فكيف يكون مصدقًا للتوراة فأنزل الله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

٩- تعجيزهم للنبي ﷺ بطلب الآيات فقد سألوه أن ينزل كتابًا من السماء ليؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

١٠- تشكيك اليهود بصحة الرسالة بسبب ترك قبلتهم، وهي بيت المقدس إلى البيت الحرام، ومحاولتهم استغلال ذلك لفتنة المؤمنين عن دينهم، فأنزل الله آيات عديدة في الرد عليهم منها قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وكان اليهود يعترضون على نسخ القبلة، لأنهم لا يرون النسخ أصلًا فرد الله عليهم ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وهذه الموضوعات الأربعة هي أهم الموضوعات التي وردت في القرآن الكريم، وقد وردت مواضيع أخرى فرعية وخادمة لهذه المواضيع، مثل ذكر فضل الإسلام، وضلال النصارى، وتعنت اليهود وسوابقهم مع أنبيائهم مع ما أنعم الله عليهم من النعم الكثيرة.

ولعل تناولنا للموضوعات التي يدور الحوار حولها؛ يأخذنا إلى ذكر آداب الحوار في الإسلام مما سنتناوله فيما يلي:

المبحث الرابع
آداب الحـوار

ما دام الحوار ضرورة فإنه من الأفضل إذن أن نتعرف إلى آداب الحوار التي ينبغي لكل محاور أن يلتزم بها حتى ينجح الحوار ويصل إلى الحق، وفي البداية لابد من:

آداب يتحلى بها الإنسان قبل البدء في الحوار، وهي:

١- إخلاص النية لله.
٢-العلم.
٣- الصدق.
٤-التزام المحاور بما يدعو إليه.
٥- التكافؤ بين المتحاورين.
٦-وجود خلفية عن الطرف الآخر.
٧- اختيار الطرف المناسب.

وآداب يتحلى بها الإنسان أثناء الحوار، وهي:

١-حسن الاستماع.
٢-التدرج والبدء بالأهم.
٣- الإقرار بالخلاف.
٤-التدعيم بالأمثلة والحقائق.
٥-طلب الانتظار وعدم الاستعجال.
٦-الهدوء وعدم الغضب.
٧- الاحترام بين المتحاورين.
٨- إقامة الحجة.
٩- إنهاء الحوار.
١٠-استخدام كلمات لطيفة أثناء الحوار.

وهناك كلمات يحسن بنا استخدامها عند الحوار تساعد على سيره في الطريق الصحيح والوصول به إلى الهدف المنشود، وسنتحدث عن هذه الآداب بشيء من التفصيل.

آداب يتحلى بها الإنسان قبل بدء الحوار:

١-إخلاص النية لله تعالى:

ينبغي ألا يدخل الإنسان في حوار ما إلا إذا كان متأكدًا من أن نيته لله عَزَّوَجَلَّ، ليس

المقصود أن يظهر من خلال الحوار براعته وثقافته، وأن يتفوق على الآخرين أو أن ينتزع الإعجاب والثناء، فذلك كله أمر يحبط عمله عند الله عز جل[١]. وحقيقة الإخلاص التبرئ من كل ما دون الله أي أن المحاور ينبغي أن يقصد وجه الله بقوله وعمله وجهاده، وأن يبتغي مرضاته وحسن مثوبته[٢]. ومن أغراض الحوار أن يكون لحراسة الشريعة والذب عنها، ودلالة الناس على الهدى، وتثبيتهم عليه، وكشف أحوال المندسين بينهم[٣].

فإذا لم تخلص النية لله تعالى لم يتحقق هذا الغرض (وقال المزني صاحب الشافعي: ومن حق المناظرة أن تراد في الله عَزَّوَجَلَّ وأن يقبل منها ما تبين)[٤]. وقال الشافعي: ما ناظرت أحدًا إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه فالمهم صحة الفكرة وظهور الحق[٥]. فإن من تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حمية، ورياء وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصًا له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله من ورثة الأنبياء خلفاء الرسل[٦].

ولذلك على المحاور أن يقوم يراجع نيته قبل أن يدخل في حوار فيسأل نفسه، هل نيتي خالصة لله في هذا الحوار أو هذه المناقشة؟ وهل هناك مصلحة وفائدة ترجى من كلامي أم أنه قد يسبب آثار هي خلاف ما أحب؟ كأن يثير فتنة نائمة أو يفتح باب خلاف بين المسلمين كان مسدودًا، وعلينا هنا أن ننتبه إلى تلبيس إبليس علينا فهو يوهمنا أننا سنتحدث إحقاقًا للحق وتبيانًا له، ثم يستدرجنا إلى مواقف؛ ليتحقق هوى النفس[٧].

ولكي يعتصم المحاور من الرياء ويبرأ من عقباه أرشده النبي ﷺ أن يتوجه إلى الله بهذا الدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه)[٨].

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٢٩.
(٢) د. علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة إلى الله، ص ٣٧٠.
(٣) بكر أبو زيد: الرد على المخالف، ص ٥٤.
(٤) د. علي جريشة: آداب الحوار والمناظرة، ص ٢٥.
(٥) الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٢٩.
(٦) الإمام ابن تيمية: الفتاوى، ج٢٨، ص ٢٣٥.
(٧) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٢٩.
(٨) جمعة أمين عبد العزيز: للدعوة قواعد وأصول، ص ٤٨.

وهذا الأدب قد يكون في النظر سهل الاعتبار والمأخذ، ولكنه عند التطبيق والتدقيق عزيز المنال صعب المدرك فكم من الناس يظهر أنه يدعو إلى الحق وهو يدعو إلى نفسه ويريد العلو والانتصار لشخصه أو لشيخه أو غير ذلك[1].

ولذلك نرى رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ضربوا لنا أروع المثل في إخلاص دعوتهم لله وحوارهم مع قومهم. فهذا نوح يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٩]. وهود يقول ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٤-١٢٧].

إذن على المحاور أن يقصد وجه الله أولًا ثم يبين قصده وهدفه من حواره وخاصة إذا كان الخصم معاندًا مستكبرًا فهذا شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

٢- العلم:

العلم من أهم أسباب نجاح الحوار وبدونه يكون الضرر كبيرًا؛ إذ يصبح الحوار هدرًا للوقت وتضييعًا للجهد.. والعلم المقصود هو العلم المتعلق بموضوع الحوار ومادته.

والعلم بما ينقض الرأي المخالف للصواب، ومعرفة الردود والأجوبة القوية، التي يمكن أن تواجه بها الشبهات والاعتراضات التي يثيرها الطرف الآخر.

ولما كان العلم هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق وللتفكير السليم أنكر الله على أهل الكتاب محاجتهم دون علم فقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

---

(١) صالح بن حميد: أدب الخلاف، ص ٥٠.

يقول الإمام النسفي في تفسير هذه الآية الكريمة (لا يصح لكم أن تجادلوا مثل هذا الجدال المحال، يعني أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم فبما لكم به علم مما نطق به التوراة والإنجيل، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ولا ذكر له في كتابكم من دين إبراهيم والله يعلم علم ما حاججتم فيه، وأنتم جاهلون به)[(١)].

وقد نهى الله تعالى أن يتبع الإنسان ما لا علم له به وأن يتدخل فيما لا يحسنه فقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] أي لا يقف في اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكًا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده[(٢)].

وقال الزمخشري وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأن ذلك من العلم فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به[(٣)]. فعلى المحاور أن لا يخوض في موضوع لا يعرفه جيدًا ولا يدافع عن فكرة لم يقتنع بها تمامًا فإنه بذلك يسيء إلى الفكرة والقضية التي يحاور من أجلها.

وللمحاور إظهار علمه والتصريح بأنه أعلم توثيقًا لقوله إذا كان في ذلك مصلحة ظاهرة شريطة أن لا يؤدي ذلك إلى الكبر والغرور فإن هذا يتنافى مع الإخلاص ولا يستقيم مع العلم، ومن ذلك قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

يقول الإمام الألوسي: (والفرق بين تبليغ الرسالة وتقرير النصيحة أن تبليغ الرسالة معناه أن يعرف أنواع التكاليف والأحكام، والنصيحة والترغيب في الطاعة والتحذير من المعاصي والإرشاد إلى ما فيه مصالح العباد ومعنى علمه، أي أعلم من قدرته وبطشه الشديد على أعدائه ما لا تعلمونه، قيل كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين ما يعلمون ما علمه نوح بالوحى)[(٤)].

(١) النسفي: ج١، ص٧٠١.
(٢) الألوسي: ج٥، ص ١٥٧.
(٣) الزمخشري: الكاشف، ج٢، ص ٤٤٩.
(٤) الألوسي: ج٣، ص ١٨٣.

وقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٣].

وانظر إلى الخليل صلوات الله عليه لم يصف أباه بالجهل ولا نفسه بالعلم الكامل فإن ذلك ينفر الناس ويمنع الجليس من الائتناس بل قال: (إني أعطيت شيئًا من العلم قليلًا ولم تعطه ولا ضير عليك في شيء إن اتبعت ابنك حتى يهديك إلى الصراط المستقيم، يا أبت هب أنا سائران في الطريق وأنا على علم به أفلا يكون من الخير أن تتبعني حتى تصل إلى بر السلامة، وأنت أبي على كل حال وأنا ابنك البار وهذا جذب لأبيه ليصل إلى الحق بطريق سديدة حقًّا يشككه في اعتقاده ثم يلمح له بأن الخير في اتباعه، وترك ما هو عليه).

٣-الصدق:

عند الحوار لا بد من احترام الحقيقة والقيام بمسئولية الكلمة، والحوار الهادف المبارك هو الحوار الصادق الذي يطمئن كل طرف فيه إلى الآخر، أما اللجوء إلى الغموض والمراوغة فإنه قلة في الإخلاص وضعف في النفس، ويؤدي إلى فقدان الثقة بين الطرفين ومن ثم إلى فشل الحوار. ومن مقتضيات أدب الحوار:

أ- الإخلاص والتجرد في طلب الحق وبذل النصيحة للطرف الآخر.

ب- عدم كتم شيء من الحق أو إخفاء بعض العلم الذي له علاقة بموضوع الحوار خاصة إذا كان ظاهر تلك الأدلة المسكوت عنها لصالح الطرف الآخر فإن ذلك قدح في مصداقية المحاور. والعقيدة الإسلامية عقيدة الصدق والوضوح والاستقامة، ولذلك حرص الأنبياء عليهم والسلام على إبراز هذا الجانب في محاوراتهم لأقوامهم فهذا هود يبين أمانته وصدقه في التبليغ: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨]. ولا تكون أمانة أو نصحًا دون صدق وقد وصف الله تعالى نبيه إدريس بالصدق فقال سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٦] وفي ذلك توجيه للدعاة وطالبي الحق حتى يتحلوا بالصدق فإنه يؤدي إلى الثقة في المحاورة وهدوء نفس المتحاورين.

٤- التزام المحاور بما يدعو إليه:

الحوار إما أن يكون حول قضية علمية أو عملية، فإن كان حول قضية عملية ينبغي أن يكون قدوة حسنة في تطبيق ما يحاور لأجله ويدافع لإثباته، والعمل يعلم ما لا يعلمه القول بل إنه يقلب الأفكار النظرية إلى حقائق علمية ملموسة يتأثر بها من يراها قبل أن يسمع من يتكلم عنها فمن فرط في العمل وقصر في التنفيذ دل ذلك منه على اضطراب وعدم يقين وكان أضعف في حجته وأعجز عن إقناع غيره. (وإنكار وموعظة لا يلتزم صاحبها بها تؤدي إلى شر عظيم وتؤدي إلى فتنة السامع وعدم اقتناعه بصحة ما يقوله المحاور)[١].

قال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ‏ ‏ ‏ عار عليك إذا فعلت عظيم[٢]

ولذلك نرى شعيبًا خطيب الأنبياء عندما يتحدث مع قومه يبين لهم التزامه بالسلوك السوي، وأنه أول من التزم بما يأمرهم به فيقول: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. قال شعيب لقومه: وما أريد أن أخالفكم مائلًا إلى ما نهيتكم عنه بل أنا متمسك به فيكم؛ لأني أرى فيه الخير والرشاد في الدنيا والآخرة وأنا ما أريد إلا الإصلاح والخير العام لي ولكم ما استطعت إلى ذلك سبيلًا ليس لي فيما أفعل غرض خاص[٣].

والمقصود أن المحاور الناجح الذي يعطي المثل الصالح والقدوة الحسنة يمكنه أن يقنع الآخرين بآرائه، ويطلب منهم تصحيح أخطائهم؛ لأنه يكسب احترامهم ومحبتهم عن جدارة واستحقاق بموافقة قوله لعمله والتزامه بما يدعو إليه ويحاور لأجله.

٥- التكافؤ بين المتحاورين:

ويقصد بالتكافؤ التقارب بين المتحاورين من حيث المنزلة والمكانة الاجتماعية العلمية بقدر الإمكان ولا نقصد من ذلك امتناع الحوار مع من نختلف معه مكانة ولكن

---

(١) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة إنكار المنكر، ص ٥٠.
(٢) أبو عبد الله بن مالك: شرح ابن عقيل، ج٤، ص١٥.
(٣) محمد محمود حجازي: التفسير الواضح، المجلد الأول، ج١٢، ص٤٠.

مراعاة تقارب السن والمنزلة له أثر في مجرى الحوار إيجابًا أو سلبًا. (وقالوا لا تصح المناظرة ولا يظهر الحق بين متناظرين. حتى يكونا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والإنصاف وإلا فهو مراء أو مكابرة)(١).

إن تقارب العلم والاتجاه والتفكير يسهل عملية الحوار، ويؤدي إلى نجاحها والاختلاف يؤدي إلى فشلها حتمًا.

- فلا يتحاور فقيه مع شاعر في مسألة فقهية.
- ولا يتحاور نحوى مع عالم في الفيزياء في مسألة علمية.

(ومن الخطأ أيضًا أن يتكلم أحد الطرفين بلغة الواقع عن مشكلة اجتماعية ينشد لها الحل فيجيبه الآخر بلغة مثالية مجردة عن أرض الواقع)(٢). ولذلك أرسل الله تعالى الرسل بلسان أقوامهم وكانت معجزاتهم مما برع فيه أولئك الأقوام وأرسل الله محمدًا ﷺ بلسان قومه ومن أشرافهم. كذلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعثه الله إلى فرعون فطلب المعونة والمؤازرة بأخيه: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]. وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا وأقوى بيانًا وأدرى مني بلهجة المصريين؛ لأنه لم يترك بلادهم فأرسله معي معينًا واجعله وزيرًا ألتجئ إليه ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] ويحمل معي عبء هذه الرسالة فإني أخاف أن يكذبوني. إني أخاف أن يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نُبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة، وأن يتمرد على الحق ويطغى بملكه، وسلطانه وجنده وأعوانه(٣).

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فقال الله تعالى لهما: لا تخافا أن سيفرط عليكما فأنتما بحفظي ورعايتي، أسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما، ولا تخافا منه(٤).

---

(١) الشنقيطي: آداب البحث والمناظرة، ص ٢٥.
(٢) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص ٥٦.
(٣) السعدي: ج٣، ص٢٦٣.
(٤) السعدي: ج٣، ص٢٦٣.

٦- وجود خلفية عن الطرف الآخر:

(تتفاوت عقول الناس وأفهامهم ومستويات ثقافتهم، والمحاور الفطن يعرف مع من يحاور، وبالتالي يعرف الطريقة التي ينبغي له أن يناقشه بها ويحاوره)[١].

(فمن الضروري جدًّا أن يعرف كل محاور الطرف المقابل له معرفة دقيقة أو أن يعلم شيئًا عن ظروفه وبيئته وقدره ومنزلته وعلمه وأحواله إذ إن هذا يفيد كثيرًا في تحديد الأسلوب المناسب والاستعداد اللازم، كما أنه يعين على فتح قلبه والقرب منه وضبط أعصابه)[٢]. (فمعرفة حال من توجه إليهم الدعوة من حيث نفسياتهم وأخلاقهم، وعوائدهم وكل الأمور المعينة على أن يتفهم المتكلم نفسياتهم.. فيخاطبهم بما يحقق الغرض، ويصل به إلى المطلوب من أيسر طريق)[٣].

لذا يجب على المحاور أن يعرف مستوى الطرف الذي يحاوره في العلم، والفهم فإن الطالب لا يخاطب كما يخاطب العالم[٤]، والكبير لا يخاطب كما يخاطب الصغير أو النظير والذكي لا يخاطب كالغبي، وأنواع الناس مختلفة متباينة.

وليس كل متحدث ينشد الحوار، بل فيهم من يكفيه أن تصغى إليه فيستريح نفسيًّا وعندها يتقبل رأيك بسهولة. لأجل هذا كان لابد من ملاحظة بعض النقاط المهمة، والتي منها:

١- أن لا يكون المحاور هو البادئ، بل يجعل الطرف الآخر يبدأ حتى يدرك طبيعته ويستشف أسلوبه ويعرف هل هو ممن يحاورون بالعقل أم بالعاطفة ويرى نظرته للحياة ودرجة وعيه[٥]. وفهمه حتى يسبر غوره فيحدد من أين يأتيه وكيف يحاوره.

---

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٣٥.
(٢) يحيى بن محمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص١٨.
(٣) أحمد بن محمد طاحون: مرشد الدعاة إلى الله، ص ١٧.
(٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٣٥.
(٥) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور؟، ص ٢٥.

٢-التمهيد للحوار، وذلك بالتلطف للدخول إلى قلب الطرف الآخر، وهذا له طريقتان:

أ- بطرح أسئلة محايدة بطريقة توحي أنك تشاركه في بعض قناعاته وبذلك يستطيع أن يسبر غوره دون أن يستفزه[١]. كما فعل المؤمن الذي جاء يدافع عن موسى (وذلك أنه لما رأي فرعون قد عزم على قتل موسى أراد الانتصار له بطريقة يخفى عليهم بها أنه متعصب له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال: «أتقتلون رجلًا»، ولم يذكر اسمه بل قال رجلًا ليوهم أنه لا يعرفه.

ثم قال «أن يقول ربي الله» ولم يقل رجلًا مؤمنًا بالله أو هو نبي الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله «وإن يك كاذبًا» فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه، ثم تلا بقوله «وإن يك صادقًا» ولم يقل هو صادق، وكذلك قال: «يصبكم بعض الذي يعدكم» ولم يقل: كل ما يعدكم ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدقه.

بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله.. «إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب» وفيه تعريض بفرعون، إذ هو غاية الإسراف والكذب على الله، إذ ادعى الألوهية والربوبية)[٢].

ب- بطرح أسئلة في أمور عامة ليست لها علاقة مباشرة بموضوع الحوار؛ لتهيئة نفس المحاور وإعطائه فرصة للتأقلم مع جو الحوار[٣].

٣- لا بد من عدم افتراض شخصية معينة أو مستوى معينًا أو خطأ في المحاور فعلى صاحب الحوار ألا يفترض مسبقًا في محاوره الذكاء فيكلمه بحيث لا يفهم، ولا الغباء فيشرح ويبين ما لا يحتاج إلى شرح وبيان، وعليه أن يعتقد إمكانية الخطأ في نفسه وإمكانية أن يكون الآخرون على صواب. فالله تعالى لم يختصه بالعقل والعلم والفهم دون غيره[٤].

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٣٥.
(٢) جمعة أمين عبد العزيز: الدعوة قواعد وأصول، ص١٣١.
(٣) يحيى زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص١٢٣.
(٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٣٥.

٤- الحذر من الاستفزاز؛ فهناك أناس يلقون القول أو شيئًا من الإشارة؛ ليخرجوا من يحاورون عن طورهم فيجعلونهم مادة للحديث[١].

ومن هنا نرى: أن وجود خلفية عن المحاور يضفي على نفسية محاوره شيئًا من الألفة والاطمئنان والثقة والمعرفة التي تساعد على سير الحوار بطريقة هادفة؛ وهؤلاء الملائكة عندما جاءوا إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن يعرفهم قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١]. قال القرطبي: (لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرفوه بأنفسهم، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول)[٢].

كذلك في قصة مريم عندما جاءها جبريل لينفخ فيها طمأنها وعرفها بنفسه، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٩]. كذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ [طه: ١١-١٢]. أي لما أتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ النار التي آنسها من بعيد، وهي في الحقيقة نور ناداه الله ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ فأخبره أنه ربه، وأخبره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته ويهتم لذلك[٣].

فهذا من تعريف الشخص بنفسه، أما من طلب التعرف بالطرف الآخر أو فتح مجالًا للحديث معه في أمور أخرى تمهد للحوار، مثل سؤال الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٧-١٨]. ومع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام أتى الكلام بطريقة الاستفهام فقال موسى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾، وذكر فيها هاتين المنفعتين: منفعة لجنس الآدمي وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه فيحصل فيها معونة ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه هش بها، وضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم، وهذا الخلق الحسن من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيم والإحسان إليه؛ مما يدل على عناية من الله له واصطفائه وتخصيص تقتضيه رحمه الله وحكمته ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾.. أي مقاصد غير

(١) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص٢٥.
(٢) القرطبي: ج٩، ص٧٩.
(٣) السعدي: ج٣، ص٢٥٢.

هذين الأمرين، ومن أدب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله لما سأله عما في يمينه وكان السؤال محتملًا الإجابة عن غيرها أو منفعتها إجابة بعينها ومنفعتها[١]. وفي هذا السؤال غاية الإيناس للمسئول؛ حتى يكون هناك مجال لفتح الحوار وتهيئة للنفس لقبوله.

٧- اختيار الظرف المناسب:

يحسن بالمحاور أن يلقي نظره فاحصة فيما حوله قبل أي حوار ثم يحدد تلاؤم الحال للحوار؛ فإن وجده ملائمًا استعان بالله وبدأ وإلا سكت وتريث[٢] ونقصد بالظرف المناسب أمورًا:

١-ملاءمة المكان.
٢-ملاءمة الزمان.
٣-ملاءمة الطقس (الجو الحسي).
٤-ملاءمة الحالة النفسية للمتحاورين.
٥-ملاءمة الموضوع.

فمن حيث المكان:

قد يكون ناديًا عامًا أو بيت صديق أو مكتب عمل وقد يكون مسجدًا أو سيارة[٣] فعلينا مراعاة المكان من حيث ضيقه وسعته؛ والأماكن العامة لا تصلح لحوار في قضية خاصة أو حوار طويل حيث تكثر فيها الشواغل والمقاطعات، فلا تصلح أماكن الضجيج مثل الأسواق والمدارس ونحوها فلا بد من الابتعاد عن الأجواء الجماعية والغوغائية؛ لأن الحق قد يضيع في مثل هذه الأجواء حيث التقليد الأعمى والتبعية للأكثرية، وبقدر ما يقل المتحاورون أو السامعون في الحوار بقدر ما ينقادون إلى الحق عند ظهوره.

ومن حيث الزمان:

فلا بد من مراعاة اتساعه للموضوع الذي يطرح للحوار، فلا يُحدد وقت في نهاية الدوام لانشغال الناس بالانصراف إلى منازلهم، ولا يكون في وقت متأخر من الليل حيث

(١) السعدي: ج٣، ص ص٢٥٥، ٢٥٦.
(٢) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص١٨.
(٣) أصول الحوار: ص ٣٢.

الرغبة في النوم أو قبل طعام أو استعداد لسفر، بل يختار وقتًا يتسع للحوار؛ حتى لا يؤدي إلى بتره أو عدم الفائدة منه. (والمقصود بمراعاة الوقت تخير الوقت الملائم للحوار ومناسبة طول وقته لأحوال الناس)[1].

ومن حيث ملاءمة الطقس:

إن وجود ما يؤذي جو الحوار يؤثر على طبيعة الحوار ونتيجته فلا بد من مراعاة الجو من حيث الحرارة والبرودة قبل البدء في النقاش، فالحر الشديد أو البرد الشديد يؤثر على جسم الإنسان وتفكيره سلبًا و إيجابًا.

ومن حيث الحالة النفسية للمتحاورين:

المحاور اللبق هو الذي يعطي الظروف النفسية وزنها ولا يهملها، فالإرهاق والجوع أو التعب والحزن والألم كل هذه الحالات وغيرها لا يصلح أبدًا أن يتم حوار مع شخص يعاني من بعضها أو أحدها كذلك لا بد من مراعاة حالة الحضور وهل هم على مستوى المناقشة أم أدنى؟ وهل فيهم من سوف يتدخل بشكل يفسدها، و يضيع إمكانية الانتفاع منها؛ كوجود مشاكس بينهم همه اللعب و إثارة الأعصاب مما يضيع الفائدة من الحوار و يشتت الانتباه.

ومن حيث ملاءمة الموضوع:

على المحاور أن يتذكر أنه مطالب بحسن انتقاء المعلومات التي يحاور بها وأن يكون الموضوع يندرج تحت اهتمام السامعين فما يصلح أن يروى أمام الخاصة لا يصلح أن يروى أمام العامة وما يتقبله الناس في بلد قد يرفضونه في بلد آخر[2]. (رغم ذلك كله يظل اختيار الظرف المناسب أمرًا يحتاج إلى مران ومنزلقًا قل من ينجو منه)[3]، (وفي حالات أخرى قد لا يملك المحاور أن يتحكم في تحديد موعد معين كأن يفاجأ في جمع من الناس من يلبس عليهم في أمر دينهم مثلًا أو يثير شبها، و يشكك في أصول وقواعد ومسلمات يبنى عليها

(١) علي باد حدح: مقومات الداعية الناجح، ص ٩٩.
(٢) يحيى محمد زمزمي: الحوار وآدابه وضوابطه، ص ١١٧، والندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٣٢.
(٣) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص ١٨.

دين المسلم عندها قد لا يسع المحاور إلا أن يتحين أقرب فرصة ويفرض نفسه لتصحيح الأخطاء التي ربما علقت بأذهان المستمعين، ورد الشبهات، ومن ثم إسكات المتكلم)(١).

أما آداب الحوار أثناء المحاورة فهذا ما نفصله فيما يلي:

وللحوار آداب ينبغي أن يتحلى بها الفرد المحاور أهمها:

١- حسن الاستماع:

السماع الكامل للآخرين يشعرهم باهتمامنا بما يقولونه وجديتنا في التحاور معهم وثقتنا في الوقت ذاته فيما عندنا، هذا معناه فن الاستماع للآخر وعدم الطمع في الكلام بدلًا منه؛ لأن هذا الطمع يزهدنا في قول الآخرين ... يقول أحد الشعراء:

إن بعـض القـول فن   فاجعل الإصغـاء فنًّا

فالإصغاء: فن القدرة على الانتباه والتمييز بين الحقائق والميول الشخصية كما أنه القدرة على التركيز فيما يقوله الآخرون وما يحاولون التعبير عنه، وهذا يتطلب سماع كل ما يقال، وليس فقط ما يتوقع أو ما يريد الشخص سماعه، ولذلك يشتمل فن الإصغاء على استجابات بناءة تساعد الشخص الآخر على التعبير عن أفكاره وأحاسيسه، والواقع أن كثيرًا من الناس يخفقون في ترك انطباع جيد في نفوس الآخرين، ويعود السبب إلى أنهم لم يتعلموا فن الإصغاء، إنهم لا يصغون باهتمام إلى حديث الآخرين ويحصرون اهتمامهم فقط فيما سيقولونه، ولكنهم لا يلقون بالًا لما يصدر عن الآخرين من حديث وأفكار(٢).

أنواع الإصغاء:

بالرغم من أن الإصغاء هو فن القدرة على الانتباه من أجل التمييز بين الحقائق والميول الشخصية فإنه يمكن تقسيمه إلى الأنواع الثلاثة التالية:

---

(١) يحيى محمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص٤٨١.

(٢) سناء محمود عبدالله عابد: الحوار في القرآن الكريم معالمه وأهدافه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات بجدة، وكالة الرئاسة العامة لتعليم البنات، ١٤٢٠هـ، ص ٥٢٠.

أ- الإصغاء إلى المعنى الكامل حيث إن أي رسالة يحاول الإنسان إيصالها تحتوى على عنصرين هما: المحتوى، والشعور.

و يعطي هذان العنصران معًا معنى وافيًا للرسالة، وهو المعنى الذي ينبغي فهمه.

ب- الاستجابة للشعور: وهي قاعدة مهمة؛ حيث يكون المحتوى أقل أهمية بكثير من الشعور الضمني للمحتوى وفي هذه الحالة يأتي الإصغاء بالتركيز على الشعور أكثر من المحتوى.

جـ- ملاحظة جميع التلميحات: فالواقع أن كلمات المتحدث لا تقول كل ما يريد المتحدث إيصاله لنا؛ لذلك ينبغي عند الإصغاء الانتباه إلى جميع وسائل الاتصال بالإضافة إلى الحديث، ويشتمل هذا تعبيرات الوجه وحركات العينين واليدين والتردد في قول شيء ما.

والأسباب التي تؤدي إلى عدم الإنصات، هي:

١- أن يكون لديك شيء تريد أن تقوله وتعتقد أنه أفضل مما يقول المتحدث.

٢- أن تظن أنك تعرف الإجابة مسبقًا لما تعتقد أنه صلب موضوع الحديث.

٣- إذا لم يعطك المتحدث أي سبب أو دافع لإنصات كأن يتكلم بنبرة واحدة دون أن يغيرها ودون أن تصدر عنه أي حركة أو انفعال يدعو للإنصات.

٤- أن تكون سرعة حديث المتكلم أقل أو أسرع بكثير من سرعة استيعاب المستمع.

٥- أن تعتقد أن المتكلم ليس لديه شيء مهم يقوله أو يستحق الاستماع.

٦- أن يكون لديك اعتراضات مسبقة بسبب معرفة بموضوع التحدث.

٧- أن يكون لديك آراء واتجاهات أخرى.

٨- أن تكون في حالة تفكير فيما تريد أن تقوله.

٩- أن تكون لديك قناعة أن التحدث عمل إيجابي والإنصات عمل سلبي[١].

ومن الأسباب التي تؤدي بالناس إلى الإنصات:

١- أن تحب المتحدث أو تكون معجبًا به (إن الناجحين في ميدان العلاقات الإنسانية المتمتعين بحب الناس ومعاونتهم هم أنفسهم يحبون الناس ويتوددون إليهم ويتقربون منهم)[٢].

٢- أن تعتقد أن المتحدث لديه ما يستحق الاستماع.

٣- أن يكون هناك احتمال الثواب أو العقاب في الإنصات أو عدمه.

٤- حينما تعتقد أن هناك احتمالًا بأن يطلب منك التعليق على النقطة التي تم الحديث عنها.

٥- أن يكون لديك احتياج حقيقي ودافع للحصول على المعلومات.

٦- أن تعتقد أنك إذا أنصت جيدًا للمتكلم فإنك تستطيع مناقشته فيما بعد.

ومن آداب الاستماع كذلك الإصغاء إلى الطرف الآخر، وهو نوع من التواضع وإعطاء الأهمية لكلام الآخرين يطرد العجب بالنفس وأدعى إلى الإخلاص والتجرد وفيه مراعاة للوقت ولاستيعاب الطرف الآخر للكلام، إذ إن المستمع لا يستطيع أن يركز في سماعه أكثر من ربع ساعة وبعدها يكل الذهن، ويقل التركيز[٣].

وقد ذكر العلماء في آداب المتناظرين ألا يتعرض أحدهما لكلام الآخر حتى يفهم مراده من كلامه تمامًا، وأن ينتظر كل واحد منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه ولا يقطع عليه كلامه قبل أن يتمه[٤].

---

(١) سناء محمود عبد الله عابد: الحوار في القرآن الكريم معالمه وأهدافه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات بجدة، وكالة الرئاسة العامة لتعليم البنات، ١٤٢٠هـ، ص ٥٢٠.

(٢) د. محمد قرني، عمرو علي يوسف: كيف تنجح في معاملة الآخرين، ص ١٩١.

(٣) يحيى زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٣٦.

(٤) الشنقيطي: آداب الحديث والمناظرة، ج٢، ص٧٦، وأصول المعرفة والاستدلال الميداني، ص ٣٨٣.

وقد استمع الله تعالى لأسوأ خلقه إبليس وترك له فرصة إكمال حديثه رغم بطلانه، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢-١٨].

وهكذا يتبين لنا: أن الله تعالى بعظمته وجلاله قد جعل إبليس من المنظرين وأمهله إلى يوم يبعثون، واستجاب لطلبه رغم خبثه وسوئه وتلك حكمة الله، كذلك أخبرنا عن استماع الأنبياء عليهم السلام إلى أقوامهم وإنصاتهم لحججهم الواهية، فهذه ردود قوم سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف: ٨٨].

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. وفي هذه الآيات تبدو لنا أخلاق شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وحسن إنصاته رغم أنه يلقب بخطيب الأنبياء وتحمله لردود قومه ومهاجمتهم وتهديداتهم إنه غاية ضبط النفس.

يقول صاحب الظلال: (ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم يتلطف في إشعارهم انه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه، وأنه على ثقة مما يقول، لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا)(١).

وقال الرازي: (إن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد، وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل اختيار الطريق الأصوب والأصلح)(٢).

---

(١) سيد قطب: ظلال القرآن، ص ١٩٢٠.
(٢) الرازي: ج١٨، ص٤٦.

كما بين لنا تعالى في القرآن الكريم سوء أدب بعض الأقوام وعدم إنصاتهم وإعراضهم عن الاستماع فهؤلاء قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال عنهم تعالى واصفًا حال نوح معهم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧].

وليس من الأدب عدم الاهتمام واللامبالاة بكلام المحاور، أو عدم الاكتراث برأيه أو تعمد الانشغال عنه أثناء كلامه بل ينبغي أن يتكلف الصبر على استماع محاوره ويتعمد إظهار الاهتمام بكلامه فهذا أدعى للتفاهم بين الطرفين وأقرب لنجاح الحوار حتى وإن كان الكلام معروفًا لدى السامع أو مكررًا فهذا عطاء بن رباح علاّمة التابعين رحمه الله يقول: (إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد)[١].

ويكفينا بيانًا لأهمية الإنصات والاستماع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٣].

قال القرطبي في معناها: إنه بذلك ينال الفهم عن الله تعالى، روي عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور العقل والعزم على العمل وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى وهو أن يكف العبد جوارحه ولا يشغلها[٢].

٢-التدرج والبدء بالأهم:

(إن العلوم مرتبة ضروريًا وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب)[٣]. فالشيء إذا كان ابتداؤه سهلًا حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته الازدياد بخلاف ضده.

---

(١) الإمام شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٨٦.
(٢) القرطبي: ج١١، ص١٧٦.
(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٥٢.

لذلك فإن معرفة الأهم والبدء به وتحديده بوضوح يسهل كثيرًا مهمة المحاور وأوضح الأمثلة بدء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأهم قضية وأعظم غاية، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له[1] فكان كل نبي يدعو قومه بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]. قالها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. كذلك يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عندما سأله صاحبا السجن كان جوابه بالأهم من ذلك فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]. فيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بدأ معهما بالقضية الأهم وهي الأمر بتوحيد الله وعبادته يتدرج معهم فيها خطوة خطوه، ويعرضها بموضوعية فبدأ بسؤال مجرد يهز به فطرتهم ويوقظها) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ وفي هذا السؤال جوابه فلا شك أن الواحد القهار خير وهو الذي له العبادة وحده.

ثم يخطو يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خطوة أخرى في مواجهة عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية فيقول:

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾. فتلك الآلهة والأرباب لا دليل على عبادتها ولا حجة لها ولا برهان فلم يجعل الله لها سلطانًا، ولم ينزل بها من سلطان ثم يضرب يوسف ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين لمن ينبغي أن يكون السلطان والطاعة أي لمن ينبغي أن تكون العبادة فيقول: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فقرر أخيرًا أن الدين الصحيح القيم هو الذي لا يعبد فيه إلا الله وحده لا شريك، وبذلك يصل إلى مراده من تقرير توحيد الله سبحانه[2].

قال الشيخ السعدي رحمه الله في ذكر الفوائد من قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: (ومنها أن يبدأ بالأهم فالأهم وأنه إذا سئل المفتي وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه أنه ينبغي له

---

(١) علي بن عمر بادحدح: مقومات الداعية الناجح، ص ٩٥.
(٢) يحيى محمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص ٣٠٣.

أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه فإن يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا قدم لهما قبل تعبيرها.. دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له)[1].

وبالجملة فإن عدم مراعاة الترتيب والتدرج في العلم والحوار والنقاش يبعثر الجهد ويفقد التركيز.

٢- الإقرار بالخلاف:

إن من سنن الله تعالى في خلقه أن جعلهم مختلفين فوقوع الخلاف أمر مسلم به بين كل البشر فهم مختلفون في ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وفي مدركاتهم وفي عقولهم وأفهامهم وأشكالهم[2]. ولعل ذلك من أسباب تتابع الرسل وتوالي الكتب، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ويكون الخلاف في أمور الدين صغيرها وكبيرها.

ولعل سبب ذلك تباين الطبائع فالناس مختلفون في تنشئتهم وثقافاتهم في ميولهم ورغباتهم ناهيك عن اختلاف الهمم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ -١١٩] لو شاء لجعلهم كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لكن لا يزالون مختلفين فهم على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم، فكل أهل دين من هذه الأديان قد اختلفوا في دينهم أيضًا اختلافًا كثيرًا لا ينضبط.

إن الاختلاف الذي وقع في سلف هذه الأمة ولا يزال واقعًا جزء من هذه الظاهرة الطبيعية فإن لم يتجاوز الاختلاف حدوده بل التزم آدابه كان ظاهرة إيجابية كثيرة الفوائد.

---

(١) السعدي: ج٢.، ص٤٤٨.

(٢) صالح بن حميد: أدب الخلاف، ص١٢.

ورغم أن الخلاف طبيعة بشرية واحدة فإن الله تعالى جعله منهجًا للاتفاق ونبذ الخلاف وأعطانا لغة الحوار كوسيلة من وسائل الاتفاق.

وحيث إن الخلاف هو منازعة تجري من المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل)[١].

فمتى وُجد نوع من الخلاف فإن الغالب أنه ينتج عنه الحوار أو النقاش الذي بواسطته يحسم الخلاف فكل قضية تطرح للحوار والمناظرة؛ فلا بد أن يوجد فيها خلاف، وهذا يبين أهمية الحوار والجدال والمناظرة ؛إذ بدونها ينمو الخلاف لذلك لابد من مراعاة أمور مهمة:

١- عند حدوث الخلاف الذي يؤدي إلى النزاع بين لنا الأصل الذي يرجع إليه المتنازعون فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وهو كتاب الله وسنة رسوله.

٢- عدم الانسياق وراء الأهواء والالتزام بالضوابط المنهجية والاستناد إلى المنطق السليم واعتبار المخالف طرفًا في حوار متكافئ لا يجوز رفض رأيه سلفًا أو التعصب ضده أصلًا. و إنما كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦].

فإذا كان هذا خطاب المؤمنين لغيرهم. أفلا يكون هذا درسًا بليغًا لهم فيما يجب عليهم في حوارهم عند اختلاف الرأي بينهم؟

٣- اختلاف الآراء ينبني على اختلاف القلوب؛ لأن اختلاف القلوب خطر يتهدد الإيمان كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)[٢].

---

(١) صالح بن حميد: أدب الخلاف، ص ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في إفشاء السلام، رقم (٤٥١٩).

٤- ينبغي ألا يتجاوز المتحاورون حدودهم؛ فيعمدون إلى الإثارة والاستفزاز والدس والوقيعة والسخرية[١].

ومما ساعد على مواجهة الخلاف تحليل الأصول والفروع وتقرير الأولويات فلا يؤدي النزاع على الجزئيات إلى إهدار الاتفاق على الكليات ولا يتورط المختلفون حول نافلة في التجني على فريضة فلا بد أن نتقبل الحوار بصدر رحب ونتسامح مع المخالفين، ونجعل شعارنا ما قرره الإمام ابن القيم بقوله: (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)[٢].

وقال الشافعي: (رأي الصحابة لنا خير من رأينا لأنفسنا ونحن نقول ونصدق)[٣].

وما أجمل قول الإمام أبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب)[٤].

وقد روى أبو يوسف والحسن بن زياد كلاهما عن أبي حنيفة أنه قال: (علمنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب)[٥].

ولا بد أن يضع المحاور في ذهنه أنه ربما كان لدى غيره شيء يتعلمه منه فيحرص على أن يظل المجال مفتوحًا لتقليب وجوه الرأي و إثراء الفكر والأخذ بالأمثل والأصوب دون أن تختلف القلوب وتتفرق الصفوف[٦].

وقد ذكر الشاطبي في الاعتصام[٧] رواية عن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هي قوله: (ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولًا واحدًا لكان الناس في

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص٢٤.
(٢) ابن قيم الجوزية، د/ محمد سلام مدكور: أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج١، ص٧٥، المدخل للفقه الإسلامي، ص١٠٣، مناهج الاجتهاد في الإسلام، ص٦٤٣.
(٣) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٢٤١.
(٤) د. محمد سلام مدكور: مناهج الاجتهاد في الإسلام، ص٨٩.
(٥) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين ج١، ص٧٥، القاضي عياض: انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، د. أحمد بكير محمود: ج١، ص١٤٦-١٤٧.
(٦) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص٢٤.
(٧) الشاطبي: الاعتصام، ج٢، ص١٧٠.

ضيق وأنهم أئمة يقتدى بهم). (إن الاختلاف جملة وتفصيلًا رحمة من الله تعالى وتوسعة إلا ما قامت الأدلة على بطلانه وشذبه قائله عن الإجماع أو عن الجماهير الأكثرية الأغلبية من علماء المسلمين سلفًا وخلفًا وهذا ما يسميه علماء الأصول «ندرة» المخالف أو كان خلافه مما يسميه السلف بنوادر العلماء أو شواذهم أو كان الخلاف فيه ضعيفًا)[١].

أسباب عامة للخلاف بين الناس:

١- الجهل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن سبب الضلال هو الجهل حيث قال: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[٢].

٢- اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣].

٣- إن الله الذي أوجدنا لم يترك الناس هملًا بل دلهم على طريق الخلاص بالرجوع إليه.

٤- إن من ابتعد عن الجهل والهوى والتعصب سلم.

٥- إن من الخلاف ما هو سائغ ووجوده رحمة للمسلمين.

فإذا أدرك المحاور قبل حواره أن الخلاف طبيعة بشرية أقبل على محاوره بنفس مطمئنة وروح هادئة سببًا في تقارب وجهات النظر وإماتة روح الفرقة والاختلاف[٣].

٤- التدعيم بالأمثلة والحقائق:

(المتحدث الناجح والمحاور الذكي هو الذي يحسن ضرب الأمثلة)[٤]، ويستخدم هذا الأسلوب حينما يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الخاص[٥]، (والتمثيل هو إلحاق أحد

(١) محمد عوامة: صفحات في أدب الرأي، ص٨٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، حديث رقم ١٠٠، ص٥٩.
(٣) د. طارق حبيب: كيف تحاور دليل عملي للحوار، ص ١٤.
(٤) يحيى بن محمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص ٣٦٤.
(٥) ابن أبي الأصبع المصري: بديع القرآن، ص ٣٤٢.

الشيئين بالآخر وذلك بأن نقيس الأمر الذي نريد إثباته على أمر معروف عند المخاطب، أو على أمر بدهي لا تنكره العقول ونبين الجهة الجامعة بينهما)[١].

من فوائد ضرب الأمثلة:

١- وسيلة لإقناع المحاور بالفكرة الصحيحة.

٢- وسيلة لتقريب وجهات النظر والتعبير عن المعاني وشرحها، فالأمثلة الجيدة تزيد المعنى وضوحًا وبيانًا.

٣- تيسير الفهم.

٤- يمكن المعنى من النفس أيما تمكن[٢].

وقد لخص الحافظ ابن حجر رحمه الله بعض فوائد ضرب الأمثلة في تعليقه على حديث النخلة وتشبيهها بالمؤمن فقال: (وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام وتصوير المعاني لترسخ في الذهن ولتحديد الفكر في النظر في حكم الحادثة)[٣].

ويبين ابن القيم: أن الأمثال تضرب (لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به؛ فإنه قد يكون أقرب إلى تعلقه وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير ففي الأمثال تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورًا ووضوحًا.

فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له فهي كالزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته)[٤].

(١) يحيى بن محمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص٣٧٢.
(٢) عبد المجيد البيانوني: ضرب الأمثال في القرآن، أهدافه التربوية وآثاره، ص٢١.
(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: كتاب العلم، باب قول المحدث (حدثنا) أو (أخبرنا) و(أنبأنا) و ج١، ص١٤٧.
(٤) ابن القيم الجوزية: أعلام الموقعين، ج١، ص١٨٢ ١٨٣-.

ولا ننسى أن المستمع قد يفقد تركيزه أثناء الحوار فيأتي المثال مشيرًا بفكرة لم تسمع أو مجليًا لعبارة لم تدرك، ولكن استخدام الأمثلة فن يحتاج إلى الانتباه إلى النقاط أو المحاذير التالية:

١- اختيار الوقت المناسب لاستخدام الأمثلة.

٢- تجنب الإغراق في استخدامها حتى لا يورث السامع الملل.

٣- تحرى دقة المثال.

٤- مراعاة أن تكون بمستوى السامع لا دونه فيحتقرها ولا فوقه فتعجزه، والذكي ليس كغيره فلا بد من مراعاة ذلك[1].

ولما كان ضرب المثل له هذه الأهمية العظمى في الحوار فقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب حيث قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

٥- طلب الإنظار وعدم الاستعجال:

قد يبتلى المحاور بخصم عجول لا يحسن الاستماع ولا يجيد الإنصات يقاطع أثناء الكلام و يرد قبل أن يفهم ويجيب قبل أن ينتهي السؤال فعند ذلك ينبغي للمحاور أن يطلب من خصمه الانتظار والاستماع بهدوء وعدم استعجال ويترك المقاطعات والتداخلات، وأحيانًا قد لا يكون الطرف الآخر كذلك ولكن يريد المحاور أن يؤكد أمر الانتظار والتمهل ويخشى من استعجال محاوره فلا بأس بأن يذكره بطلب الإنظار ويؤكد عليه بعدم الاستعجال[2]؛ لأن التسرع يفسد الحوار وقد ذكر العلماء في آداب المناظرة:

(١) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص ٢٦.

(٢) يحيى زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص٤٦٢.

١- ألا يتعرض أحدهما لكلام الآخر، حتى يفهم مراده من كلامه[1].

٢- ألا يكون متسرعًا يقصد إسكات خصمه في زمن يسير لأن ذلك يفسد عليه رؤيته الفكرية ويبعده عن منهج المنطق السديد والتفكير في الوصول إلى الحق.

وهذا القرآن يضرب لنا أروع الأمثلة في إنظار الخصم حتى يتم حججه رغم بطلانها فهذا إبليس يتحدث عن آدم ويجادل ربه فيتبرأ ثم يطلب الإمهال إلى يوم يبعثون فيمهله الله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢-١٥].

٦- الهدوء وعدم الغضب:

ومن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المحاور الهدوء وعدم الغضب فإذا لم يوافقك صاحبك على رأيك فلا تغضب ولا تحاول أن تحمل الناس على ما تراه حقًا وصوابًا[2].

ولا تترك الغضب يستولي على قلبك؛ لأن (قوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب)[3].

والداعي إليه أمور قد تكون الكبر أو الرغبة في الانتقام أو فوات مستحبات إلى آخر ذلك من الأسباب التي يظهر من تعدادها أنها من الأمور المستبعدة عند الحوار السليم، والغضب في ذاته أمر مذموم.

المطلوب أن يبتعد عنه صاحب العقل السليم ولذلك كانت نصيحة رسول الله للرجل الذي طلب منه أن يأمره بعمل وأن لا يكثر في الوصية قال: (لا تغضب ثم أعاد عليه فقال: «لا تغضب»[4].

(١) الشنقيطي: آداب البحث والمناظرة، ج٢، ص٧٦.
(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص ٧١.
(٣) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٦٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب الغضب، ج٨، ص ٣٥.

وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١).

(وفي الغضب عند الحوار محاولة لإبطال دعوى الخصم قبل أن يقدم الدليل عليها، فالغضب لا يوصل إلى إقناع الخصم وهدايته. وإنما يكون ذلك بالحلم والصبر اللذين هما من صفات المؤمنين وأسلوبا من أساليب الحوار الجيد وخصوصًا إن كان محاورك من سريعي الغضب فأنت تأسره بهدوئك وطمأنينة نفسك)(٢). إذ الهدوء والسيطرة على النفس مهم جدا لحوار الناجح قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

ويتحقق هذا الأدب بالوسائل التالية:

١- إشعار المحاور بالهدوء والصفاء والتوازن والقدرة على قيادة النفس والتحكم في الأعصاب.

٢- الهدوء المطلوب الذي يصحبه ترتيب للأفكار وحسن استماع للخصم وفهم واستيعاب لكلامه وتمييز ما يمكن إقراره وما يجب رده ومراقبته لتصرفات الطرف الآخر.

٣- ألا يجعل الخوف والقلق والذعر والاضطراب يتسرب إلى نفسه وإن أحس به فعليه إخفاؤه عن الطرف الآخر واستعادة توازنه بقدر الإمكان، وعندما يتجنب المحاور ردود الفعل العصبية ويكبح جماح نفسه ويستقبل الانتقادات بروح مرحة ويتقبل الاعتراضات بصبر وتؤده إن ذلك الهدوء العميق يثير قلق الخصم العنيد ويعطي الطرف الآخر قوة لا تقهر.

٤- لا بد من حسن الاستماع ويتكلف الصمت والإنصات أمام سرعة الانفعال والتوتر العصبي والهياج والقلق فتأثيرها سيئ على ذهن المحاور ونفسيته.

٥- عدم رفع الصوت أكثر مما يحتاج إله السامع ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩]. قال الزمخشري: (فتشبيه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والأدب، رقم ٢٦٠٩، ج٤، ص٢٠١٤.
(٢) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص٣٩.

الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرًا وصوتهم نهاقا مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه وتنبيه على أنه من كراهية الله بمكان[١].

وقال صاحب الظلال: «والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيئ الأدب أو شاك في قيمة قوله أو قيمة شخصه يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق»)[٢].

٦- الصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة فتنقلب الخصومة إلى الولاء وينقلب الهياج إلى وداعة بكلمة طيبة ونبرة هادئة وبسمة حانية في وجه هائج غاضب، غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح[٣].

والأمثلة في هدوء الأنبياء وعدم الغضب كثيرة جدًا فهم يواجهون التهم من أقوامهم على نحو ما استشهدنا به من آيات كريمة في مواضيع شتى.

٧-احترام المتحاورين:

الحوار أسلوب راق للتفاهم بين الأطراف المختلفة للوصول إلى نتيجة سليمة، ولكي نحقق أفضل النتائج لا بد من احترام الآخرين؛ لأن الخلاف ليس مسوغًا للتخلي عن الأخلاق الفاضلة، فنجد القرآن الكريم يأمرنا حتى في حالة جدالنا لمن يخالفنا في الدين أن يكون ذلك بالحسنى؛ حيث قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فعلى المحاور احترام الطرف الآخر مسلمًا كان أو غير مسلم، ويمنحه حقه من التقدير والتوقير[٤].

(١) الزمخشري: الكشاف، ج٣، ص٢٣٤.
(٢) سيد قطب الظلال: ج٥، ص٢٧٩.
(٣) أحمد فايز: طريق الدعوة في ظلال القرآن، ج١، ص١٩٣.
(٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص٥٣.

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: «لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقا»[١]. فقد كان عليه الصلاة والسلام محترمًا حتى لأعدائه، وكذلك الأنبياء عليهم السلام في حوارهم مع أقوامهم، وهناك نقاط لا بد من مراعاتها لإشعار الآخرين بالاحترام.

١- مراعاة منزلة الشخص الذي نتحاور معه إذا كنا نعرفه قبل ذلك. (فنحن مـأمورون بإنزال الناس منازلهم). فإذا كان له منزلة اجتماعية أو كبر في السن أو مكانة علمية لا بد من إضفاء الألقاب المناسبة له بالحق والاحترام دون مبالغة أو نفاق.

أما إذا كان الشخص غير معروف لدينا فلا مانع من تكنيته بأبي فلان أو إضفاء بعض الألقاب المتعارف عليها حسب سنه كعم فلان أو أخ فلان حسبما يقتضيه المقام.

٢- الثناء على جوانب الخير في الإنسان وذكر صفاته الطيبة.

٣- إبداء الإعجاب بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة والمعلومات الجديدة التي يوردها الطرف الآخر، ويسلم بها وربما يقتبس المحاور من كلام صاحبه في وقت لاحق عبارة جيدة تفوه بها في وقت سابق، وهذا يفتح قلب الطرف الآخر لقبول آرائه ويذهب بروح التحفز التي تسود عادة أجواء المناظرات والمناقشات وتضفى على المحاور صفة الموضوعية.

٤-محاولة رؤية الأمور من وجهة نظر المحاور.

٥- الإقبال على المحاور والإشراق في وجهه والتبسم له.

٦- إذا انتقل إلى نقطة أخرى دون الاعتراف بالتسليم نحترم رغبته لأننا أردنا إبلاغه الحق، وليس من الضرورة أن يعترف هو بذلك.

٧- عدم تأويل الكلام إلا بخير ما دام هناك مجال للتأويل الحسن.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (حسن الظن من حسن العبادة)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٥).
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٤١).

٨- عدم ذكر الإنسان بما يكره وتنقصه وإظهار جهله وقصوره خاصة إذا كان في ذلك مصلحة عامة للمسلمين، وكان القصد إظهار الحق وتبين الخطأ يكون من أهل البدع والضلالة.

٩- حفظ اللسان من الاستهزاء والاحتقار وكلام السفهاء والاحتفاظ باللهجة المهذبة.

والقرآن الكريم يبين لنا أروع الأمثلة في احترام الآخرين رغم تصلبهم وعنادهم بل وكفرهم وإيذائهم.

فالوصية لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذهابه إلى فرعون جاءت القول اللين: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، أي فقولا له قولًا سهلًا لطيفًا برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف ولا غلظة في المقال ولا فظاظة في الأفعال[١].

٨- إقامة الحجة:

الهدف من الحوار هو الوصول إلى الحق على يدي أحد المتحاورين؛ لذلك على المحاور أن يتجنب أسلوب الإفحام والتحدي بداية لأنه يبغض صاحبه للآخرين وقد يفحم الخصم ويعجز عن الجواب، ولكنه لا يقتنع أو يسكت بقوة الحجة ولا يسلم للحق، ويترك في نفسه حقدًا وغيظًا وهذه نتيجة لا يجب أن يصل إليها المتحاوران وربما كان كسب القلوب أهم من كسب المواقف. وقد يحتاج المحاور أحيانًا إلى التحدي والإفحام إذا كان يتحاور مع من همهم الجدال والاستهزاء وإثارة الشبه وتضليل الآخرين والإساءة إلى الفكرة وإهانة المبادئ وتجاوز حدود الأدب فلا بأس بالهجوم الحاد على مثل هذه النوعية لتبين وهن أفكارهم واضطراب أقوالهم وإزالة لددهم، ومكابرتهم الحق؛ لأنهم إنما يريدون بذلك معارضة ما خالف هواهم دون تدبير للحقائق أو عدل في النظر والتفكير، وهذا ما فعله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند محاجته النمرود بعد ما آتاه الله الملك؛ فاستعلى واستكبر وامتنع عن قبول الحق وطلب الأدلة والبراهين على وجود الله حيث قال له إبراهيم: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

(١) السعدي: ج٣، ص٢٦٢.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وبذلك وقف وانقطعت حجته واضمحلت شبهته وبان كذب دعواه.

٩-إنهاء الحوار:

إن مما يلاحظ في أغلب الحوارات والمناقشات أن الحديث ينتقل من نقطة إلى أخرى ومن الثانية إلى الثالثة ثم ربما عاد إلى الأولى ويحدث استطراد وتنوع، وتتداخل الخواطر والعواطف والأمزجة والأفكار بحيث لو حاول إنسان أن يربط بين الأفكار آخرها وأولها لتعب كثيرًا.

ولو حاول أن يحصر القضايا التي طرحت لوجدها كثيرة، ومثل هذا الأمر يضيع الوقت والجهد ويبدد الطاقة ويجعل المناقشة عقيمة وسطحية وقليلة الفائدة، لذلك على المحاور أن يحرص ما استطاع إلى ذلك سبيلًا على التركيز في الحديث والنجاة من الاستطراد والشتات وأن يصل بالحديث إلى نتيجة واضحة محددة ينصرف الناس بعد أن تكون قد وضحت لديهم كتأصيل مبدأ أو التنبيه إلى كتاب أو الإشادة بمؤلف[١].

ويجد المحاور نفسه بعض الأحيان مضطرًا إلى وقف الحوار إذا تبين له أن الظروف المحيطة لاستمراره غير مناسبة، أو أن الطرف الآخر دون المستوى المطلوب جدية وعلمًا، ومن بلغ الحد في اللجاجة لا ينفع معه الحوار[٢].

وفي بعض الأحيان يجد المناقش أن شقة الخلاف بينه وبين الطرف الآخر كبيرة جدًّا وأن هناك اختلافًا على أمور أساسية لا يسمح الوقت بمناقشتها أو تكون مناقشتها مع هذا الشخص بالذات تضييعًا للوقت وتبديدًا للجهد عند ذلك يكون من الأفضل إغلاق المناقشة وإشعار الطرف الآخر بأننا لم ننسحب عجزًا أو نترك النقاش هزيمة[٣].

وقد ذكر القرآن ضرورة الإعراض في بعض المواقف؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص٧٠.
(٢) طارق علي بن الحبيب: انظر كيف تحاور، ص٦٧.
(٣) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: أصول الحوار، ص٤٧.

عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

١٠-استخدام كلمات لطيفة أثناء الحوار:

إن قوة التعبير وفصاحة اللسان وحسن البيان من أركان المناقشة الجيدة والحوار الناجح فكم من حق ضاع لسوء التعبير عنه وكم من باطل ظهر لأن الذي يدعو إليه فصيح بليغ؟! ولذلك عندما كلف الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوجه إلى فرعون ودعوته لعبادة الواحد القهار سأل الله تعالى ما يعينه على تلك المهمة الشاقة فقال: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٧-٢٨]، فالمحاور الجيد يناقش بتلطف وأناة ويقدم لكلامه ويختمه بعبارات تذوب رقة ولطافة وتبلغ من الأثر في نفس السامع ما لا تبلغه الحجة الدامغة قال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، ولابد للمحاور أن يراقب نفسه أثناء حواره هل يتعالى بإشارة أو كلمة؟ هل هو مستمع جيد؟ ويحرص على بساطة العبارة بلفظ موجز.

فمن البيان أن يعرف متى يتكلم ومتى ينصت ومتى يجيب.. وهناك بعض الكلمات التي تفتح مغاليق النفوس وتفعل فيها فعل السحر مثل:

- المناداة بالاسم أو بما يحب أو بما يليق من ألقاب وكنى في البداية.
- لقد كانت مناسبة سعيدة أن تعرفنا عليك يا أخ فلان.
- يطيب لي.
- معذرة اسمح لي.
- عفوًا هلا شرحت لي وجهة نظرك.
- إن شهادتك العالية وعقليتك المتفتحة تجعلني أتكلم معك بصراحة.
- تحدث شخص في هذا الموضوع فأبدى رأيه قائلًا... حبذا لو أخذنا من كلامه.

■ أقترح كذا.

■ إنني أسمع لك، إنني مصغ إليك.

■ هل انتهيت من هذه النقطة؟

■ نحن متفقان في غالب الأمور، وخلافنا على أمور فرعية.

■ إنني أحترم وجهة نظرك.

■ اسمح لي أن أبدي وجهة نظري في الموضوع.

■ قد أكون مخطئًا وأشكرك لو تفضلت وصححت لي خطأي.

■ أشكرك على هذه النقطة ولعلي أضيف إضافة صغيرة.

■ إنني أرى رأيًا آخر قد أكون مخطئًا فيه فلنختبره معًا.

■ لا أدري أو لا أعلم عن هذه القضية.

■ كنت سعيدًا بالحوار مع شخص مثلك وأتمنى أن يكون بيننا لقاء دائم.

■ أنا آسف على ما يحصل، ولكننا اتفقنا على أن يكون الحق هدفنا(١).

وهناك كلمات قد تفسد الحوار: (أنا - نحن - رأيي - تجربتي - خبرتي - تبين لنا) لأن استعمال ضمير المتكلم قد يوقع في مدح النفس، والتأكيد على الخبرة والثقافة قد يوقع في فساد النية ويترك انطباعًا سلبيًا لدى السامع يجعله ينفر منه، والإنسان بطبعه يكره من يتعالى عليه، وهذه المبادئ التي تفيد في الحوار:

■ لا ترفع صوتك: وليس معنى ذلك أن تخفض الصوت لدرجة يعجز معها المستمع عن متابعة الحديث وإنما خير الأمور الوسط، ويلزم أن نخفض الصوت ونرفعه انفعالًا مع الحديث فإن لذلك دخل في تجديد الانتباه ولا بد أن لا يكون الصوت على وتيرة واحدة، وحتى تتم الفائدة فلا نسرد الكلام سردًا بل نجزئه ونرتبه ونتمهل فيه ليفكر

(١) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص ٩٦ - ٧٠.

فيه السامع. فالضجيج لا يستر العجز والهدوء لا يضيع الحق والتوقف قبل وبعد الأفكار المهمة[١].

- لا تصر على خطئك: فالإصرار على الخطأ يفقدنا احترام الناس والأسلوب الصحيح أن نسلم بأخطائنا.
- لا تخطئ محدثك: بقولك: سأثبت لك عكس ذلك وأنت مخطئ في هذا الأمر؛ لأن هذا الأسلوب يكسبك عداءه.
- لا تسخر من الآخرين.

وإذا كانت هذه آداب الحوار كما أوضحناها هنا من خلال ما ينبغي أن يتحلى به المتحاورون قبل الحوار، وأثناء الحوار، وبعد الحوار فإن ذلك يحقق الآداب الشرعية للحوار؛ حتى يأتي الحوار بنتائج إيجابية.

وتتمه لهذا التناول فإننا في حاجة إلى رصد معوقات الحوار، التي تحول دون تحقيق أهدافه، ودون بلوغه غايته، وكيفية التغلب على هذه المعوقات، وهذا ما ستعرض له في المبحث القادم.

---

(١) طارق بن علي الحبيب: كيف تحاور، ص ٤٢.

المبحث الخامس
معوقات الحوار

يعد حديثنا عن معوقات الحوار استكمالًا لما ذكرناه من آداب الحوار - في المقابل؛ ذلكم أننا تحدثنا عن آداب الحوار، وانتفاء هذه الآداب معْوق من معوقات تحقيق الحوار وأهدافه، كما أننا أبرزنا أصول الحوار وقواعده، وانتفاء هذه الأصول والقواعد والمقومات يعد معوقًا كذلك، كما أننا أبرزنا أهداف الحوار، وعدم وضوح أهداف الحوار لدى المتحاورين معوق كذلك؛ فضلا عن وجود معوقات تتصل بالمحاور، والمتحاور معه، وموضوع الحوار، والجمهور، وقناة الاتصال.

وبوسعنا تفصيل معوقات الحوار فيما يلي:

١- عدم وضوح أهداف الحوار؛ مما يجعل الوصول إلى الحق ليس واضحًا، وتتسع هوة الخلاف، وتتباعد وجهات النظر. كما أن التكبر والتعالي لدى المتحاورين يمنعهما من التسليم بالحق، والانقياد للهوى؛ مما لا يساعد على كشف الشبهات، وتفنيد الأباطيل، وإزالة الغشاوة. كما أن التعصب للرأي يجعل المرء لا يسمع إلا نفسه، ولا يرى إلا ما يحب أن يرى، وعندئذ يصعب الوصول إلى الحقيقة، ويكون الحوار غير ذي قيمة.

٢- قلة الفقه بأساليب التحاور والتخاطب وإدارة الحوار، وقلة الإلمام بقضايا العصر، وأحاجيج الخصم وثقافته وخلفيته، وقلة الثروة اللغوية التي تساعد على الرد والمحاجاة والإقناع، وضعف القوة النفسية، مما يجعل من السهل التأثير عليه أو مباغتته وانهزامه، وضعف التنظيم الفكري؛ مما يجعله يدور حول الفرعيات تاركًا الكليات، وبادئًا بالمهم وتاركًا الأهم؛ كل هذه من معوقات الحوار الجيد الصحيح.

٣- عدم الالتزام بآداب الحوار، التي ينبغي وضوحها قبل بدء الحوار، والتي ذكرناها في المبحث الرابع من هذا الفصل، والتي لا يُلتزم بها، وإنما يظهر نقيضها لدى المتحاورين، قبل بدء الحوار مثل: الرياء، والجهل بالموضوع، والكذب، وعدم الالتزام بما يدعو إليه المحاور، وعدم التكافؤ بين المتحاورين، وعدم وجود خلفية عن الطرف الآخر، وعدم اختيار الظرف المناسب.

فضلًا عن عدم التحلي بآداب الحوار أثناء الحوار، وبروز نقيضها مثل عدم الاستماع الجيد وسوء الإنصات، وعدم التدرج، والبدء بالأقل أهمية، وعدم الإقرار بالخلاف، وإغفال التدعيم بالأمثلة والحقائق، وكثرة الغضب، وعدم الهدوء، وعدم احترام الطرف الآخر، والتقليل من شأنه، وعدم القدرة على إقامة الحجة، وعدم القدرة على استخدام كلمات لطيفة أثناء الحوار، وافتقاد القدرة على إنهائه بلطف ولباقة.

٤- ومن معوقات الحوار الاستعلاء وحب النفس، وغمط الحق، وتشويه الحقائق، وعدم التسامح، وتغليظ القول، وغلبة التقليد في الموضوعات والآراء، وفساد البيئة الفكرية والاجتماعية التي يدور الحوار بها. وكذلك سوء النية لدى منظمي الحوار، وعدم اختيار الوقت والمكان المناسبين، وقلة الوعي لدى الجمهور المتابع، وقلة ثقافتهم وإلمامهم بموضوع الحوار، وانقيادتهم وسرعة تسلمهم بالآراء دون بينة أو موضوعية، واعتماد الجماهير على التسليم للمشاهير حتى ولو كانوا على باطل، وذلك لغلبة التقليد لديهم، وسهولة الاستمالة لهم.

ومادمنا قد عرضنا هنا لمعوقات الحوار؛ فإنه يبدو لنا أن كثرة الخلاف من أهم معوقات الحوار، ولذا نخصص هذه المساحة لبيان خلفية الخلاف، ولماذا يكون معوقًا لحدوث الحوار الجيد؟

وهذا ما نعرض له فيما يلي:

١ - أما عن الخلاف فإنه من سنن الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه أن جعلهم مختلفين، فوقوع الخلاف أمر مسلم به بين كل البشر، فهم مختلفون في ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وفي مدركاتهم وفي عقولهم وإفهامهم وأشكالهم[1]، قال تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. قال الرازي: (والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال)[2]، ولكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه على رغم وجود التباين وقابلية الناس للاختلاف إلا أن طريق الحق واضح أبلج، فقد بعث الله رسوله

(١) د. صالح بن حميد: أدب الخلاف، ص ١٢.
(٢) الرازي: مفاتيح الغيب، (٥/٩٧).

محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ فبيّن هذا الدين بيانًا شافيًا كافيًا لا يحتاج بعده إلى بيان؛ لأن الهدى بمعناه ينافي الضلالة بكل معانيها، ودين الحق بمعناه ينافي كل دين باطل لا يرتضيه الله عَزَّوَجَلَّ. وجعل الله عَزَّوَجَلَّ الرد إليه و إلى رسوله عند التنازع والاختلاف، وعندئذ ينتهي الخلاف و ينفض التنازع، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وحيث إن الخلاف هو (منازعة تجري من المتعارضين لتحقيق حق، أو لإبطال باطل)[١]، فمتى وجد نوع من الخلاف حقيقيًّا كان أو صوريًّا، فإنه في الغالب ينتج عنه الحوار والمناقشة الذي بواسطته يحسم الخلاف، فكل قضية تطرح للحوار والمناظرة، فلابد وأن يوجد فيها خلاف أصلًا، وهذا يبين أهمية الحوار والجدال والمناظرة، إذ بدونها ينمو الخلاف و يستمر التنازع؛ فينتج الفشل، و يظهر التنافر، ومن هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين الخلاف والحوار، و يظهر أهمية الكلام عن الخلاف عند طرق موضوع الحوار وآدابه، وكذلك فإن الإطالة بمواطن الخلاف في القضية المطروحة والإلمام بأنواع الاختلاف، وما يجوز فيه وما لا يجوز مهم للمحاور حتى لا تتسع دائرة الخلاف فتحصل الفرقة والتناحر حول مسألة قد يتسع فيها الخلاف والاجتهاد، وكذلك الإلمام بأسلوب الاختلاف بين علماء الأمة وأعذارهم في ذلك يقرب من العدل والإنصاف واحتمال المخالف، وهذا من معوقات الحوار التي تبطل تحقيق أهدافه.

٢ - أما أنواع الخلاف فيمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع على النحو التالي:

أ - خلاف محمود ممدوح: وهو ما أملاه الحق، وقصد به إحقاق الحق، و إبطال الباطل، مثل مخالفة المشركين وأهل الكتاب والرد على أهل البدع والفسوق والمجون، والتصدى لأهل الزيغ والنفاق والضلال، والوقوف أمام هجمات الملحدين والمستشرقين والعلمانيين وغيرهم. فإن مخالفة أولئك مطلب شرعي، والرد عليهم واجب ديني، وموافقتهم والتآلف معهم محرم ممقوت[٢].

(١) المرجع السابق: ص ١٢.
(٢) د. بكر أبو زيد: الرد على المخالف، مرجع سابق، ص ٤٧.

ب- خلاف مذموم: وهو ما أملاه الهوى، وكان بالباطل لدحض الحق ولإحقاق الباطل، كما هو حال أهل البدع والأهواء ومجادلتهم أهل السنة، وتعمدهم مجانبة الصواب، فإن الخلاف الواقع منهم خلاف مذموم باطل لا يقره الشرع، إذ الواجب اتباع الحق، والبعد عن التعصب والهوى، وهو ما عبر عنه الإمام الشافعي «بالاختلاف المحرم» وبينه بقوله: (كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصًا بينًا، لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه)[١].

ج- خلاف سائغ جائز: وهو ما كان في فرعيات تقبل الاجتهاد، وقابلة للنقاش، مثل اختلاف الفقهاء والعلماء في المسائل الاجتهادية فهذا جائز ما لم يخرج عن حده، أو يؤدي إلى الفرقة والتنازع، ويدخل تحت هذا النوع ما سمى باختلاف التنوع وهو على نوعين أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى. وثانيهما: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر[٢].

٣- وأما الكلام عن أسباب الخلاف فإنه طويل جدًا. وقد كتب فيه العلماء قديمًا وحديثًا، لذلك سنقتصر على أبرز الأسباب، وقبل ذلك نذكر بعض القواعد المهمة في هذا الجانب ومنها:

أ- أن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل، كما أنزله يقتضي الوحدة والاتفاق، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]. فإهمال الشريعة، أو الأخذ ببعض الدين، وترك البعض هو أم المصائب، ومنبع النزاع والشقاق.

ب- أن هذا الدين قد أكمله الله عَزَّوَجَلَّ وأتمه، وقد بينه رسول الله ﷺ بيانا شافيا كافيا، وقد كان ﷺ هو مرد الصحابة عند الاختلاف والتنازع، فيحكم بينهم

(١) الإمام الشافعي: الرسالة، ص ٥٦٠.
(٢) خالد بن عبد الله القاسم: مرجع سابق، ١٠٦.

فيما يختلفون فيه من معاني القرآن أو من الأحكام التي لم تكن شرعت، ولكن بعد وفاته ﷺ، اختلفت الأمة في أحكام من الشريعة، التي لا تقضي على أصول الشريعة، ولا تطعن في مصادرها، ولكنه اختلاف له أسبابه.

والمقصود أن اختلاف الصحابة والتابعين أو العلماء بعدهم لم يغير شيئًا من الدين، ولم يتعرض لشيء من أصول الشريعة؛ بل الذكر محفوظ بكماله قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يكن سبب الخلاف أبدًا هو ضياع شيء من الدين، أو نقصان أمر من الشريعة.

ج- أن نعلم يقينا أنه لا يوجد أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة، ومن ذوي العلم الموثوق بعلمهم وأمانتهم ودينهم يتعمد مخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًا على وجوب اتباع الكتاب والسنة، وكل من اتصف بالعلم والديانة فلا بد أن يكون رائده الحق، على أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الهدى ﷺ، ويمكن أن يحدث منهم الخطأ كما يحدث من غيرهم؛ لأن الإنسان وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بذلك في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، فإذا وجد لأحدهم قول يخالف نصًا من الكتاب أو السنة فلا بد له من عذر في تركه.

وهناك أسباب عامة للخلاف يمكن تلخيصها في ثلاثة عوامل:

١- الجهل.

٢- اتباع الهوى.

٣- التعصب.

أولا: أما العامل الأول وهو الجهل، فإنه من أسباب التفرقة والخلاف المذموم، وقد حذرنا الله من الجهل عندما ذكر صفة أهل الكتاب، وأن من أسباب العداوة بينهم نسيان العلم كما قال تعالى: ﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال سبحانه عن الأمم السابقة: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ [التوبة: ٦٩]، والخوض: هو الاعتقاد الباطل والتكلم به، وكذلك فإن الله تعالى نهى عن الكلام والاتباع بغير العلم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن سبب الضلال هو الجهل حيث قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على بعض أنواع الجهل الذي ينشئ الاختلاف والضلال، فقال في بيان أسباب الاختلاف: (ويكون سببه تارة جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل، وإن كان عالمًا بما مع نفسه من الحق حكمًا ودليلا)[٢]. والمقصود أن الجهل سبب رئيس للخلاف والتفرقة، ولذلك فإن من أهم شروط المحاور وآدابه العلم بالأمر المختلف فيه، ومعرفة أدلة الشرع في القضية المطروحة للنقاش.

ثانيا: أما العامل الثاني من عوامل الاختلاف العامة فهو اتباع الهوى: والهوى هو ميل النفس إلى نيل شهوة تلائم طبعها، أو اتباع شبهة توافق عقلها. وقد ذكره الإمام الشاطبي فقال: (والثاني من أسباب الخلاف اتباع الهوى ولذلك سمى أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: كيف يقبض العلم، رقم (٩٨).
(٢) الإمام ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٣٢.
(٣) الإمام الشاطبي: الاعتصام، ج٢، ص ١٧٦.

وقد جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة بذم الهوى فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣].

قال الشاطبي: (ولم يأت في القرآن ذكر الهوى إلا في معرض الذم، حكى ابن وهب عن طاوس أنه قال: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه) وفي الحديث ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»[1].

وهناك ضوابط يستطيع المسلم من خلالها أن يتحقق من بعده عن الهوى، أو يتقي الوقوع في مهاويه، أو يستنقذ نفسه منه إن كان قد ابتلى منه بشيء نذكرها باختصار:

١- اتباع الكتاب والسنة وجعلهما الأساس والمصدر، وعدم تحكيم العقل فيهما، أو عرض نصوصهما عليه فإن كل ذلك دافعه الهوى.

٢- اتباع منهج السلف في النظر والاستدلال؛ فإن للسلف منهجًا قويما في ذلك، وقد خالفه أهل الهوى فتفرقت بهم السبل، ومن طرق الزائغين التي ينبغي تجنبها في النظر والاستدلال ما يلي:

أ- اتباع المتشابه وعدم رده للمحكم.

ب- عدم جمع أطراف الأدلة.

ج- الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة.

د- عدم رد الفروع الجزئية إلى القواعد الكلية.

فالمقصود الحذر من مسالك أهل الهوى في هذا الأمر، والرجوع إلى منهج أهل القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم والاهتداء بأقوالهم وفتاواهم.

٣- اعتبار المتغيرات الواقعية: فحيث إن الأحكام والفتاوى الشرعية تبنى على أمرين معًا وهما:

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، كتاب: مسند البصريين، باب: حديث أبي برزة الأسلمي، رقم (١٨٩٣٦).

أ- الحكم الشرعي الأصلي.

ب- الواقع المراد تطبيق الحكم الشرعي عليه، وهو ما يسميه علماء الأصول تحقيق المناط؛ فإن عدم تطبيق الحكم على واقعه الصحيح هو من طرق أهل الهوى، بل من تحريف الكلم عن مواضعه، يقول الشاطبي: (تحريف الأدلة عن موضعها: أن يرد دليل على مناط فيصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر موهمًا أن المناطين واحد، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه، والعياذ بالله، ويغلب على الظن أن من أقر بالإسلام، ويذم تحريف الكلم عن مواضعه، لا يلجأ إليه صراحًا إلا مع اشتباه يعرض له، أو جهل يصده عن الحق، مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذه، فيكون بذلك السبب مبتدعًا)(١).

٤- التقوى والإخلاص والتجرد: فإن التقوى مع الإخلاص ضد الهوى ولا يلتقيان في عبد أبدًا. فإن من اتقى الله وأخلص نيته وجرد قصده لله عَزَّوَجَلَّ، هداه الله إلى الحق، وأرشده إلى الهدى والصواب. وليس علم من اتقى وأخلص، كعلم من كان علمه عن جفاف قلب أو سوء طوية، ولذلك فإن الله عز وجل قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

ثالثًا: أما العامل الثالث من أسباب الخلاف فهو التعصب:

وقد ذكره الشاطبي - رحمه الله - بقوله: (والثالث من أسباب الخلاف: التصميم على اتباع العوائد، وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق: وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ، وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم)(٢).

وجناحا التعصب: ضعف النفس وجهل العقل، وهو ظاهرة ذميمة تؤدي إلى التفرق والتعادي، وهو من خصال أهل الكتاب التي تكون في هذه الأمة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

---

(١) الإمام الشاطبي: الاعتصام (١/٢٤٩).
(٢) الإمام الشاطبي: الاعتصام (٢/١٨٠).

(فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي فلما جاءهم من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له، وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم، فإنهم لا يقبلون من الدين - لا فقهًا ولا رواية - إلا ما جاءت به طائفتهم)[١].

فالمقصود أن التعصب والتقليد المذموم، من أكبر أسباب الخلاف وأخطرها، والتي يجب على المسلم أن يحذرها ويتركها.

ولعل ما عرضنا له في هذا الفصل الثالث من إرساء معالم الحوار وقواعده وضوابطه، وشروطه، وآدابه، ومعوقاته؛ قد أفضى بنا إلى تقديم رؤية كاملة لمنهجية الحوار، وهذا يأخذنا إلى رصد التطور التاريخي، والجذور التاريخية له، وتدرج الحوار مع الأمم السابقة والطوائف المختلفة من البشر والديانات؛ مما سيعرض له الفصل الرابع.

---

(١) الإمام ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٨.

الحوار في التاريخ الإنساني

- المبحث الأول: الجذور التاريخية للحوار.
- المبحث الثاني: الحوار مع الأمم السابقة في القرآن الكريم.
- المبحث الثالث: الحوار بين الرسول ﷺ والكفار.
- المبحث الرابع: الحوار مع الملحدين.
- المبحث الخامس: الحوار مع منكري البعث.
- المبحث السادس: تاريخ الحوار مع اليهود في المدينة.
- المبحث السابع: الحوار مع المنافقين.
- المبحث الثامن: الحوار مع المؤمنين.

الحوار في التاريخ الإنساني

المبحث الأول
الجذور التاريخية للحوار

اعتمدت المجتمعات من أقدم العصور على الحوار في التعليم، ونقل الأفكار والقيم والثقافة السائدة في المجتمع، والمحافظة عليها، ولم يكن الحوار مجرد أداة تعليمية تستخدم داخل المدرسة التي هي في جوهرها شكل من أشكال العلاقة القائمة بين الأفراد والمؤسسات المختلفة أيضًا داخل المجتمع.

وبالرجوع إلى تاريخ الحوار يتضح أن طريقة الحوار أصبحت طريقة ذات ملامح متميزة على يد سقراط، صحيح أنها كانت لها بذور عند السوفسطائيين، ولكنها لم تكن قد اتضحت معالمها، وقد اعتمد السوفسطائيون على المقدرة الكلامية والقوة البيانية أكثر من اعتمادهم على الدليل والمنطق والبرهنة؛ فكل كلام مزوق عندهم وكل عبارات منمقة في رأيهم هي الطريقة لكسب المنفعة، أما البحث وراء الحقيقة فعبث باطل.

وقد استعمل اليونانيون الجدل بمعنى التحاور أو التخاطب بين الناس؛ حيثما كان أهل أثينا يعدون الجدل فنًا عاليًا، أو فن البحث عن الحق.

أما طريقة الحوار عند سقراط، فتعتمد على طرح الأسئلة والإجابة عنها، ومناقشة الإجابات عن طريق الأسئلة أيضًا.. وهذه الطريقة تمر بثلاث مراحل: الأولى أسئلة يقصد منها أن يكتشف الشخص بنفسه أنه على باطل، وليس محقًّا في اعتقاده.

والمرحلة الثانية أسئلة يقصد منها أن يعرف الشخص أنه جاهل لا يعرف الحقيقة؛ لذا فهو في حاجة إلى سقراط يرشده إليها، وأخيرا.. أسئلة يقصد بها أن يصل الشخص المخطئ أو الجاهل إلى الحق والصواب بنفسه.

وفي العصر الجاهلي مارس العربي نوعًا آخر من المحاورات في المنافرات، وهي تقترب من خطب إصلاح ذات البين التي كان يقيمها الجاهليون؛ فيقيم المتخاصمون حكما يقران به، وينهض كل منهما للتفاخر أمامه، متغنيًا بشرفه وشرف ذويه، وإظهار عيوب منافسه ومساوئه.

والمنافرة أو المفاخرة - بمعنى واحد - هي المباهاة في الجمع المحتشد بفضائل الأصل، ومكارم النسب، ومحاسن الأخلاق، وعلو المنزلة، وروعة المكانة، وجليل الفعال؛ ومن ثم كانت الجاهلية تعدها ضرورة طبيعية لكيانها؛ تأليفا للقلوب حول القبيلة، وكان الحوار في المنافرة يبدو أكثر حيوية وتنوعا، وأقصر من خطبة إصلاح ذات البين، كما أن العراك يظهر أكثر عنفًا؛ كأن الخصمين يتصارعان ويتجادلان فيها بالقول بما هو أحدُّ من وقع السيف، والمعاني تبدو فيها مباشرة صريحة، ولا يلمح إليها، والفرق بين المفاخرة وبين خطب إصلاح ذات البين أنه في خطب إصلاح ذات البين ترى المتصالحين يأخذون بالعقل والروية بقدر ما ينساقون بالانفعال، أما المتنافران، فإن كلا منهما يصدر عن غضب وحقد، وتنزع به الانفعالات نزوعًا، ولا تدع للعقل والرؤية إليه سبيلا[1].

الحوار في العصر الإسلامي:

كان العصر الإسلامي في مجمله تنازعًا فكريًّا اجتماعيًّا، إلى جانب التنازع السياسي الذي حدث بين الرسول ﷺ والقرشيين في مستهل الدعوة، وبين المشركين والمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ. وقد ازدهر دور الكلمة في المجتمع، وخاصة بعد أن أخذ التخاصم بين النبي ﷺ والقرشيين صورة الحرب الفكرية، وما تطلبته من جدل وحوار؛ فلا يكاد يقال قول حتى يعارضه رأي آخر؛ لكي يولد من الإنسان القديم مرة أخرى إنسان جديد متفتح على عوامل الخير والعدالة.

ولهذا كان من الطبعي أن يأتي الإسلام - الذي أطلق العقول، وحطم أغلال الوثنية، وهدم الفلسفة الإغريقية - ليعلم المسلم كيف يحاور، وكيف يجادل بالتي هي أحسن، وهذا

(١) بثينة محمود محمد: فعالية مجموعة من الأنشطة الوظيفية لتنمية مهارات الحوار لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، القاهرة، جامعة حلوان، كلية التربية، ١٩٩٩م، ص ٧٣.

الحوار لا يتحقق إلا بتبادل الآراء في جو تسوده الشورى والحرية والصراحة؛ ومن هنا فإن الإسلام لم ينظر إلى الحوار على أساس أنه ترف فكري، يدرب الإنسان على الانتصار والتفوق؛ بل على أساس أنه ضرورة تكسب الإنسان القدرة على استعمال أدوات الدفاع عن الحق بطريقة أكثر مرونة وذكاء؛ ولهذا ذم الله الأمم السابقة التي تتبع آراء أسلافها دون تفكير وتمحيص، وعن عمى وجهل.

وقد كان للأفكار الجديدة، التي دعا الإسلام جميع الناس إليها؛ حيث دفعهم إلى إعمال الفكر والتحرر من القوالب الجامدة؛ أثرها الكبير في ازدهار الحوار، كما كان للصراع الذي دار بين الدعاة إلى الله والمشركين المعاندين وغيرهم في محاولة كل منهم جذب الآخر إليه عن طريق الإقناع والاستمالة؛ أثره الكبير أيضًا في ازدهار الحوار: وذلك من اللحظة الأولى التي أمر فيها الله الرسول ﷺ أن يصدع بما يؤمر، وكانت أولى وسائله هي الحوار مع قومه.

وقد ضرب الرسول ﷺ أعظم الأمثال حين حاول أن يقنع قومه في حوار رائع: فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؛ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط، قال: فإني نذير بين يدي عذاب شديد.. وكأنه ﷺ يضرب لنا مثلا لأعظم محاور يستطيع أن يستخدم أدوات الإقناع والأدلة والبراهين والشواهد؛ ليقنع قومه بالدين الجديد. ومن ذلك أيضًا حواره مع المشركين عندما جاءوا يجادلونه ويستميلونه بالمال تارة، والجاه تارة؛ لينصرف عن الدين(١)، وكان الرسول ﷺ دائما الطرف الأكثر إقناعًا بقوة حجته، وسلامة منطقه.

كما ساعد مبدأ الحرية التي أقرها الإسلام - أي حرية النقد لإصلاح المجتمع، وإصلاح المنكر باللسان أيضًا - على ازدهار الحوار. وفي حياة النبي ﷺ كان الناس يجتمعون في مجالس الرأي والمشورة. وبعد موت النبي ﷺ حدث اجتماع السقيفة(٢)؛ ليتحاوروا من أجل الوصول إلى الحق، وحتى بعد أن مات سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالطعنة، انبرى كل منهم ليدلي برأيه، ويشير على الآخرين في حوار هادئ رزين عاقل.

---

(١) إبراهيم أحمد الوقفي: الحوار لغة القرآن والسنة النبوية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩، ص ص ٢٠٧-٢١٣.

وقد كثرت المحاورة في الخطابة الإسلامية، وأصبحت أسلوبًا أساسيًا مؤثرا من أساليبها المتعددة؛ تبعًا لتعدد المواقف الداعية إليها؛ من تبادل للآراء، أو لاختلافها أو مطالبة فئة معينة من طوائف المجتمع بحق أو بمطلب خاص. وهنا يشتد الحوار، وتتولد المحاورة؛ لأن كل فئة تريد أن تدلي برأيها، وفي الوقت نفسه تستند إلى حجة تؤيد بها دعواها، وتدحض حجة محاورها.

ولقد اتخذت المحاورة في الخطابة الإسلامية ألوانًا مختلفة ومتعددة؛ فأحيانا تكون هادئة ومثمرة؛ فلا يراد منها إلا الوصول إلى الحق ومعرفة الصواب والتزامه؛ مثل الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين الصحابة قبل غزوة بدر، وكذلك حواره معهم بعد الغزوة حول ما يجب عمله تجاه الأسرى؛ وكذلك الحوار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة، وجميعها حوارات هادئة لا غلظة فيها ولا لجاجة، ولا مغالطة ولا انفعال لإثبات ذات على حساب الآخرين، إنما تجد جهدا مضنيا في البحث عن الحجة التي تؤيد بها الآراء للوصول إلى خير المسلمين، وتجد بلاغة في القول، وجمالًا في التعبير، ودقة في صوغ العبارات، مع حسن التكيف مع المواقف، التي تفرض نفسها دون قلق، أو اضطراب، أو خلل، أو بلبلة في العبارات ذاتها.

وعلى العكس من ذلك تجد حوارات المشركين مع الصحابة أو مع الرسول ﷺ؛ حيث تغلب عليها العصبية والجاهلية؛ إذ الهدف ليس الوصول إلى الحق والصواب، بقدر ما يكون العناد واللجاج والمكابرة، وتحكيم الأهواء والأغراض، والصد عن الدعوة الإسلامية.

وأول مصدر تعلم منه المسلم فنون الحوار المختلفة هو القرآن الكريم؛ فقد جاء وبه فنون تعليم الكلام؛ معتمدًا على الإقناع والتأثير بطريقة دفعت الناس إلى أن يتبعوه ويسيروا على نهجه، والحجج والبراهين التي تعطي الفكرة القوة الإقناعية.

والقرآن الكريم يجعل كل قضاياه سبيلها الحوار، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائمًا على الحوار المنتج الهادئ الرزين، ولا يجعل من القوة سبيلا واحدًا إلى التعامل مع المخالفين، إنما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق وبيانه؛ لتكون القوة أيضًا وسيلة من وسائل إعادتهم إلى الحق لصالح أنفسهم، والدليل على ذلك أن الله تعالى جلت قدرته يتخذ ذاته العليا مثلا في المحاورة؛ فلا يفرض قوته وقدرته، وإنما يبسط حواره

قبل القوة، ويضرب لنا سبحانه وتعالى أمثلة كثيرة على ذلك؛ ومنها على سبيل التمثيل حواره مع الملائكة على نحو ما شرحناه في مواضع عديدة في هذه الدراسة.

الحوار في عصر الصحابة:

امتاز الحوار في عصر الصحابة بآداب سامية، وربما كان ذلك يرجع إلى احتكامهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند وقوع الخلاف، كما أن المجتمع لم يكن قد ابتعد كثيرا عن هدى النبي ﷺ وسننه.

وكانت الحقيقة وحدها هدف المختلفين؛ حيث لا يهم أحدهم أن تظهر الحقيقة على لسانه أو على لسان أخيه، وكذلك امتازوا بالتزامهم آداب الإسلام مع انتقاء أطيب الكلام، وتجنب الألفاظ الجارحة في الحوار والجدال، مع إحسان كل منهم للآخر، وتنزههم عن التمادي في الحوار بغير حق، وبذلهم أقصى أنواع الجهد في موضوع البحث؛ مما يضفي على الحوار صفة الجدية واحترام الآراء المطروحة، ويدفع المخالف لقبول الرأي الصحيح دون شعور بالحرج والضيق(١).

والأسباب التي كانت تؤدي إلى اختلاف الصحابة في مجموعها لم تكن لتخرج عن تباين في فهم النص: لغوية كانت أو اجتهادية، وتعالج بأدب إسلامي خالص؛ لذلك سرعان ما كانت هذه الاختلافات تضمحل وتزول بلقاء الرسول ﷺ، أو الاحتكاك إلى نص من القرآن أو السنة، أدركه بعضهم وغاب عن الآخرين؛ لأن غايتهم كانت نشدان الحق وإصابة الحكم الصحيح، ولكن بوفاة النبي ﷺ الذي كان مصدرا للتشريع ومرجعًا للمسلمين في كل اختلافاتهم، بدأ الجدل يزداد لكثرة المشاكل المستجدة، وظهور كثير من الأمور التي اختلف فيها الصحابة، وجاء الحوار حول ثلاثة موضوعات؛ هي:

أ- الحوار حول الإمامة أو الخلافة.

ب- الحوارات التي كانت في عصر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ج- الحوارات التي كانت في عصر الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة في الفكر الإسلامي، القاهرة، الصدر لخدمات الطباعة، ١٩٩٠ ص٤٧.

الحوار في العصرين الأموي والعباسي:

وكان لانتشار الفرق الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي، تبلورت آراؤها في شكل المدارس التي تدافع عن اتجاهاتها وأصولها العقائدية والفكرية ـ الأثر الكبير والعظيم في ازدهار فنون الحوار؛ الذي كان يميل أحيانا الوصول إلى الحق فيكون حوارًا حقيقيا، وأحيانا يقصد به تغليب مذهب فكري على آخر، أو تغليب رأي على آخر فيكون جدلًا.

وقد ساعد على ازدهار الجدل التعصب عند بعض الفرق الإسلامية ودفاعها عن آرائها بشدة، اعتقادا منها أنها على حق وسواها على باطل، كما أن هجرة العلماء من بلد إلى آخر، وطلبهم للعلم والاستزادة منه، ونشر أفكار وآراء هذا الدين بين مختلف الشعوب، كان باعثا قويا على الاحتكاك الفكري، ونشأة الجدل، وكثرة المحاورة والمناظرة، وساعد أيضًا على هذا الحوار والجدل تولد الفرق من بعضها؛ حتى أصبحت كل مدرسة فكرية تضم عشرات الفرق الإسلامية.

واستمرت الندوة في أداء دورها في العصرين الأموي والعباسي، وفيها كانت دور فنون الحوار والتشاور، كذلك في مجالس الخلفاء، وفي المساجد، والقصور.

ومن اللافت للنظر في العصر الأموي الحوارات التي كانت تتخلل خطب الوافدات على الخلفاء، وكانت هذه الوافدة غالبا ما تقدم على الخليفة، وقد سبق لها أن قالت ضده شعرًا، يحفظه الخليفة أو أحد حاشيته؛ فيعاد عليها هذا الشعر، وتعاتب فيه؛ فتقره، وتصمم على رأيها، ولكن الخليفة في النهاية يجزل لها العطاء.

وقد ارتقى الحوار في العصر العباسي؛ نظرا لأن الفكر الفارسي أثّر في الحياة الإسلامية، وكان يحمل معه ثمرات من الفكر اليوناني؛ لأن الفلسفة اليونانية كانت منتشرة في بلاد فارس قبل الإسلام، وكان هذا سببا في كثرة العلوم الفلسفية، وانتشارها بين المسلمين، وكانت المناظرات والمناقشات تعقد في كل مكان، وكثير منها كان يعقد في مجالس الخلفاء ـ مثل الخليفة المأمون الذي كان معجبا بالفلسفة اليونانية ـ وقد كانت هذه المناظرات موضوع سبق المجيدين للقول فيها؛ يتبارون في البيان وروعته، ويتسابقون في المعاني وأحكامها.

وقد سادت المناظرات في هذا العصر؛ لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة، وعظم أمر العلم، وصارت المجالس ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية، وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام والتأثير بالإقناع بعد الإفحام.

ومن عوامل ازدهار الحوار في العصر العباسي ـ أيضًا ـ ما دسَّه الزنادقة، وما دبروه للإسلام؛ بتأثير من الفرس الذين كانوا يريدون إحياء ملكهم القديم؛ فلما لم يستطيعوا ذلك عسكريًا، أرادوا تقويض الإسلام من الداخل بكثير من الآراء والمعتقدات، أثرت في ازدهار الحوار؛ فلم يجد الخلفاء بدا من محاربة الأفكار بالأفكار، والقضاء على كثير من تلك النظريات والمعتقدات الغريبة على الإسلام؛ وذلك بالحوار، والجدل، والفكر المضاد.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن العصر العباسي كان عصر نضج العلوم العربية وبداية الازدهار الفكري وتكوين المدارس في مختلف العلوم المرتبطة بالقرآن والسنة، كما ازدهرت حركة الترجمة من اللغات الفارسية واليونانية والهندية إلى العربية، وتمكنت العقول العربية من استيعاب ذلك كله وهضمه وتمثيله، وتحويله إلى نظريات ومناهج تخدم العقيدة إثباتًا ودفاعًا، ومادة تساعد على ازدهار الفكر والثقافة العربية.

وهذه اللمحة التاريخية حول تاريخ الحوار عند اليونان والعرب في الجاهلية والإسلام والصور التالية؛ في النهضة الإسلامية، مما يجعلنا نتتبع أنماطًا من الحوار مع الأمم السابقة من خلال القرآن الكريم في المبحث التالي:

المبحث الثاني

الحوار في الأمم السابقة في القرآن الكريم

الحق أسبق من الباطل، وهو كذلك أغلب وأبقى.

فالله «الحق» ولا شيء قبله، والله «الحق»، ولا شيء بعده ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ٣].

و«الحق» وهو القرآن، وهو الإسلام، وجد منذ بدء الخليقة، وإن تنزَّل على مراحل.

والحق «وهو العدل» وهو الأبقى ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

والحق والباطل.. بمعنى الخير والشر.. يصطرعان.

والحق وإن كان أسبق على الباطل، وهو بعده أبقى، فقد لحق به الباطل، وانطوت النفس من الأمرين؛ ليكون الابتلاء، ومن بعده الثواب والعقاب ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وأول الصراع كان من إبليس:

دفعه إليه كبر وكفر وإباء ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ففقد مكانه في الجنة بين الملائكة، وخرج منها مذءومًا مدحورًا ملعونًا إلى يوم القيامة.

ذلك أن الكبر أفقده قدر نفسه، ودفعه إلى التطاول إلى مقام ربه، ليجادله في أمره، وليعطى نفسه بنفسه الخيرية على آدم أبي البشرية، وليسند هذه الخيرية إلى معاييره هو.. لا إلى ما شرع الله وأمر ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] مع أن الملائكة وهم من «نور» لا «نار» سجدوا وأطاعوا رب العالمين.

ومع أن المعيار الذي ارتضاه رب العالمين ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ومع أن القاعدة قبل ذلك كله:

﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ويقدم القرآن العظيم هذا النموذج التاريخي للحوار:

بين الله والملائكة وبين الله وإبليس في سورة البقرة في الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٧].

وتأمل معنا هذا الحوار الذي صاحب الصراع بين بني آدم، وهو حوار تاريخي وتعليمي كذلك:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ

ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وقد جاء في ذلك روايات عديدة.. نذكر منها:

قال السدي عن ابن عباس وعن ابن مسعود «إنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع.

وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، وقال: هي أختى ولدت معي وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، وأنهما قربا قربانا إلى الله عَزَّوَجَلَّ أيهما أحق بالجارية.. «جذعة، سنبل» فنزلت النار فأكلت قربان هابيل «علامة القبول» وتركت قربان قابيل «علامة عدم القبول» فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى، فقال هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.(١)

وبين آدم ونوح:

قيل كانوا أناسًا صالحين: «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر».

أحبهم قوم، وغالوا في حبهم..

حتى إنهم بعد موتهم أقاموا لهم «التماثيل» فصارت من بعد أصناما.

وهكذا، ارتفع الباطل؛ حتى عبد الناس الحجارة !

وجاء نوح؛ ليدعو إلى الحق:

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣].

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣].

(١) ابن كثير: المختصر، جـ١، ص ٥٠٦.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١]

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢٣-٢٤].

ومن بعد نوح أتى سيدنا إبراهيم:

حطم لهم الأصنام وقال لهم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وتدرج بهم من الشك ليصل بهم إلى اليقين ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩].

وواجه أباه - وهو مشرك - واجهه بالحق الذي يدحض الباطل بأسلوب لين كريم يصل إلى القلب، ويعذر إلى الله ألا يصد عن الحق بما ينفر القلب ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

ويفقد الأب - الضال - الحجة، فيلجأ إلى التهديد بالقوة شأن أصحاب الباطل والضلال في كل زمان ومكان. ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

فيرد أبو الدعاة ردًا حانيًا لكنه لا يتخلى عن الحق:

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] «نهى الله عنه بعد ذلك» ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي

شَقِيًّا ﴾ [مريم الآيات: ٤٣ – ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨] ويموت أبو إبراهيم على الكفر والضلال، ويبقى إبراهيم رائدًا للحق والهدى؛ رغم ما ناله من عنت، وصد، وأذى.

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤-١١٥).

ثم يأتي «موسى» نضرب به مثلا أخيرا:

«موسى» الذي يمثل الحق.. المنزَّل من عند الله..

يتربى في حجر فرعون، الذي يمثل الباطل في أعتى صورة. ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٨-٣٩].

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧-٢٤].

هذا فرعون، قمة الباطل، قمة الضلال، قمة الكفر.

يواجه موسى الأعزل بالحق الذي معه.

فماذا يحدث؟

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢].

فيلومهم فرعون إن لم يستأذنوا في الإيمان:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]

ويمضي إلى التهديد الرخيص الذي يمارسه كل طاغية لئيم:

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

فكانت قوتهم وثباتهم واعتزازهم بعقيدتهم:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٥-١٢٦)

«وفي مكان آخر إجابة مشابهة لكنها أقوى دلالة على الإيمان الحق الذي ملأ، بل ملك القلوب»:

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

ويقدم القرآن العظيم في تاريخ الحوار بعد ذلك ما دار بين السيدة مريم وقومها ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٢٨-٣٣].

ويأتي حوار من نوع آخر بين سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنصاره من الحواريين:

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

ولا نكاد نغادر هذا الحوار حتى يأتي حوار آخر بين الله عَزَّوَجَلَّ وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

المبحث الثالث

الحوار بين الرسول ﷺ والكفار:

و يأتي في الختام سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

نزل إليه الحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فصدع بالحق ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وواجه الباطل.. بالأسلوب اللين الكريم ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦].

و يمضي الصراع، فيكذبونه؛ و يصفونه بالسحر، والجنون، ثم يؤذونه و يؤذون أصحابه، ثم يقاتلونه، والذين آمنوا معه.

وها هو القرآن العظيم يعلمنا كيف تكون دعوة هؤلاء الكفار إلى ساحة الإيمان فها هو الله عَزَّوَجَلَّ يضرب لنا الأمثال؛ فيخاطب العقول والقلوب بأكثر من طريق:

فأما الأول، ففي قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٦-١٧].

وفيه يشبه رب العالمين الحق بالماء؛ بما يحمل من خير وحياة.

كما يشبهه بالمعدن النفيس أو المعدن المفيد.

ويشبه الباطل بالزبد يطفو على الماء بما يحمل من غثاء، أو بالخبث يطفو حين يدخل المعدن النفيس النار.

كذلك يضرب الله الحق والباطل، فماذا تكون النتيجة؟

فأما الزبد فيذهب جفاء لا قيمة له؛ كما يذهب الباطل. ومعناه: لغة الذاهب الزائل.

وأما ما ينفع الناس «وهو الماء والمعدن النفيس» فيمكث في الأرض كما يمكث الحق على الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال.

وأما المثل الثاني ففي قوله تعالى:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فقد صور الحق قذيفة - يطلقها الله الحق - ليصيب بها الباطل في دماغه فتزهقه وتهلكه!

وإذا كان هذا هو الصراع بين الحق والباطل...

فإن السؤال الذي يطرح نفسه، لم يعرضون عن الحق، ويلجأون إلى الصراع؟[1]

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وهنا يرد التساؤل: إذا كانوا يعلمون الحق فلّم يكتمون، فلمّ يجحدون؟! ونستطيع أن نتبين شيئًا من أسباب إعراض كفار مكة عن رسول الله ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: مكة والطائف، عندئذ فإنهم يريدون رجلًا ذا مواصفات دنيوية معينة.

---

(١) علي جريشة: مرجع سابق، ص ٤٠.

ويرد القرآن الكريم عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] وتلمح شيئًا من عنادهم وتطاولهم على الله، ورغبتهم في الهلاك بشرط ألا يكون محمد ﷺ رسولًا، وذلك في سورة الأنفال ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣١-٣٢].

ويريدون بعد هذا رسولًا خاصًا بمواصفات الملك والعظمة الدنيوية، لكن الله تعالى له إرادة أخرى، تأمل معنا هذه الآيات الكريمة في سورة الفرقان ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧-١١].

ثم انظر إلى كفار مكة وهم يطلبون مطالب خاصة تدخل في أحلام الصحراء كي يؤمنوا، وتحكي سورة الإسراء هذا الحوار القرآني الفريد ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٦].

ويحاول الكفار احتواء الدعوة الإسلامية، والتأثير عليها من خلال ترغيب الحبيب المصطفى ﷺ أو تهديده على النحو الذي أوردته كتب السيرة النبوية:

روي أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدًا ـ قال يومًا وهو جالس في نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه وأعرض

عليه أمورًا لعله أن يقبل بعضها؛ فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ـ يكثرون ويزيدون ـ فقالوا: يا أبا الوليد قم فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي: إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

قال فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.. أو كما قال.. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال:

أفرغت يا أبا الوليد؟!

قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: أفعل.

قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمدًا عليهما، يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال:

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك!

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ـ قال:

ورائى أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي قال به نبأ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قـــال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

هذا نموذج حواري يوضح لك سبب تعنتهم وغطرستهم مع رسول الله ﷺ(١).

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث، أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك.. ثم تفرقوا فلما أصبحوا.. خرج الأخنس بن شريق حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها،

(١) سيد قطب: الظلال، ج٧، ص٧٥.

قال الأخنس وأنا والذي حلفت به ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! قال:

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف.. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحلمنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه ! فقام عنه الأخنس وتركه[1].

(١) سيرة ابن هشام: ص٦٢.

المبحث الرابـع
حوار القرآن الكريم مع الملحدين

لم تكن فكرة الإلحاد في وقت من الأوقات منتشرة انتشار فكرة الشرك، لأن الشرك إقرار بوجود الخالق وعدم توحيده بالعبادة، أما الإلحاد فإنه إنكار مطلق للألوهية، ونفى لوجود الله تعالى، إنه طمس لمعالم الفطرة، والمجتمع الذي جاء القرآن الكريم لإصلاحه يقر غالبه بوجود الخالق، وقد قال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

لكنهم اتخذوا آلهة أخرى لأغراض في نفوسهم منها الرغبة في التقرب إلى الإله فقالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة لا تقبل النقاش والجدال؛ لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر، وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية.

وإذا كان الماديُّون والطبيعيون يتظاهرون بإنكار وجود الله فإن هذا الوجود الإلهي يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم ويقولون به من حيث لا يشعرون. (إنهم يقرّون بضرورة وجود قوة تسّير هذه القوى الكونية، وسواء أضافوا هذه القوة إلى قانون العلية والسببية للكون أم قانون التفاعل المادي لتلك القوى كما يرددون. فإن هذا إحساس بوجود خالق مدبر لهذا العالم ولكنهم يكابرون فطرتهم وأحاسيسهم؛ فيلجأون إلى القول بأن وجود العالم كان مصادفة واتفاقًا، وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه بلا صانع)[1].

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية لم نجد هدفها يومًا من الأيام إثبات وجود الله تعالى؛ لأن الإيمان بوجود الله ضرورة حتمية وبدهية لا تقبل الفطرة الإنسانية الأخذ والرد فيها وإن انحرفت بعض الفطر الإنسانية ومالت إلى الجحود فهذا لا يعني عدم الإحساس بوجود الله ولكنها أصيبت بنكسات قلبية أودت بها في المتاهات المظلمة، ولم تستخدم وما وهبها

(١) الإمام الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٧٦ باختصار.

الله من تفكير للنظر في الكائنات والتبصر في الموجودات؛ لتستدل به على خالق هذا الكون ومدبره)(١).

ولذلك كانت طريقة حوار القرآن مع الملحدين لها طابع يختلف عن طريقة الحوار مع المشركين؛ فالقضية هنا أخطر من حيث نوعيتها؛ رغم أن الملحدين أقل عددا من المشركين، ولكن إلغاء فكرة الألوهية يحتاج في أسلوب حوارهم إلى مناقشة العقل وإثارة الحواس لتصح الفكرة.

فالتصور المنحرف الذي يتقبل العقائد الخاطئة لا بد من تصحيحه، وقد رسم القرآن منهجًا للحوار بعد عرض قولهم وادعائهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٨].

والمراد بالدهر: الزمن المعروف ولا يصح حمله هنا على أنه من أسماء الله تعالى لما يلزم من فساد المعنى في الآية على هذا الاعتبار.

ويلخص الإمام الشهرستاني ادعاءهم في قولهم: (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) إشارة إلى الطبائع المحسة في العالم السفلي وقصرًا للحياة والموت على تركبها وتحللها والجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر)(٢).

مثل هذه الدعوى رد عليها القرآن الكريم، ورد تلك المقدمات التي أوردوها دليلًا لدعواهم، وقد رفض مقدماتهم بأمرين:

١- بنفي العلم عنهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤].

٢- إثبات الظن والتخرص في دعواهم ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

---

(١) زاهر الألمعي: مناهج الجدل، ص ١٢٦.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص ٢٣٥ «بتصرف».

وبنفي المقدمات بطلت النتائج، وهكذا نرى أن القرآن قد استخدم في حواره مع الملاحدة العديدة من الأدلة الإقناعيه منها، ما يتصل بالكون، ومنها ما يتصل بالعقل؛ مما يمكن أن نتناوله في جانب واحد هو الأدلة العلمية.

١- الأدلة العلمية:

وللعلم قاعدتان:

القاعدة الأولى: العدم لا يخلق شيئًا:

فالعدم الذي لا وجود له لا يستطيع أن يصنع شيئًا لأنه غير موجود، فإذا تأملنا في المخلوقات التي تولد في كل يوم من إنسان وحيوان ونبات وتفكيرنا في كل ما يحدث في الوجود من رياح وأمطار وتعاقب الليل والنهار وحركات منظمة فإن العقل يجزم بأن هذا ليس من صنع العدم فقوانين المادة تنص على أنه لابد لكل موجود من موجد.

وهذا ما لفت القرآن الكريم انتباه المحاور إليه ليخاطبهم بهذه القاعدة فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

القاعدة الثانية: التفكير في المصنوع يدل على بعض صفات الصانع:

فإن كل شيء يوجد في المصنوع يدل على قدرة أو صفة عند الصانع فلا يمكن أن يوجد شيء إذا كان الصانع لا يملك قدرة أو صفة مكنته من فعل ذلك الشيء. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فالقرآن يريد أن يدفع الإنسان إلى التفكير في الكون كله بما فيه من ظواهر ومخلوقات من أجل البحث عن أسراره وعن القوانين الطبيعية المودعة فيه التي تحكمه وتوجهه في حركته، فأراد من الإنسان أن يرجع إلى صفاء فطرته(١).

كما تلاحظ: أن القرآن الكريم لا يقتصر على دعوة الإنسان للتفكير في ذلك كله بل يحاول أن يطرح أمامه الخطوات الأولى في هذا السبيل ليدله على بدايات الطريق. «والقرآن الكريم أكثر جدا من الآيات الكونية لكنه ساقها في أساليب مختلفة يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس.

فالحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بواسطتها ـ في أول خطوة نحو الحقائق الكونية ـ والروابط العنصرية والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها فيحكم ويستنبط»(٢).

فالكون كتاب الإيمان:

١- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هناك أوتار في القلب البشري أعدها الله سبحانه وتعالى لتلقي إيقاعات معينة فتهتز فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله، وقد تهتدى في بحثها، وقد تضل ولكنها في كل حال تنطلق، فإذا انطلقت اهتزت الأوتار ولا تنقطع في ليل أو نهار، فالكون أعظم إيقاع وقع على القلب البشري)(٣).

---

(١) انظر: عبد المجيد الزاندي وآخرون: الإيمان، ص ٢٩-٣٢. بتصرف.
(٢) محمد صادق عرجون: القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص ٢٧٨.
(٣) علي بن جابر الحربي: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، ص ص ١٣٥ - ١٣٦.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢-٤].

إنها الحياة تتحرك أمام نظر الملحد بجمالها الرائع لتخاطب وجدانه وعقله وفكره وفي نفسه السؤال من خلق هذا ومن أوجده؟

ونحن لا نقصد من خلال عرض هذه الآيات أن يستشهد بها المحاور عند حواره مع الملحد؛ لأن الملحد منكر لله، وإنما فيها دلالات تعلم المحاور كيف يخاطب عقل الملحد بحشد الآيات الكونية، وقد يثير اهتمام المحاور فيصل للإيمان بالله.

ونلاحظ أن القرآن لا يتحدث عن مظاهر الكون بالطريقة الفلسفية الجامدة ولا بالطريقة الخيالية إنما بالواقع المُحس الذي لا يستطيع أن يخرج عن نطاق حواس أي إنسان[1] وذلك بالطريقة العقلية.

---

(١) انظر القرآن والملحدون ص ٢١١.

ويكون ذلك بطرح الفكرة المعتادة إلى جانب فكرة الإيمان بالله ثم طرح الفروض المحتملة؛ فتبدأ بعملية النفي والإثبات لكون النتيجة في مصلحة الفرض الذي يثبت أمام النقد كما ورد في قوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

فهناك فروض ثلاثة:

١- أن لا يكون هناك خالق.

٢- أن يكون الخالق هو المخلوق نفسه.

٣- أن يكون الله هو الخالق[1].

وقد طرحت الآيات الفرضين الأولين بأسلوب إنكاري؛ لضعفهما وبطلانهما، وذلك بأن العقل والعلم والحس يرفض وجودًا من غير موجود، وأن الفرض الثاني مستحيل أيضًا؛ لأن خلق الإنسان نفسه يفرض كونه سابقا لنفسه في الوجود فيلزم أن يكون الشيء موجودًا في حالة عدمه، وهذا تناقض ومستحيل، فلم يبق إلا الفرض الثالث وهو أن الله هو الخالق وهو الصحيح، ويثبت ذلك تعالى في قوله:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٥٧-٧٤].

---

(١) سناء محمود عبد الله عابد: مرجع سابق، ص٩٠.

المبحث الخامس

الحوار مع منكري البعث من العرب وغيرهم

تعتبر قضية إنكار البعث من أهم القضايا الأساسية التي واجهها الإسلام إذ أن الناس تعودوا أن يقصروا علومهم على المحس الملموس، وهذه نظرة قاصرة محدودة، فاستبعدوا أن يتحول الجماد إلى حياة، وأن تعاد حياة الإنسان بعد الوفاة.

ومن ناحية ثانية فهم لا يريدون البعث؛ لأنهم يرفضون قضية الحساب والجزاء ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥].

والبشرية بما هو مرتكز في فطرتها من حب اللقاء تقاوم فكرة العدم المحض لأنها تحس بالحسرة الصارخة عندما تختنق فيها بواعث الأمل باستمرار هذه الحياة، وقضية إنكار البعث والجزاء ممتدة في الأمم الماضية عبر القرون والعصور، وقد ذكر الله تعالى أقوال الأمم المكذبة؛ فقال تعالى:

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٢-١٥].

شبه منكري البعث:

١- استبعاد إعادة الأجساد بعد تحللها، وتفتت العظام.

٢- أن الإنسان إذا مات وفارقته القوة لا تعود إليه مرة أخرى.

٣- أن السباع لو أكلت إنسانًا وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فكيف يمكن التفريق بينها.

والقرآن الكريم يرد على جميع المنكرين للبعث مهما اختلفت بيئاتهم وتنوعت أساليبهم بمنطق الحجة والبرهان، ويقيم البراهين الحسية والعقلية على المعاد، ولقد نهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه منهجًا قويمًا يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بالمُحس وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة.

الطرق التي استخدمها القرآن في الاستدلال على البعث:

١ - طريقة ذكر قصص السابقين:

وهم الذين رد الله عليهم أرواحهم بعد موتهم، وقد رأى ذلك من كان في زمانهم.

أ- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

ب- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

جـ- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

د- قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ولذلك نلاحظ أن القرآن اتبع عدة وسائل لتصحيح هذه الفكرة وناقشها معهم.

٢- الطريقة العقلية:

هي قياس الإعادة على البدء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

كما يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨-٨٢].

فإن القدرة على الانتقال من العدم إلى الوجود في البداية تستلزم القدرة على تلك في النهاية؛ لأن أساس الإمكان والاستحالة فيها واحد لا يختلف ولا يتعدد.

٣- الطريقة الحسية:

ذلك بتقريب ما يستبعدونه إلى ما يقع تحت محسوساتهم ويتكرر مشهده عليهم دائما:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وفي هذه الآية دليلان على إمكان البعث؛ دليل في الأنفس ودليل في الآفاق، إنه نظام الحياة الذي لا يتغير، إيجاد من العدم، ثم مصير إلى العدم، ثم حياة، وهذا حال الإنسان والنبات الذي يرونه في واقعهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

وهي أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

بهذا المنطق الواضح البرهان القاطع يرد القرآن الكريم على منكر البعث مما يراه، وبما يقع تحت إدراكه من الأمور.

المبحث السادس
تاريخ الحوار مع اليهود في المدينة

(أ) خصائص اليهود في القرآن الكريم:

اليهود هم أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم المنتسبون إلى دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد انطووا على أنفسهم دائمًا، وعاشوا بمعزل عن أي مجتمع عاشوا فيه، وجاء الإسلام إليهم فوقفوا منه موقف عداء تام، حيث حاجوا النبي ﷺ كثيرًا واعترضوا على كل ناحية دعاهم إليها، وبتتبعنا لبعض آيات الجدل في القرآن الكريم نلمح خصائصهم الطبعية التي استمرت معهم. وانتقلت من جيل إلى جيل. وأهم هذه الخصائص ما يلي:

١- العنصرية في الجنس:

يؤمن اليهود أنهم من سلالة جنس فاضل عظيم يفوق بعظمته سائر البشر وأنهم رزقوا عبقرية لا نظير لها. جاء في البروتوكول الخامس: «إننا نقرأ في الناموس أن الله قد اختارنا لحكم الأرض، وقد وهبنا الله العبقرية لنقوّم بها العمل، وإذا ما وجد عبقرى في صفوف الأعداء فقد يكون في وسعه مقاتلتنا، ولكن أنى لعبقرية جديدة أن تقف في وجه المخضرمين من أمثالنا. وسوف يتخذ القتال صورة من اليأس لم يشهد لها العالم مثيلا. لقد انقضى الوقت الذي تقوم فيه لغير اليهود عبقرية»(١).

ولقد أطلقوا على أنفسهم «شعب الله المختار» وهي في الحقيقة عنصرية زائفة لا تستند على شيء من الحقائق لأن الحقائق في وضوحها بينة كما يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون، ص ص ٤٧، ٤٨.

واليهود كغيرهم من الأمم جاءهم رسول، ونزل لهم كتاب. ولكنهم مع الأيام اكتسبوا بعض الأوهام وألبسوها ثوب الدين ونسبوها إلى الله وزعموا أنه جاء في سفر يشوع أن يشوع أخذ كل الأرض على حسب ما وعد الرب موسى وأعطاها يشوع ميراثا لبني إسرائيل على حسب أقسامهم وأسباطهم واستراحت الأرض من الحرب[1].

والقرآن الكريم في حواره ورده عليهم يوضح هذه الحقيقة، ويدفعها بموضوعية يقول تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

يذكر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه أتى النبي ﷺ عثمان بن آصار وبحري بن عمرو وشاس ابن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا: «ما تخوفنا يا محمد ونحن أبناء الله وأحباؤه» نزلت الآية. وادعاؤهم هذا باطل ولذلك أمر الله رسوله أن يرد عليهم فقال له:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]. أي: إن صح ما زعمتم فلأى شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أيامًا بعدد أيام عبادتكم العجل.

وإن كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع «والحقيقة المؤكدة أن اليهود بشر كسائر البشر يغفر الله لهم أو يعذبهم إن شاء.

ومن هذه العنصرية كذبوا ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وكانت أحلامهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردوهم كفارًا، وأن لا يدخل الجنة غيرهم، وكانت تلك أمانيهم لكن الرسول ﷺ يقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] أي هاتوا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة وكان اليهود يعتقدون أنهم لن يعذبوا في النار إلا أربعين يوما بعدد أيام عبادتهم العجل ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

(١) سفر يشوع: انظر الإصحاحات ١٣ - ٢١ وفيها بيان تقسيم الأرض على عشائر بني إسرائيل.

وكان الجواب على هذا الافتراء من الله حيث قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

وبالطبع ليس لهم برهان على ادعاء دخول الجنة وليس معهم عهد من الله بعدم العذاب إلا أياما ولذلك كان الرد عليهم إفحامًا لهم.

ويبقى الواقع المجرد وهو الاعتماد على الإيمان والعمل ولا شيء سوى ذلك. وما ادعوه من عنصرية فهو من أكاذيبهم التي درجوا عليها تزكية لأنفسهم وفخرًا بجنسهم.

واليهود حديثًا هم اليهود في غرورهم وعنصريتهم وتعاليهم خاصة مع العرب ولأمر ما ذكر الله رأيهم في العرب وبينه من واقع حديثهم حيث إنهم قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] والأميون المذكورون هم العرب يسمون بهذا الاسم في مقابل أهل الكتاب»[١]. ويتصور اليهود أن العرب ليس لهم قدرة على المطالبة بحقوقهم لأنهم عبيد لليهود وخدم. هكذا يتصورون العرب الأميين ولا يؤمون بسواه[٢].

ومع هذا الغرور العنصري أشار القرآن الكريم إلى ملمح خطير قد يكون مفتاح هذا التعالي، وهو إحساس اليهود باحتقار الناس لهم وشكهم في هذا الأمر دائما، وهذه القضية تأتي في وضعها الطبيعي؛ لأن الشعور بالنقص يدفع صاحبه إلى إبراز ما ليس فيه، وتقمص صور خارجة عنه. يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يبلغهم أمرًا من تعاليم الله، لكنهم يردون عليه من عقدة النقص فيهم. ومن إحساسهم بأن الناس يسخرون منهم، فيسألون موسى: أتتخذنا هزوا وسخرية بما تأمرنا به، لكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يرد عليهم بأن إحساسهم غير صحيح؛ لأن الهزء في تبليغ أمر الله جعل وسفه لا يليق برسول.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص ١٨٩.
(٢) أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٧٩، ص٣٩١.

إن العنصرية اليهودية ثابتة في نفوسهم ومستكنة في غرائزهم. وقد اشتهروا بها حتى صارت خاصة من خواصهم.

٢- اعتقاداتهم مادية:

يميل اليهود دائما إلى التجسيد في عقائدهم. ويربطون إيمانهم بالمادة طبيعتهم. وينظرون إلى الله نظرتهم إلى الملموس، ويصفونه بأوصاف لا تليق إلا بالحوادث، تقول توراتهم «وسمعا - أي آدم وحواء - صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة»(١) هكذا تقول التوراة إن الله يمشي ويظهر بوجهه ويختبئ آدم ومعه حواء من وجه الله ومقابلته.

وتقول أيضًا: دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولادًا. هؤلاء هم الجبابرة. ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكاره هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه»(٢) فتشير بذلك إلى لحوق الحزن والندم والأسف بالرب. وما نشأ ذلك إلا من إيمانهم المادي - وعقيدتهم التجسيدية.

ونظرة اليهود إلى الرسل هي الأخرى امتداد لماديتهم، حيث يلحقون بهم النقص والسوء.

تقول التوراة عن لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادية كل الأرض. هلم نسقى أبانا خمرًا ونضطجع معه. فنجيء من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلى أنت معه فنجيء من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما...»(٣).

---

(١) سفر التكوين. الإصحاح الثالث فقرة ٨.
(٢) سفر التكوين الإصحاح السادس فقرات ٤، ٥، ٦.
(٣) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر فقرات ٣٠ - ٣٦.

وتذكر التوراة أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لا يأنس في شيخوخته إلا إلى فتاة جميلة فتقول «وشاخ دواد. تقدم في الأيام. وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ. فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء ففتشوا على فتاة جميلة جدًا. وجاءوا بها إلى داود»[١] وتقول التوراة عن سليمان إنه «أحب نساء غريبة كثيرة. وكانت له سبعمائة من السيدات وثلاثمائة من السراري. فأمال النساء قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه»[٢].

وهكذا أنزل اليهود بالرسل صفات النقص والخسة وجردوهم من روحانية الوحي وعصمة الرسالة.

والحوار القرآني يبين طبيعة اليهود هذه. ويعقب على فسادها، ومن ذلك قوله:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

روي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضًا حسنا. فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حتى سألنا القرض[٣]. وذلك أنهم لا يجدون مانعًا من تشبيه الإله بالمجسمات.

وقد رد الله على قولهم وذكر أنه جريمة تضاف إلى جرائمهم الأخرى وسوف يعذبون عليها.

ومن هذا الحوار القرآني معهم قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠].

فهم لغلوهم في التشبيه والتجسيد لا يستبعدون أن يكون لله ولد هو عزير، ويرد عليهم هذا الزعم فيقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] لأنهم بقولهم كاذبون، ويشبهون الكفرة تمامًا.

---

(١) سفر الملوك الأول. الإصحاح الأول فقرات ١ - ٤.
(٢) سفر الملوك الأول. الإصحاح الحادى عشر فقرات ٢ - ٣.
(٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج٣، ص ١٥٩.

وكان لتأصل العقيدة المادية في اليهود أن قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما رأوا قومًا يعبدون أصنامًا. ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فقد جادلوا موسى في شأن الأصنام وأرادوا العودة إليها. فبين لهم جهلهم وبطلان ما هم عليه، وما خديعتهم السريعة بعجل السامري إلى من هذا الطريق المادي.

و يبين الحوار القرآني كذلك نظرة اليهود إلى الرسل حيث استهزءوا بموسى وقالوا له ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وقالوا ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولما طلب منهم هارون أن يتركوا عبادة العجل ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]. وهكذا قامت مجادلتهم على الهزء والسخرية وعدم المبالاة كشأنهم مع الرسل.

واليهود ينظرون إلى محمد ﷺ والقرآن الكريم نظرة سيئة تنبئ عن طبيعتهم يقول السموأل الغربي من أعاظم أحبار اليهود الذين أسلموا: «وأما الرسول محمد ﷺ فله فيما بينهم اسمان فقط. أحدهما «فاسور» وتفسيره الساقط. والثاني «موشكاع» وتأويله المجنون، وأما القرآن العظيم فإنه يسمى فيما بينهم «قالون» وهو اسم للسوأة بلسانهم يعنون بذلك أنه عورة المسلمين وسوأتهم «وجاء في البروتوكول الرابع عشر» عندما نصبح أسياد الأرض لا نسمح بقيام دين غير ديننا، ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد، كل العقائد.[١]

وهكذا فإن عقيدة اليهود دائمًا ترتبط بالمادة في كافة جوانبها.

كيف يحاور القرآن الكريم اليهود؟

إن إحاطة الداعية بخصائص اليهود تجعله يوجه الدعوة لهم بما يناسبهم و يسوق لهم أقوالًا تلائمهم، وقد ضرب القرآن الكريم وهو يحكي أسلوب دعوتهم نوعًا من هذه الملائمة. فنراه يذكرهم بالمزايا الراقية التي وضعها الله لهم حيث أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم طيبات كثيرة وجعلهم أفضل الخلق في عصرهم يقول تعالى حاكيًا أسلوب دعوة اليهود.[٢]

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، ص ٧٨.
(٢) أحمد غلوش: مرجع سابق، ص٢٩٧.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

وهذه الآيات تخاطب اليهود بيا بني إسرائيل أحب الأسماء إليهم، وتبين لهم نعم الله عليهم، وتطالبهم بأن يوفوا عهودهم، ويؤمنوا بالقرآن المصدق للتوراة وأن يتركوا المادية ويخافوا الله وحده.

ومن المعلوم أن كون القرآن مصدقًا للتوراة يرفع الإحساس بالنقص من فكر اليهود، وهو يسمع القرآن الذي يقدس التوراة، ويبين أنها تحوى هدى ونورًا كهدفه تمامًا، ولذلك جاءت الإشارة إلى الوحدة بين القرآن والتوراة مبكرة في العهد المكى.

ومن مراعاة القرآن لخصائص اليهود نجده يقدر علماءهم الذين هم قادة القوم وسادتهم. يقول تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

والخطاب في الآية وإن كان موجهًا للنبي ﷺ فهو في الحقيقة موجه للمتلقين كعادة الأسلوب القرآني في كثير من مواضعه، وبذلك يخاطب الله المؤمنين، ويطالبهم أن يقدروا علماء اليهود، ويسألوهم عن حقيقة القرآن المنزَّل على سيدنا محمد ﷺ.

ومن هذه المراعاة تنويه القرآن بموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وببني إسرائيل جميعًا وبتوراتهم؛ فيقول:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

ومع كل هذه المراعاة لغرور اليهود وعنصريتهم يحاول القرآن أن يغير أخطاءهم، ويصحح عقائدهم على صورة التساؤل فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠]. ثم يأخذهم إلى الحق من منطق التساؤل فيقول لهم: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا

نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. يقول الرازي: إن هذه الآية تتضمن منهاجًا يشد كل عقل سليم، وطبع مستقيم؛ إنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال»[١].

ويتمشى القرآن مع فكر اليهود، ويسلم لهم بظنهم في أنفسهم؛ تمهيدًا لأخذهم إلى الإيمان؛ يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦]. ذلك أن قضية المودة مع الله وكونهم أبناءه، وهو وليهم وحدهم تقتضي حب الإسراع إليه. والموت من أجل لقائه؛ فطالبهم القرآن أن يتمنوا الموت دليلا على صدق زعمهم. لكنهم لا يحبون لقاء الله، ويكرهون الموت، يقول تعالى ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٧].

(١) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج٢، ص ٧٠٤.

المبحث السابع

الحــوار مع المنافقين

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يهدم الإسلام ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون)[١].

إن أخطر نوع من الناس الذين واجههم الإسلام هو ذلك النوع الذي لم يعرف في بداية الدعوة إذ لم تكن ثمة حاجة إلى ظهوره منذ البداية، حيث الكفر يمارس نشاطه من مركز قوة لا يخشى شيئا. لذلك نجد الكافرين يصرحون بكفرهم ويحاربون رسول الله وصحابته بكل أنواع الأسلحة المادية والمعنوية دون وجل حتى إذا انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة وقويت شوكة الإسلام وتبدلت الصورة؛ بدأ الكفار بالحرب الخفية، وهي النفاق بإظهار الإيمان و إبطال الكفر.

(والنفاق من الناحية النفسية يعتبر نتيجة لضعف النفس وعدم قدرتها على التصريح بمعتقداتها، فالنفوس إذا كانت قوية تصرح بمعتقداتها مهما ترتب على ذلك من نتائج؛ لأن النفاق يورثها عذابًا في النفس ووخزًا في الضمير يهون احتمال عذاب البدن دون احتماله، أما النفوس الضعيفة فإنها عندما تواجه معتقدًا قويًّا يخالف معتقداتها، وهو يملك الهيمنة عليها لا تصرح بمعتقداتها بل تضعف أمام تلك القوة المهيمنة عليها، وتحاول أن تسلك طريقًا يؤمن لها سبيل الحياة في ظلل تلك القوة المهيمنة عليها، و إن كان ذلك يؤدي إلى تغطية معتقداتها.

وكلما زادت قوة الدولة المهيمنة عليها وتكررت انتصاراتها زاد ضعف تلك النفوس الضعيفة واشتد هلعها، وقد يوجد النفاق ممن يملك قوة وهيمنة على المسلمين؛ فيظهر لهم الإسلام نفاقًا ليحتفظ بمركزه بينهم.

ومع ذلك فإن هذا لا يخرج النفاق عن كونه ضعفًا في النفس لأن صاحب النفس القوية لا يرضى لنفسه أن يقيم حكمه على مداهنة من يختلفون معه في العقيدة)[٢].

(١) الإمام جعفر الفريابي: صفة النفاق وذم المنافقين، ص ٧٢.
(٢) عبد العزيز عبد الله الحميدي: المنافقون في القرآن الكريم، ص ١٩.

وللمنافقين أهداف تحملوا من أجلها هذه المخاطر وأخفوا معتقدهم الحقيقي، ومن أهم هذه الأهداف:

١- الحصول على المصالح المادية: وذلك لأن المسلم في دولة الإسلام له الحرية التامة في التصرف بأمواله في حدود تعاليم الشريعة، كما أن له حقوقا مشروعة في بيت مال المسلمين تضمن له عيشًا كريما. وإذا كان من أهل الكفاءة فإنه يستطيع أن يصل إلى عمل في الدولة يتقاضى به أجرًا من بيت المال وإذا اشترك في الجهاد كان له حظ من الغنائم، فالمنافقون يلاحظون هذه المصالح التي تفوتهم فيما لو أظهروا كفرهم.

٢- الحصول على المصالح المعنوية: وذلك لأن المسلم في دار الإسلام إذا كان متمسكًا بدينه يحصل لدى ولاة الأمر على الجاه الرفيع والمنزلة العالية بين المسلمين، وهذا الأمر مرغوب فيه، وتشتهيه بعض النفوس كما تشتهي المال وأكثر فإذا ما أظهر المنافقون التقوى والورع حصلوا على ما يريدون من هذا الهدف.

٣- اتخاذ النفاق وسيلة للوصول إلى مراكز الحكم والقيادة: أما تلبية نداء شهوة الرئاسة تسيطر على بعض الناس، وإما للتوصل بذلك إلى تنفيذ مخططاتهم الخبيثة وأهدافهم السيئة إذا كانوا من أصحاب المبادئ الهدامة، وبغير النفاق لا يستطيعون الوصول إلى ذلك ما داموا في دار الإسلام؛ لأن المسلمين مهما كانت درجة إيمانهم سيمقتونهم ويحاربونهم.

٤- وقاية لأنفسهم وأموالهم: وذلك لأن الإسلام يعصم دماء معتنقيه وأموالهم، والمنافقون من الكفار إذا أظهروا كفرهم عاملهم المؤمنون معاملة الكفار والمرتدين.

٥- اتخاذ النفاق وسيلة لحرب الإسلام والمسلمين: وذلك بنشر الرذائل في المجتمع الإسلامي، ومحاولة تثبيط المؤمنين عن التمسك بدينهم والجهاد في سبيله وتشكيك ضعفاء الإيمان منهم بمعتقداتهم، والتجسس على دلالة الإسلام لصالح أعدائها، وهم بهذا يجمعون بين محاربة المؤمنين وكسب رضا أعدائهم عنهم والتقرب إليهم.

إن الخطاب مع المنافقين له سمات خاصة تميزه، وهو المبدأ الذي طلب الحق تبارك وتعالى من رسوله الكريم ﷺ أن يتعامل معهم على أساسه؛ حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

وهو تعامل تبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوبًا بالتهديد والوعيد[1].

والمنافق كما قال عنه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (المنافق يعبد هواه لا يهوى شيئًا إلا ركبه). قال أيضًا: (من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية واختلاف الدخول والخروج)[2].

ولذلك نجد أن الدعوة الإسلامية أكدت على جهادهم ونبذهم من المجتمع شأنهم شأن الكافرين خطرهم عظيم وكلهم يخافون الجهاد ويخافون القتال ولا يشاركون فيه.

يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ويبين الله تعالى فرحهم بمكاسبهم الدنيوية ونظرتهم الحاضرة القاصرة: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

ونلاحظ الغلظة في الرد عليهم، وبيان عدم فقههم ومعرفتهم: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧].

وقد تبدو من بعضهم رغبة إلى الخروج للحصول على المغانم، ولكن يأتي والعقاب من الله تعالى بالحرمان الكلي من الذهاب لأن خروجهم فيه ضرر على صفوف المسلمين من ناحية، ولأن الإنسان المسلم صاحب عقيدة صحيحة ومبدأ ثابت من ناحية أخرى، أما

(١) زاهر عواض الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ، ص ٤١٩.
(٢) الإمام جعفر الفريابي: صفة النفاق وذم المنافقين، ص ٨٩ - ٩٠.

الذبذبة فهي من صفات المنافقين الذين يرفضون الخروج ثم يرغبون فيه أو يغيرون آرائهم حسب مصالحهم الدنيوية[١].

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣]. وهم ينتحلون الأعذار، ويظهرون الرغبة في التوبة ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ولكن الله تعالى فضحهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ويواجههم بالحقيقة التي يتجاهلونها ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ ويقرر الحقيقة العظمى التي تضاد النفاق المبنى على الخفاء فيقول: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [الفتح: ١١].

وهكذا نرى أن القرآن اتبع معهم عدة أساليب.

أولا: استخدام أسلوب التوبيخ والتعريض:

فهذه الآيات تصرح بتوبيخهم ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

ثم ينتقل الخطاب إلى زيادة في التوبيخ باستخدام التخويف من الله تعالى والتذكير بأن من يفعل ذلك فهو من الكافرين ومصيره النار بأقسى أسمائها ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

ثانيا: استخدام الأسلوب العقلي:

ثم يأتي التحريك للعقل فلو كانت عندهم عقول يفكرون بها ما وصلوا إلى هذه الحالة. فيقول تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفتح: ١٤]. فمن كان تحت ملك الملوك كيف تسول له نفسه معصيته؟ ويبين

---

(١) سناء محمود عبد الله زيد: مرجع سابق، ص١٠١.

الله تعالى أنهم بجهلهم يظنون أن في قدرتهم معاندة الله والخروج عن أمره وتحدى إرادته ولكن السبب دائما أنهم لا يفقهون، كما وصفهم الله بذلك بقوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥].

ثالثا: استخدام أسلوب فضح الصفات:

والآيات تفضح صفات المنافقين.. ولكنها فضيحة مقرونة بالتذكير وليست فضيحة مجردة فمن طبيعتهم:

١- الشك في وعد الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٢-١٧].

٢- والبخل والكيد ضد الدين: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

وهكذا نلاحظ دائمًا أن المنافقين ينسون حقيقة مهمة جدًّا، وهي أن الأمر كله لله وأن مقاليد السماوات والأرض بيديه سبحانه، وأنه المعطى المانع المحيى المميت المعز المذل، ولذلك نجد الآيات تتجه إلى تذكيرهم بهذه الحقائق، وتصفهم بعدم

الفقه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

٣- المعصية والإعراض عن حكم الله إلا إذا كان في مصلحتهم: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧-٤٩].

ثم يقرر الله تعالى بعد إخراجهم من الإيمان أن مشكلتهم الحقيقية أن قلوبهم مريضة فيقول:

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].

٤- الخوف من الموت والحرص على المصالح الدنيوية: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

وتأتي الحقيقة التي يفر منها المنافقون ليقررها رب العزة والجلال ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

رابعا: الصراحة والوضوح في بيان المصير:

هذا هو أسلوب القرآن في بيان مصير المنافقين، وحقيقة حالتهم في الآخرة، عسى أن يوقظ هذا الأسلوب تلك المشاعر، وعسى أن تجد هذه الكلمات صدى في نفوس بعض منهم.

فإن كانت المصالح الدنيوية قد طغت على عقولهم فأعمت أبصارهم أين هم يوم القيامة مما كانوا يتظاهرون به؟.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٣-١٥].

وهكذا نرى منهج القرآن في الخطاب مع المنافقين هو المواجهة والتصريح بالعقاب والتخويف والتذكير بآيات الله وقدرة الله وعظمته، وفضح صفاتهم ومواجهتهم بها والتذكير باليوم الآخر وما سيؤولون إليه.

المبحث الثامن
حوار القرآن الكريم مع المؤمنين

خاطب الله تعالى جميع الفئات وأصلح جميع النفسيات ودعا الكل بأساليب مختلفة كلا على قدر إيمانه وعلى حسب نفسيته ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]. وقد استعرضنا فيما سبق تاريخ الحوار مع المشركين والملحدين ومنكري البعث والمنافقين، أما هنا فسوف نعرض طريقة القرآن الكريم في خطاب الفئة التي استجابت لربها ونفذت تعاليمه، واتخذت قيمه منهجًا وسلوكًا.

إنها فئة قليلة ولكنها جديرة بالعناية والاهتمام، إذ هذه الفئة التي تحمل المشعل لتضيء لغيرها، وهي التي تنقل أحكام الله تعالى إلى الناس أجمعين ولذلك نلاحظ أن خطاب الله تعالى لهذه المجموعة خطاب توجيه لكيفية تعاملهم مع غيرهم. وهم أصحاب منهج ورسالة واضحة. قال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]. كما نلاحظ حوار المؤمنين مع غيرهم من المدعوين.

طريقة دعوة المؤمنين لأهل الكتاب:

أ- بيان مواطن الاتفاق معهم مثل الايمان بأنبيائهم:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٧].

فالقضية قضية دعوة بالحسنى وليست إجبارية فإن استمعوا فقد انتفعوا وإلا فالله ولي المؤمنين، وهنا يحس المؤمن بالأمان لسماع الله تعالى وعلمه بما يدور.

ب- الجدال بالتي هي أحسن:

يضطر المؤمنون أحيانًا إلى الدخول في مناظرات مع أهل الكتاب لإثبات ما يدعون إليه و إنكار ما يدعيه غيرهم وعلى المؤمن أن يكون منهجه في الجدل واضحًا وأن يؤكد الاتفاق على المبادئ، فالإله واحد، والمبادئ المنزلة من عند الله واحدة، وعلى هذين المبدأين ينبغي أن يكون النقاش فإذا حصل الظلم والتعدى جاءت نهاية النقاش فكل له دينه قال تعالى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

جـ- الحرص على إسماعهم آيات الله:

فإن للقرآن تأثيرًا عجيبا على البشر، وعلى النصارى بشكل خاص، وقد تواترت الأخبار بسماع الكفار للقرآن وبدا أثره واضحًا على أكثرهم، فهذا عمر بن الخطاب وهذا سعد بن زرارة وغيرهم كثير، فمن كان سبب إيمانه سماع هذه الآيات التي تلامس شغاف القلوب فلا يستطيع لها ردًا، ولذلك يلفت القرآن انتباه المؤمنين إلى استخدام هذا السحر الحلال لدعوة النصارى.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

وهكذا كان النجاشي عندما تليت عليه آيات من سورة مريم.

منهج المؤمنين في دعوتهم لغيرهم:

١-المؤمن حريص على دعوة غيره خائف عليهم:

والخطاب مع الكافرين أيضًا له فهم وأسلوب، إن إحساس الآخرين بمحبة الداعي

وحرصه عليه له أثر عجيب في كسب القلوب، خصوصا إذا بين ذلك وقرنه بالعلم ووضح مصير الأمم السابقة وعرفهم بالله تعالى.. ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر: ٢٨-٢٩].

إن هذه التساؤلات وهذه الحيادية في السماع لتدع أكبر الفرص لسماع دعوة الله لولا دعاة الفتنة الذين يعملون أيضًا: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٢٩-٣٣].

٢- المؤمن لا ييأس في طريق الدعوة:

وعند صدق الإيمان ينتفي الإحساس بالخوف، عجيب سحر هذا الإيمان إنه كالشرارة التي تشعل ما حولها؛ إنه كالشعلة التي تضئ الكون.

قد ندعو الناس ولكن نخاف من سلطانهم ومن كثرة عنادهم ومكانتهم العلمية أو الاجتماعية، ولكن كتاب الله يسقط كل هذه الصروح؛ ليبين أن لحظة الهداية ليس لها معيار محدد، فهؤلاء سحرة فرعون جاءوا بعلمهم وعملهم ليتحدوا موسى؛ فماذا كان؟

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٣٨ - ٥١)

إنه اليقين بالله والإيمان الذي لامس شغاف القلوب؛ فسقطت هيبة فرعون الزائفة أمام إجلال الله وعزة الله؛ فصدعوا للحق، ووثقوا في الله، ورجوا مغفرته ورحمته.

٣- المؤمن يعترف بفضل الله تعالى:

قد تختلط المفاهيم على كثير من الناس، ويظنون أنفسهم في أعلى الدرجات قربًا من الله تعالى لمجرد التزامهم بشيء من تعاليم الله تعالى، وعندما يحس الإنسان بفضله على غيره وبأنه أسدى معروفًا لله تعالى، ولكنه الحقيقة أن الله صاحب الفضل والمنة أن هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللهُ، وبيان حقيقة الإيمان ويحث النفس على الالتزام بهذه الصفات؛ حتى يصل الإنسان حقًّا لأعلى الدرجات.

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٤-١٨].

٤- المؤمن يعرض الأدلة لزيادة الإيمان:

كثير من الناس عندما يطالب بالدليل يتهمه الناس بعدم الإيمان وأنه لا ضرورة لذلك، وهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من الرسل ومع ذلك طلب رؤية كيفية الخلق ليس للإيمان ولكن للاطمئنان:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ

قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد يحتاج المؤمن في وقت من الأوقات للأدلة وبيان الحكمة في بعض الأمور حتى يصل إلى الطمأنينة والثبات على الرأي.

٥- المؤمن يبشر المؤمنين برحمة الله:

إن الكلمات التي يخاطب بها المؤمنون إخوانهم كلمات كلها خير وبركة ورحمة، إن الحديث بين الأخوة ليس كالحديث مع غيرهم؛ إنه حديث يتقاطر منه الحب وتفتح فيه آفاق السلام والود والخطأ عندهم غير مقصود ويتبعه الإصلاح.

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٦- المؤمن يدعو غيره للاحتكام إلى الله:

فليس لهم خيرة إذا قضى الله ورسوله أمرًا ؛لأنهم عرفوا معنى الألوهية ومعنى العبودية ففازوا وأفلحوا.

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

والمؤمنون طبيعتهم التسليم والطاعة، وإن أخطأوا فعن جهل، وباب التوبة مفتوح لهم، وهم دعاة ولا يتحدثون إلا بخير، ويجادلون بالتي هي أحسن، ويذكرون الناس، ولا ييأسون مهما كانت نوعية من يخاطبون.

ونلاحظ أن خطاب القرآن الكريم لهم خطابٌ رقيق ليس فيه تعنف ولا توبيخ؛ بل فيه قبول وتبشير بالفوز، ووعود بالفلاح.

وإذا كنا قد أبرزنا طرفًا هنا من تاريخ الحوار الإنساني وتطوره، وكيف حاور القرآن الكريم جميع الفئات، لكلٍ طريقته الحوارية التي تتناسب معه، وتقدم وصفا لخصائص المخاطبين الذين يوجه الحوار إليهم، هذا العرض التاريخي يأخذنا إلى تناول نوعين جديدين من الحوار، وهما الحوار مع الذات والحوار مع الآخر. وهذا ما سنتناوله بعد قليل في الفصل الخامس بحوله تعالى.

الفصل الخامس

الحوار مع الذات، والحوار مع الآخر

- المبحث الأول: الحوار مع الذات.
  - أولا: محاسبة النفس.
  - ثانيا: الحوار مع الذات بالتدبر والتفكر والتعقل والتأمل.
- المبحث الثاني: الحوار مع الآخر.
  - أولا: المناظرة..
  - ثانيا: الحوار مع أهل الكتاب..

الحوار مع الذات، والحوار مع الآخر

المبحث الأول
الحوار مع الذات

يكون الحوار مع النفس (الذات) فاعلًا لتصحيح مسارها، و إقامة اعوجاجها، وذلك بمراجعة النفس أو بالتأمل والتدبر والتذكر الذي يعيد الإنسان إلى استجماع خواطره حول مصادر الإعجاز الكوني، وهذا ما سنتناوله فيما يلي:

أولا: محاسبة النفس

من لزوميات الحوار مع النفس محاسبتها، ومناقشتها، ومداومة سؤالها:

روي الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يؤمئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية»[١].

وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، و إنما خف الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء، ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك و إنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، و يفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨ / ١٤٩).

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فكان لها قائدا».

فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده:

أما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن أحدًا لا يعمل حتى يهم، فإن كان لله عَزَّوَجَلَّ مضى، وإن كان لغير الله أمسك».

وشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولا ونظر هل ذلك العمل مقدور عليه، أو غير مقدور عليه ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدورًا عليه لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا عليه وقف وقفة أخرى ونظر، هل فعله خير من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة هل الباعث عليه إرادة وجه الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟.

فإن كان الثاني لم يقدم وإن أفضى به مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك ويخفف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوانه يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟

فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صارت له شوكة وأنصار، وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله ولا يفوت

النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

وأما النوع الثاني: فمحاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول ﷺ وشهود مشهد الإحسان وشهود منة الله، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه هل وفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا عاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وآخر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على الفرائض فإن تذكر نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشته رجلاه أو بطشت يداه أو سمعت أذناه ماذا أرادت بهذا؟ ولم فعلته وعلى أي وجه فعلته قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ٩٢-٩٣].

وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

فإذا سُئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير رحمه الله: يقول تعالى ثم ليسألنكم الله عَزَّوَجَلَّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟.

وقال قتادة: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ منحة وصرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير منحة وصرف في غير حقه فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولا وحاسبًا على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه ما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يُناقش الحساب.

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨].

يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال، أمِنَ الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه؟

قال قتادة: ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلكم كغد.

والمقصود: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفسادها بإهمالها والاسترسال معها.

ومن فوائد محاسبة النفس: الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها، مقتها في ذات الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا».

قال محمد بن واسع: لو كان للذنوب رائحة ما قدر أحد أن يجلس إليَّ.

قال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

فقالت: يا بني، هؤلاء في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك، فجعلت نفسها معنا».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: «أن رجلًا من بني إسرائيل تعبد ستين سنة في طلب حاجة فلم يظفر بها، فقال في نفسه والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأتى في منامه فقيل له أرأيت ازدراءك نفسك تلك الساعة فإنه خير من عبادتكم تلك السنين» فالنفس داعية إلى المهالك معينة للأعداء طامحة إلى كل قبيح متبعة لكل سوء فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل.

ومن فوائد محاسبة النفس أيضًا: أن يعرف العبد بذلك حق الله تعالى ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا.

فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العباد فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه واليأس من نفسه وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يُطاع ولا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بصدد ذلك ينظرون في حقهم على الله ولا ينظرون في حق الله عليهم، ومن هنا انقطعوا عن الله وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي، وأفضل الفكر في ذلك؛ فإنه يسير القلب إلى الله ويطرحه بين يديه ذليلًا خاضعًا منكسرًا كسرًا فيه جبره ومفتقرًا فقرًا فيه غناه وذليلًا ذلًّا فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي ناله.

ثانيا: الحوار مع الذات بالتدبر والتذكر والتعقل والتأمل:

القارئ لآيات الذكر الحكيم يجد حثًا على الاستزادة من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وعلى التأمل والبحث والنظر في ملكوت الله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وعلى التفكر والتدبر: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وحث على التذكر والتبصر: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

كما يجد دعوة إلى التعقل واستنارة البصيرة: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠]. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].(١)

ولا يخفى على القارئ أن الدعوات القرآنية سابقة الذكر لن يقوم بواجبها وحقها إلا أولو الألباب (الذين ورد ذكرهم في ست عشرة آية قرآنية) الذين يتأملون في الكون، ويلتمسون العبرة، ويحسنون التدبر في آيات الله، ويقودهم هذا إلى أداء العبادة الصحيحة، والقنوت لله تعالى، والحذر منه، ورجاء رحمته(٢).

وهذه المعاني المتقدمة نقرؤها عندما نطالع بعض هذه المواضع في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وتأكيدًا لدعوة أولى الألباب إلى التأمل والتعرف إلى جلال الله وعظمته، وبديع صنعه ومحكم آياته، وروائع بيانه، فإننا نجد أن القرآن الكريم لا يدع موطنًا في الكون دون أن يطوف بالإنسان خلاله، ويستثير فيه النظرة التأملية، ويلفت أصحاب العقول الراجحة

---

(١) الآيات التي ورد فيها ذكر (العقل) في القرآن الكريم المأخوذة من العقل (عقل) هي تسع وأربعون آية؛ تدعو جميعها إلى إعمال العقل في جنبات الكون، ولذا نلاحظ ارتباطها بكلمة (آية) و(آيات) في ثلاث عشرة آية في مثل (فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) [الجاثية: ٥]. وهذا أمر له دلالته: فآيات الله في كونه وفي قرآنه تستنفر العقل الواعي لكي يدرك عظمة الله و إعجازه وإبداعه في هذه الآية.

(٢) أحمد عبده عوض: الإسلام والبعث الحضاري، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٤٥.

إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وإعادة النظر في ظواهر الكون والبحث عن حكمها وتصاريفها يظهر لنا حقائق نورانية، ويفتح عين البصيرة، ونزداد من الله هداية ويقينًا، وسبيل ذلك بإعمال آليات الإدراك. واستخدام الحواس استخدامًا وظيفيًا صحيحًا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]. ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٤].

وسنأخذ الآن في تناول آيات التدبر لأولى الألباب في القرآن العظيم التي تتحدث عن أولى الألباب وأصحاب العقول:

١- في سورة البقرة ثلاث آيات مختلفة السياق والموضوع هي:

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وللحكمة مواضعها الحميدة سواء في تبليغ الدعوة أم في إنفاق المال، أم في أي شأن آخر.

٢- وفي سورة آل عمران آيتان: الأولى تتحدث عن عصمة الفكر من البحث فيما وراء المادة، لأن هذا النوع من البحث يقوم على التخمين والتوهم.

والأخرى تطلق العنان للفكر كي يبحث ويستنتج في المادة وأسرارها وقوانينها؛ وقيام الله عليها، وأحكامه لوجودها.

قال تعالى في الموضع الأول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

أما الحث على التأمل في الكون فهو في الموضع الآخر من السورة قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آلعمران: ١٩٠-١٩١].

٣- وفي الموضع السادس نجد تمييزًا لأصناف الناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٤- وفي الموضع السابع بيان بأهمية القصة القرآنية:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ١١١].

٥- وفي سورة الرعد حديث مفصل عن الخلال النبيلة التي يستجمعها أولو الألباب، وتضبط مسالكهم كلها قال تعالى في الموضع الثامن من ذكر أولى الألباب:

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

٦- وفي سورة إبراهيم (الموضع التاسع) نجد وصفا للصراع بين الحق والباطل والآثار القريبة والبعيدة لهذا الصراع، سواء في دنيا الناس أو في اللقاء الأخير مع رب العالمين.

وقد ختمت السورة بهذه الآية: ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

٧- سورة (ص) نجد الموضعين العاشر والحادى عشر لأولي الألباب. في الموضع الأول يقول تعالى:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

القرآن غزير المعاني، مفعم بالحقائق، بيد أن الطريق لاستبانة هذا كله إمعان النظر،

وتعميق البصر وطرق الأبواب دون سآمة، فإن حسن الفهم عطاء أعلى قبل أن يكون كد الذهن وطول التلاوة.

أما الموضع الآخر في سورة (ص)، فلقد حكى القرآن قصة أيوب الذي ألحت عليه الأوجاع، فانحصر داخل عبوديته يتألم ويؤمل، يتحمل ويرجو، حتى تأذن الله بالفرج، وجاءت العافية المنظورة: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٣-٤٤].

٨- وفي سورة الزمر نجد المواضع (١٢- ١٣ -١٤):

في الموضع الأول حديث عن قوامى (قائمي) الليل، هناك رجال في أعصابهم مدخر من نشاط لا يستنفده شبح النهار الطويل، فهم يبقون مع أدبار النهار وإقبال الليل قادرين على العمل، فماذا يعملون؟. يميتون الليل بالغفلة؟ أم يجعلونه أحمر بالعصيان، إنهم يضيئون جوانبه بالعبادة والتهجد مقتدين بإمام العابدين. قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وتلحظ أن أول الآية ذكر لإيقاظ الخاشعين وطوى ذكر النيام الذين لا يرجون ولا يحذرون! كأنهم أتفه من أن يذكروا في هذه المفاضلة، وهم بداهة لا يُحسبون من أولى الألباب.

وفي الموضع الثاني من سورة الزمر نرى معالم للشخصية الإنسانية التي تشد الأكمل والأجمل في كل ما يعرض عليها، إنها توازن بين المبادئ، والمذاهب، وتؤثر الأحسن باستمرار.

من الناس من تراه صريع عقدة ثابتة في دمه، ومنهم من تراه سائب القيادة يجره تيار هنا وتيار هناك، أما أولو الألباب في هذا الموضع فهواهم الغالب مع الأشرف والأفضل.(١)

قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

(١) محمد الغزالي: علل وأدوية، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٢، ص٦٠.

والموضع الأخير لكلمة «أولي الألباب» في سورة الزمر يتناول مصدرا من مصادر الإيمان الحق، وكيف يبُنى هذا الإيمان على التفكر الواعي؟

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

إن أولي الألباب هم الذين يعرفون الله، و يسبحون بحمده، أما الجهال وأنصاف العلماء ومرضى القلوب فهم الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

٩- وجاء ذكر «أولى الألباب» للمرة (الخامسة عشرة) في سورة غافر، و يبدو من السياق أنه يتناول الأقدمين من بني إسرائيل، ولا ريب أن اتباع موسى الأوائل كانوا أولي ألباب بالحق والنصرة والتكريم من فرعون وآله وجنده! ومن هنا أعطاهم الله الكثير.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

على أن صفة أولي الألباب يمكن أن تنسحب على الأتباع المتأخرين إذا كان رسوخهم في العلم حاملا لهم على تصديق محمد ﷺ واتباع رسالته، وذاك ما قررته آية أخرى.

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء: ١٦٢].

٩- أما آخر مكان في المصحف الشريف لأولي الألباب فهو سورة النساء الصغرى (الطلاق) قال تعالى في المرة (السادسة عشرة):

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠-١١] وهكذا فإن الحوار مع النفس بالتأمل يجعل المرء من أولى الألباب، وعندئذ ينسحب عليه ما وصف الله تعالى به أولي الألباب فيما تقدم.

المبحث الثاني
الحوار مع الآخر

أولا: المناظرة:

المناظرة حوار بين متناظرين بلوغا إلى الحق أو جلاء للصواب، وهي بهذا لها من الناحية الشكلية أركان، وشروط، وضوابط، وآداب؛ كلها تؤدي بها إلى:

أن تكون مناظرة.

وأن تكون بلوغًا إلى الحق.

وأن تكون بالتي هي أحسن.

لا بد للمناظرة من موضوع. ولابد لها من متناظرين، وهما ركنا المناظرة ولا بد لها من شروط تكمل هذه الأركان وتوضحها.

أولا: موضوع المناظرة:

إما متعلق بالعقيدة، مثل المسائل التي خاض فيها علماء الكلام، أو متعلق بأحكام فقهية، مثل المسائل التي خاض فيها علماء الأمة والسلف الصالح، وإما بموضوعات بين هذه وتلك.. مثل موضوعات الخلافة ونظام الحكم فهي - بالمعيار الدقيق - مسائل فقهية، لكن البعض تناولها مع مسائل العقيدة، إما باعتبار خطورتها، أو بما حدث عن انحراف في تصور الإمامة وفي وضعها بين مسائل علم الكلام، وقد لا يكون الأمر متعلقًا بأحكام العقيدة، ولا بأحكام فقهية، بل متعلقًا بمسائل فنية؛ مما سكت عنها التشريع كما عبر رسول الله ﷺ رحمة بنا غير نسيان.

والصنف الأول والصنف الأخير من الموضوعات.. أكبر الظن أن ما يستعمل فيهما من قواعد موضوعية أو أدلة، هي القواعد أو الأدلة العقلية، أو كما يسميها الآخرون «الأدلة المنطقية».

وأما الموضوعات الفقهية، سواء كانت منصوصًا عليها، واحتاجت لإزالة بعض الشبهات عنها، أم كانت غير منصوص عليها واحتاجت للاجتهاد، فإن أكثر هذه الموضوعات تحكمها قواعد أصولية مستقاة من علم أصول الفقه، وهو أهم العلوم التي تفرد بها الشرق الإسلامي وتفوق على الغرب الصليبي، مثل علم الجرح والتعديل.

أما الموضوعات فقد يجري فيها استخدام «الأدلة» أو القواعد الأصولية أو الفقهية، وقد يجري استخدام الأدلة أو القواعد العقلية.

أما المتناظران:

فهما طرفان يبغيان بلوغ الحق يسمى البادئ «عارض الموضوع» معلِّلا، والمتعرض سائلا.

أو يسمى البادئ «عارض الموضوع» مانعًا، والمتعرض مستدلًا. وذلك تبعًا لموضوع المناظرة.

وقد يتغير الأمر أثناء المناظرة؛ فينقلب السائل معلِّلا، والمعلل سائلا، أو المانع مستدلا والمستدل مانعا.

شروط المناظرة:

الشرط الأول: أن يكون المتناظران على علم بموضوع التناظر.

الشرط الثاني: أن يكون المتناظران على معرفة بما يحتاج إليه من قوانين المناظرة وقواعدها، حول الموضوع الذي يريدان المناظرة فيه.

الشرط الثالث: أن يكون الموضوع مما يجري التناظر فيه فالبدهيات والمسلمات لا يجري التناظر فيها.(١)

الشرط الرابع: أن يجري المتناظران مناظرتهما على عرف واحد، فإذا كان الكلام على عرف الفقهاء؛ فلا يلجأ الطرف الثاني إلى عرف النحاة أو الفلاسفة ونحو ذلك.

---

(١) علي جريشة: أدب الحوار والمناظرة، مرجع سابق، ص ٦٥.

ضوابط المناظرة:

هذه الضوابط تميز المناظرة عن الجدل المذموم أو السفسطة، فليس الأمر انتصارًا لرأي إعجابًا لكل ذي رأي برأيه، لكنه بحث عن الحقيقة، وبلوغ إلى الصواب، ومن هنا جاءت هذه الضوابط:

١- تخلي كل من الفريقين عن وجهة نظر مسبقة، و إعلانهما الاستعداد لتقبل الحقيقة، وقد أرشد إليها القرآن الكريم ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

٢- الامتناع عن الإيذاء والسخرية، أو البذاءة، أو الفحش، قال تعالى ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]... ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿... ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ «ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»[1].

٣- افتراض صحة الجانب الآخر أو مجاراته وصولًا إلى تبكيته، أما افتراض صحة الجانب الآخر فإما بحثًا عن الحقيقة حتى يصل، أو مجاراة للطرف الأخر إن كان معاندًا حتى نوصله للحقيقة. ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

أو مجاراته وصولًا إلى تبكيته و إلزامه ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ١١].

٤- التزام الأدلة الأصولية أو العقلية، وتقديمها مؤيدة بالقرآن أو الحديث، وألا يقدم دليلًا ترديدًا لأصل الدعوى، وألا يطعن إلا على الأسس التي يجري عليها التناظر، وألا يكون في بعض كلامه ما ينقض الآخر.

٥- التسليم بالمسلمات وقبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في اللعنة، رقم (٢٠٠٠).

آداب المناظرة:

هذه الآداب مستمدة من أن المناظرة غير المراء أو المجادلة «المذمومة» فهي بلوغ الحق، أو كشف الصواب.

وهي من ناحية أخرى تلتزم ما أمر الله به «أن تكون بالتي هي أحسن، وتبتعد عما يتعارض مع الغاية النبيلة والوسيلة الكريمة.

ويمكن أن نجمل ما قاله العلماء في آداب المناظرة:

١- الترتيب: بمعنى أنه لا يحسن الاستعجال في البحث قبل تمام المفهم، فإن في ذلك فائدة للمعلل والسائل على السواء.

أما المعلل: فقد يغير الدليل، أو يزيد عليه بما يدفع الاعتراض، أو يحذف فيه ما يوجب الخلل، أو يدلل على مقدمة نظرية، أو ينبه على مقدمة خفية، فيسلم من مناقشة الخصم.

وأما السؤال، فربما يخطئ بالاستعمال فيظهر جهله، وقد يذكر المعلل بعد إقامة دليله ما يظهر به ما خفي على السائل فيكفيه مؤنة البحث، وقد يؤدي استعجال البحث إلى فساد.

٢- ألا يهاب وألا يحقر: بمعنى ألا يقع فريسة الخوف أو فريسة العجب، فكلاهما يؤثر على كفاءته وقد قيل في ذلك: ألا يناظر من هو أعلى منه مقامًا؛ لأنه يؤدي إلى التساهل، والتسليم له بما يقول خشية منه.

والعبرة في هذا بالأثر النفسي، فقد لا يترك الأعلى مقامًا أثرًا في نفس المناظر فلا يهابه، ومن ثم لا يؤثر على قدرته على المناظرة.

٣- ألا يختصر، وألا يطيل، وألا يخرج عن المطلوب: فالاختصار يخل بالمفهوم ولا يوصف المطلوب والإطالة تمل السامع فينقطع عن الوصول إلى المطلوب، والخروج عن موضوع المناظرة يؤدي إلى الانتشار المفوت للمطلوب.

٤- أن يتجنب في ألفاظه الغريب والمحتمل من غير قرينة، وكلام السفهاء؛ لأن الغريب يكون غير موصل، والمحتمل من غير قرينة، كذلك، وكلام السفهاء من وظائف الجهال يسترون بها جهلهم.

وأن يكلم كل مقام بما هو وظيفته، ففي علم الكلام يتكلم باليقين المفيد للاعتقاد، وفي الفقه بالأمارات المفيدة للظن.

٥- الجلوس: جلسة المكترث، مقابلًا للمناظرة، مقبلًا عليه، متجنبًا أوقات عدم الاعتدال [الجوع، الامتلاء، الغضب، المدافعة] ومتجنبًا الضحك، والصوت العالي، وما يزيل الهيبة(١).

شروط المناظرة وآدابها:

١- البدء من نقطة التقاء:

فليس النقض والهدم سبيلًا إلى النفوس: إنه لون من الصد عن سبيل الله لا ينبغي أن يقع فيه المسلم المحاور، وكل إنسان، ولو كان غير مسلم، لا يعدم نقطة خير في قلبه يبدأ بها المسلم فيدخل إليها، أو يدخل منها، ثم ينميها ويسير بها إلى هدفه الذي يريد.

▪ ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

▪ ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

▪ ﴿ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩-٢٢].

(١) أحمد مكي: علم آداب البحث والمناظرة، ص ٢٧.

▪ ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

▪ ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ... ﴾ [يوسف: ٤١].

٢- البدء بإثارة العاطفة وتوجيه الاهتمام:

▪ ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

▪ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ
إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ
لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن
رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ
وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: ٢٥-٣٢].

٣- التذكير بأنعم الله واللفت لآيات الله في الأنفس والآفاق:

▪ ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

▪ ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

■ ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٦).

■ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء ١٣٢-١٣٥].

■ ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

■ ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

٤- البدء «بصدمة» تفيق:

وأغلب الظن أنها بالنسبة لمن ران على قلوبهم «فاحتاجوا إلى ما يزيل هذا الران أو طمست عقولهم فاحتاجوا إلى ما يفيقهم[١]».

■ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

---

(١) علي جريشة: مرجع سابق، ٨٤.

■ ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١].

■ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٠-٥٢].

وقد قيل في قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]. إن الدعوة بالحكمة تعني تغيير الأسلوب حسب المقام فمن أصلحته الكلمة الطيبة فلا يصار إلى غيرها، ومن أصلحته الكلمة الخشنة فهي الحكمة في هذا الموضع.

■ ومنها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١-٢].

■ ومنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

■ بل إن الصدمة أحيانًا تلزم المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

٥- الدعوة إلى إعمال النظر في رفق وأدب:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ: ٤٦]. أي أدعوكم إلى واحدة.. قيل خصلة واحدة.

أو كلمة واحدة.. هي لا إله إلا الله... أو هي القرآن «باعتبار الكلمة جنسًا».

أن تقوموا.. أي للحق.. ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

لله مثنى وفرادى.. أي مجتمعين ومنفردين.. أو متشاورين أو من غير تشاور.. أو المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل.

ثم تفكروا: دعوة إلى التفكير... إن وقفنا عليها.. مطلق التفكير في النفس والآفاق.. مما يفضي إلى التوحيد وهو منهج قويم في الحوار.

أن تترك خصمك يصل إلى الحق الذي تريد مما يظن معه أنه هو الذي اكتشفه فيكون أكثر إقبالا وأكثر استمساكًا.

ومنه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦].

فقد سألهم عمن يرزق.

ثم أجابهم أنه الله.

ثم جعل تقريرا فيه احتمالان: إما أن يكونوا على هدى أو في ضلال أي أحد الغريمين على هدى والآخر على ضلال، وهو يدعو إلى التفكير.

ثم جعل خيارًا آخر.

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولئن كان الإجرام بمعنى الكسب..

فلقد كان في استعماله في جانب المؤمنين، وجعل العمل في جانب الكافرين.. إما لونا من المساواة حيث لا تجب ففيه مجاملة للفريق الآخر، أو لونا من التأليف يجعل الفعل الأقرب إلى الخطأ في جانبهم كما تقول تواضعا: قد أكون مخطئا.

هذا لون من أدب الحوار جميل.

وهو موضوع، يرد المخطئ إلى الصواب.

و يرد المبطل إلى الحق.. وفي النهاية.. يترك الأمر للتفكير..

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا ﴾ يحكم بيننا ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وفي حوار إبراهيم مع الكافرين الذين يعبدون الأصنام:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٣].

... فيها إيقاظ لضمائرهم وعقولهم ودعوة إلى إعمال النظر، فلما لم يفلح لجأ إلى وسيلة عملية لإفحامهم، وذلك بأن كسر أصنامهم، وجعل الفأس على رأس كبيرهم، كما تحدثت سورة الأنبياء، وسيأتي تفصيلها بعد قليل.

٦- الاستفهام التقريري:

وهو الذي يعتمد على مقدمات بينة:

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ (البلد: ٨).

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

ومنها بقية قصة إبراهيم مع قومه لما لم يصل معهم إلى نتيجة بالحوار الهادئ ـ كما تقدم ـ لجأ إلى حل عملي ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء ٥٨-٦١].

وهنا كان الإفحام:

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣].

فكانت النتيجة:

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].

ثم كان التقريع: ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

فلجأوا إلى غير المحاورة إلى أسلوب الغاشمين الضالين:

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فتدخلت إرادة رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ثانيا: الحوار مع أهل الكتاب:

احتوى القرآن الكريم على أفضل الأساليب، وأحكم المناهج وأقوى الحجج في حواره مع أهل الكتاب وغيرهم، وقد نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ بالحجج البينة والبراهين القاطعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. (وقد وفى سبحانه وتعالى بما وعد، وأظهر دينه على رغم من كفر وجحد، فأظهره بالحجة والبيان، ونصره بالسيف والسنان، وأيد أهله على من سواهم، ونصرهم بالحجة على من ناوأهم، كما أظهرهم بالسيف على من كانوا له يحاربون، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣] وأيد رسوله وأتباعه بالحجج الصحيحة العلمية، والبراهين القاطعة العقلية والنقلية، بما لم يبق بعده للمخالف إلا محض العناد، وكفى لمن جانب الاعتساف وسلك طريق العدل والإنصاف ما تضمنه القرآن العربي المبين من البينات والحجج والبراهين، فهو الشفاء النافع لمن استشفى، والكفاية التامة لمن به استكفى، وهو الهدى والنور وشفاء وسوسة الصدور، وهو الكفيل بالانتصار على المبطلين لمن كان به خبيرًا كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ

تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما يبطلها ويلقيها من شاهق، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وفي الحديث الذي رواه على بن أبي طالب كرم الله وجهه عن النبي ﷺ في صفة القرآن: (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثير الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن ١-٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم)[١].

فكتاب الله تعالى، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] ولأن القرآن كلام الله الحكيم أعلى وأعز من أن يرد إلى منهج بشري قاصر محدود، ونحن سنحاول استنباط منهج القرآن في الحوار مع أهل الكلام، ويدخل في ذلك كافة سبل الإقناع والتأثير بما في ذلك القصص القرآني والوعظ والتهديد.

(وإذا صح لنا أن نقول إن في القرآن شيئا من المنطق فإنما هو منطق العقل والضمير، منطق الحجة والبرهان... منطق البلاغة والبيان، وليس منطق أرسطو القائم على القياس ذي المقدمتين والنتيجة)[٢] والصورة التي تشكلت بها حجج القرآن وبراهينه وجدله هي صورة الفصاحة والبلاغة والإعجاز البياني وهي صورة لا تأتي بحال من الأحوال إذا اتبع في حججه وبراهينه وجدله منطق اليونان وطرق الجدال عندهم من ترتيب المقدمات والنتائج والأشكال والقياسات على هيئة خاصة وأسوار خاصة ونظم خاصة، فإنه يفقد بذلك ميزة الإعجاز والتحدي؛ لأن هذه النظم والقوانين أشبه بالصنعة التي تتعلم مرسومة لا محيد عنها يستوي فيها الجميع عند ممارستها، وقد لا يرقى إلى تعلمها وفهمها إلا القليلون، وقد يجر

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: فضائل القرآن، باب: ماجاء في فضل القرآن، رقم (٢٨٣١).
(٢) الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٨٩ ـ ٩٠.

الاسترسال فيها إلى سرعة هدمها ونقضها بأقل تشكيك في سلامة بنائها، فتستحيل إلى جدل عقيم، ومناقشات بيزنطية ضررها أكبر من نفعها)[١].

لذا قال أحد كبار الفلاسفة المتكلمين وهو أبو عبد الله الرازي: (لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن الكريم)[٢] وسيكون التركيز على منهج القرآن في محاورة أهل الكتاب؛ مع ذكر أمثلة لما ورد عن النبي ﷺ والسلف الصالح.

وهذا عرض لأسلوب القرآن الكريم في محاورة أهل الكتاب:

أولا: الاستفهام الاستنكاري:[٣]

وقد ورد هذا كثيرًا في القرآن الكريم في سياق محاورة أهل الكتاب وهو أن ينكر عليهم أفعالهم المنكرة عن طريق الاستفهام، فلا يملكون جوابًا لما تحويه هذه الأفعال من فساد، يعرف بداهة بالفطرة، ولما تحويه من تناقض ومخالفة لما في كتبهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٨-٩٩]. وقوله تعالى مخاطبًا لهم بخطاب الغائب ليكون أبلغ في التأثير: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦]. فإذا سمع الكتابي هذه الاستفهامات فإنه يحار ولا يجد عليها جوابا، فإن كان في قلبه أدنى ذرة من خير فإنه يؤمن ويترك ما كان عليه من الكفر والصد عن سبيل الله وكتم الحق، وإن كان غير ذلك فإنه تقوم عليه الحجة ويقع في غاية الحرج؛ وذلك لأن الكتابي يقر بوجود هذه الأمور منه فإنه يكفر بآيات الله ويلبس الحق بالباطل ومع كتمانه الحق وصدهم

(١) الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٩٠.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/٥.

(٣) خالد بن عبد الله القاسم: الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه، الرياض، دار المسلم، ١٤١٤هـ، ص ١٨٥.

عن سبيل الله مع فساد التوجه ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [آل عمران: ٩٩]. ولا يستطيعون إنكار ذلك كما لا يستطيعون إنكار علمهم بصفة النبي ﷺ في كتبهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقد تواترت الروايات عن أهل الكتاب في زمن النبي ﷺ تتضمن اعترافهم بصدقه ومعرفتهم أنه هو المبشر به في كتبهم، ولا أدل من أنهم كانوا ينتظرونه فلما بعث وكفر به من كفر منهم زال انتظارهم.

ومن تلك الروايات الدالة على ذلك ما يلي:

١- قصة بحيرى الراهب الذي رأى النبي ﷺ - في رحلته الأولى للشام وكان صبيا - ورأى خاتم النبوة في ظهره فسأل أبا طالب، ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو ابنك وما ينبغي أن يكون أبوه حيًّا، ثم أوصاه به وحذره من اليهود[1].

٢- لما خاف النبي ﷺ على نفسه لما جاءه الوحي وأخبره ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر وتعلم النصرانية - قال له (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى)[2].

٣- قدم إلى النبي ﷺ بمكة عشرون رجلًا من نصارى الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، فدعاهم النبي ﷺ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره[3].

٤- قصة سلمان الفارسي وقد عاصر خمسة أساقفة في بلاد متفرقة، يوصي كل واحد منهم سلمان عند موته إلى الآخر حتى بلغ آخرهم فقال له سلمان: بم تأمرني؟ قال:

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ١٦٥ - ١٦٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ٢٢٢ وأصلها في البخاري ٣/١ بلفظ «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ»

(٣) المرجع السابق، (٢/٢٨ - ٢٩).

ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. وبين كتفيه خاتم النبوة. ومعلوم أن سلمان قصد أرض العرب فاسترق فبيع إلى يهود المدينة فلما هاجر النبي ﷺ وعلم مطابقة الأوصاف له أسلم[١].

٥- خبر عبد الله بن سلام عندما أسلم ونصح اليهود بقوله: (يا معشر يهود اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ وأؤمن به وأصدقه وأعرفه)[٢].

٦- خبر مخيريق وكان يهوديًا وكان يعرف النبي ﷺ فلما جاء يوم أحد ـ وكان يوم السبت ـ قال: (يا معشر اليهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق) قالوا إن اليوم يوم السبت. قال (لا سبت لكم) ثم أخذ سلاحه وقتل بأحد فقال النبي ﷺ (مخيريق خير يهود)[٣].

٧- عندما حاصر النبي ﷺ بني قريظة قال كعب بن أسد: يا معشر يهود وقد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثًا فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي: قال: نتابع هذا الرجل فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فرفضوا، فعرض عليهم قتل أبنائهم ونسائهم ثم يقاتلوا فرفضوا، فعرض عليهم القتال يوم السبت فرفضوا، فرضوا حكم سعد بن معاذ فقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم[٤].

والروايات كثيرة، وهي تؤكد علمهم برسول الله ﷺ واعترافهم بذلك فيما بينهم مما لا يستطيعون إنكاره عند مخاطبة الرب عَزَّوَجَلَّ لهم بتلك الاستفهامات الاستنكارية التي

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (١/١٩٨-٢٠٢).
(٢) المرجع السابق، (٢/١١٨).
(٣) المرجع السابق، (٢/١١٩).
(٤) المرجع السابق، (٣/١٤٢).

تبلغ مداها في التأثير و إقامة الحجة، وقد وردت تلك الاستفهامات في معانٍ أخرى في حوار أهل الكتاب.

ثانيا: القصص القرآني:

(قد يساق الدليل في قصة و يأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها فتصغى إليه الآذان، وتميل إليه النفوس وترتاح إليه الأفئدة، وتتأثر بما فيه من عظات وعبر، وقد اتخذ القرآن الكريم من القصص سبيلا للإقناع والتأثير)[1]. فنجد أن القرآن في محاورة أهل الكتاب وغيرهم يورد القصص والتي فيها من إقامة الحجة والتأثير الشيء الكثير.

وأكثر القصص التي ترددت في القرآن قصص الأنبياء، وسنكتفي بمثال واحد وهو قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فقد وردت قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مواضع عديدة منها ما ورد في سورة البقرة ضمن محاورة أهل الكتاب، وقد وردت بعد قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٢٢] وورد بعدها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٣٥]. والآيات طويلة تبتدئ بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. إلى قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقد ذكر الفخر الرازي سبب ذكر قصة إبراهيم وفائدتها في محاورة أهل الكتاب وغيرهم بقوله: (والحكمة فيه أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضًا مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمورا توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفى بها وخرج عن عهدتها لا جرم نال النبوة والإمامة، وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

---

(١) الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٧٣.

الثاني: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدوا أن هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل.

الثالث: أن الحج من خصائص دين محمد ﷺ فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

الرابع: أن القبلة لما حولت إلى الكعبة المشرفة شق ذلك على اليهود والنصارى فبين الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بفضله ووجوب الاقتداء به، فكان ذلك مما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم)[1].

ومنها أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعا بخروج النبي ﷺ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] ثم قال بعدها ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فلا حجة لهم بترك متابعته.

ومنها بيان الله أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي يتشرفون بالنسبة إليه كان على الإسلام والتوحيد كما كانت وصيته لأبنائه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

يقول سيد قطب بعد هذه القصة: (في ظل البيان التاريخي الحاسم لقصة العهد مع إبراهيم وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين، يناقش إدعاءات أهل الكتاب المعاصرين، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم فيبدو هذا كله ضعيفًا شاحبًا كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل. كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنتون)[2].

وهكذا فإن القصة في القرآن لها دورها البالغ في محاورة أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦-٧٧] وقال تعالى مبينا فوائد القصص القرآني في نهاية قصة يوسف

---

(١) الرازي: التفسير الكبير، (٤/٣٣).
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، (١-١١٧).

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

ثالثًا: الوعظ والتذكير:

إن أهل الكتاب لا تنقصهم الحقائق كما لا يخفى عليهم الهدى، وإنما ينقصهم الإيمان؛ لذا نجد القرآن الكريم يعظهم ويذكرهم ليردهم إلى الحق، ولكي لا يبقى لديهم حجة أو عذر.

فتارة يذكرهم بنعم الله عليهم والتي من الواجب أن تقابل بالشكر والإيمان لا بالكفر والجحود، فيسرد النعم التي أنعم الله على بني إسرائيل ـ في آيات كثيرة يطول سردها ـ ابتداء بتفضيلهم على العالمين ومرورًا بإنجائهم من آل فرعون وإغراق آل فرعون وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وإحيائهم بعد موتهم، وتظليل الله عليهم الغمام وإنزال المن والسلوى، وتفجير الأرض اثنتا عشرة عينًا.. إلى آخر تلك النعم[١].

وسنذكر مثالًا على ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

وتارة أخرى يذكرهم بعاقبة الكفر والعصيان بضرب أمثلة لمن عصى أو كفر منهم، وكيف كانت عاقبته؟ كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

ومثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩] ويقول تعالى عن بعض بني إسرائيل: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ

(١) خالد بن عبد الله القاسم: مرجع سابق، ص-١٩٢.

وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١].

وتارة يذكرهم بيوم القيامة وبشدة عذاب الله للعصاة، ليكون ذلك رادعًا لهم عن عصيانهم وكفرهم بمحمد ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨]، ويقول تعالى ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

ويقول تعالى في سياق محاورة أهل الكتاب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢]، ويقول تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤).

وقد نزلت هذه الآية في اليهود المعاصرين للنبي ﷺ، قال ابن عباس: " نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب، كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد ﷺ وأمر شرائعه)[1].

(١) الرازي: التفسير الكبير، ٢٥/٥.

وقد كان النبي ﷺ يحاور أهل الكتاب بهذه الآيات وأمثالها، كما كان السلف الصالح يستخدمون هذا الأسلوب في محاورة أهل الكتاب، ومن ذلك تذكير الباجي لأحد الرهبان بقوله: (وأمر الدنيا وشأنها أنفر وأحط من أن يغتر بها ذو عقل أو يسكن إلى غرورها ذو لب).[1]

رابعًا: التحدي والمباهلة:

إذا ظهر الحق واستبان فإن التحدي والمباهلة من الأساليب النافعة في إظهار الحق وإبطال الباطل.

أما التحدي فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة ٢٣-٢٤] هذه الآية المدنية خطاب لأهل الأرض، ويدخل فيهم أهل الكتاب، وقال ابن القيم في بيان دلالتها: (إن حصل لكم ريب في القرآن، وصدق من جاء به، وقلتم إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: اجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به.

فهذا لا يقوم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم، ويقول لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، وهم في حالة لا يقدرون على معارضته)[2].

(١) الباجي: رسالة راهب فرنسا، ص٦٩.
(٢) ابن القيم :، بدائع الفوائد (٤/١٣٤-١٣٥).

أما المباهلة فهي نوع من التحدي، وقد أمر الله بها في القرآن وبين صفتها فقال تعالى في سياق حوار أهل الكتاب في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران ٦١-٦٣] وقد ورد هذا الأمر الإلهي في الآيات التي نزلت في نصارى نجران لما أتوا النبي ﷺ، وقد روي ابن إسحاق أنه لما أراد النبي ﷺ ملاعنة ومباهلة النصارى قالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟

فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم[1]. ثم قال لهم: «فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم فتركوا الملاعنة وقالوا للنبي ﷺ: قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك لدينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنك عندنا رضا. فبعث معهم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]. وهذه القصة من دلائل نبوته ﷺ قال الرازي: دلت هذه الموافقة على صحة نبوة محمد ﷺ من وجهين:

أحدهما: وهو أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ خوفهم بنزول العذاب عليهم، ولو لم يكن واثقًا بذلك لكان ذلك منه سعيًا في إظهار كذب نفسه، لأنه بتقرير أن يرغبوا في مباهلته ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر، ومعلوم أن محمدًا ﷺ كان من أعقل الناس فلا يليق أن يعمل عملا يفضي إلى ظهور كذبه، فلما أصر على ذلك علمنا إنما أصر عليه لكونه واثقًا بنزول العذاب عليهم.

وثانيهما: أن القوم لما تركوا المباهلة فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته والإ لمًا أحجموا عن مباهلته، بل ودفعوا إليه المال الوفير، وصرحوا بتصديقه[3].

(١) المقصود به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/١٦٦).
(٣) الرازي: التفسير الكبير، (٨/٨٢).

وهذه المباهلة قد أمر الله بها ودعا إليها النبي ﷺ، ودعا إليها أصحابه، وهي سنة إلى يوم الدين، ليست خاصة برسول الله ﷺ.

قال ابن القيم في فوائد قصة نصارى نجران: (إن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد، أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن انكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي وسفيان الثوري في مسألة رفع اليدين)[١].

خامسًا: الاستدلال باستحالة ما يدعونه عقلًا:

يناقش القرآن الكريم أهل الكتاب فيما يدعونه مناقشة عقلية، ويثبت لهم أن بعض ما يدعونه محال عقلًا، أو يلزم منه أمر لم يقع[٢]. فمن ذلك نسبتهم الولد لله، فبين الله عَزَّوَجَلَّ امتناع ذلك عقلًا كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧]. ولم يزد الرب عَزَّوَجَلَّ عن تسبيح نفسه، وإخبارهم بأنه مبدع السماوات والأرض، مع كمال قدرته المنافية لاتخاذهم الولد لله وهذا مما علم بالفطرة.

كما أن الإله مستغن عن غيره ضرورة، والمسيح لم يكن كذلك كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

كما أن نسبة الابن لله يلزم منه أمرٌ لم يقع فيعلم بطلانه عقلًا كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. (والمعنى ليس مع الله من إله ولو سلم أن

(١) ابن القيم: زاد المعاد (٣/٦٢٤).
(٢) خالد بن عبد الله القاسم: الحوار مع أهل الكتاب، ص ١٩٦.

معه سبحانه إلهًا للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو أحدهما على الآخر، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فأكثر محال لما يلزم منه من المحال)[١].

ومن ذلك قول النصارى: الله ثالث ثلاثة، المخالف للفطرة البشرية والذي يحيله العقل لذا لم يزد الرب عَزَّوَجَلَّ عن إنكار قولهم من بيان أن التوحيد هو الأصل، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

ومن ذلك وصف اليهود الرب بصفات النقص، وهذا مما يحيله العقل فطرة فلا يحتاج إلى الإنكار، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن ذلك عبادتهم للملائكة والنبيين: وزعم النصارى أن عيسى دعا إلى نفسه، فبين الله استحالة ذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وهكذا يهدم القرآن دعاوى أهل الكتاب بنظرة عقلية تجعل لمن له أدنى عقل أن يتراجع عن قوله الذي يحيله العقل والفطرة.

وقد استخدم هذا الأسلوب كثير من المحاورين المسلمين، ومنهم على سبيل المثال:

ابن حزم الأندلسي: وقد ساق أقوال من قال: إن الفاعل أكثر من واحد، وساق أقوال

(١) الألمعي: مناهج الجدل، ص ٧٥-٧٦.

النصارى بفرقهم المختلفة والتي فيها من الشرك بأنواعه، ثم قال: (ولولا أن الله وصف قولهم في كتابه إذ يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧] إذ يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] و إذ يقول تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وأبو الوليد الباجي في بيانه: أن عيسى ليس إلهًا يقول لأحد الرهبان: (بل هو بشر مخلوق لا يعدو عن دلائل الحدوث من الحركة والسكون، والزوال والانتقال، والتغير من حال إلى حال، وأكل الطعام، والموت الذي كتب على جميع الأنام؛ مما لا يصح على إله قديم)(١).

وابن تيمية يقول منكرا على النصارى التثليث: (وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة لا من جهة العقل، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك، ثم تكلفوا لما ظنوه مدلول الكتب طريقًا عقليًا فسروه بها تفسيرًا ظنوه جائزًا في العقل، ولهذا نجد النصارى لا يلجأون في التثليث والاتحاد إلى الشرع والكتب، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد والحلول، فإن فطرة الله التي فطر الناس عليها وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقلية - التي قد يسمونها ناموسًا عقليًا طبيعيًا يدفع ذلك، وينفيه، وينفر عنه)(٢).

وهذا أحدهم هداه الله إلى للإسلام يحاجهم فيذكر بعض عبارات التوراه المستحيلة عقلًا مثل: «وندم الله على خلق البشر» و«انتبه لم تنام يا رب! استيقظ من رقدتك» و«والله ندم على تمليكه شؤول على إسرائيل، ثم يقول: (فهذه التوراة التي بأيديهم على الحقيقة كتاب - عزير - وليس كتاب الله)(٣)».

سادسًا: إظهار سوابقهم مع رسلهم:

كان أهل الكتاب يرفضون رسالة محمد ﷺ، وخشية أن يؤثر موقفهم هذا على البعض

(١) الباجي: رسالة راهب فرنسا، ص٦٥.
(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٢/ ٢٠.
(٣) السموأل بن يحيى: إفحام اليهود ١٣٣-١٤٠، تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي؛ طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٧هـ، ص ص١٣٣-١٤٠

بوصفهم أهل كتاب سابق يطيل القرآن في بيان مخالفتهم لرسلهم وتعنتهم وعنادهم، وذلك ليظهر للرأي العام أن هؤلاء الرافضين لرسالة محمد ﷺ كانوا كذلك مع من سبقه من الرسل، فلا يضر رفضهم، ولا يدل على صحة ما عندهم، يقول الشيخ السعدي تحت عنوان طريقة القرآن في المجادلة مع أهل الأديان الباطلة: (يقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه لمخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدقًا لما سبق من الرسالات التي مقصدها جميعًا واحد)[1].

والآيات التي يحاور القرآن فيها أهل الكتاب مبينًا فيها هذا الجانب عديدة جدًّا منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٥].

وبعد هذه الآيات وأمثالها في سورة البقرة يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ويقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٥٣] كما يسلي الله نبيه محمدًا ﷺ بأن تكذيبهم لدعوته لا يضر الدعوة شيئًا، فإن جميع الرسل كذبوا كما قال سبحانه: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

سابعًا: إثبات أن دعواهم خالية من الحجة والبرهان، وتحتاج إلى تصحيح:

وذلك أن كثيرًا من دعوى أهل الكتاب تنقصها الحجة والبرهان، فيطالبهم الله عَزَّوَجَلَّ

(١) عبد الرحمن السعدي: القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص٤٣.

ببرهان دعواهم، وهم لا يملكون على ما يدعون حجة ولا برهانًا وإنما أماني وتخرص؛ فتسقط دعواهم من غير رد لها ومن ذلك دعواهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ومثل ما حكاه الله عنهم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ثامنًا: الاستدلال بنصوص كتبهم وبما يسلمون به:

ومن مسالك الاستدلال على أهل الكتاب، الاحتجاج عليهم بما يسلمون به من حقائق ذكرت في كتبهم.

وقد احتج القرآن الكريم على أهل الكتاب بذلك فرغبهم بالإيمان بمحمد ﷺ وأخبر عن وجود ذلك في كتبهم كما قال تعالى مادحًا من آمن منهم: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

كما احتج عليهم بذلك في بعض المسائل الفرعية، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

تاسعًا: الاستدلال بلازم كلامهم:

وذلك أن كثيرًا من ادعاءات أهل الكتاب يلزم منها أمور لا يقرونها، وقد حاجهم الله بذلك حيث كانوا يدعون أنهم مسلمون، وأنهم متبعون لملة إبراهيم؛ فأخبر الله أن الحج من شعائر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم معرضون عنه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ

كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

ولما نزلت: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] قالت اليهود: فنحن مسلمون. فأنزل الله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] فقال لهم النبي ﷺ: «**إن الله فرض على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا**» فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. لذا قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧][1].

وذكر الرازي أن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]، استدلال بلازم كلامهم حيث يقول في عرض شبه أهل الكتاب: الشبهة الأولى: حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٣٥]، ولم يذكروا في تقرير ذلك شبهة، بل أصروا على التقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة.

وأثبت أحمد ديدات التحريف في مناظراته العديدة وكتبه المختلفة، وسلك هذا المسلك في الاحتجاج على أهل الكتاب، ومن ذلك مناظرته المشهورة مع سوجارت أن ليس بينهما اثنان متماثلان، وعلماؤك يقولون بأنه بين الأربع والعشرين ألفًا التي كتبوها، لا توجد اثنان متشابهان، إذن فكيف لك أن تحكم بأن هذه من عند الله، وأن الأخرى ليست من عند الله من بين أربع وعشرين ألف نسخة؟!)[2].

وبعد أن تعرفنا إلى كيفية الحوار في الذات، ومع الآخرين؛ فإننا في حاجة إلى رصد جانب آخر من الحوار مع الآخرين فيما يسمى بالحوار الحضاري، أو حوار الحضارات مما سنعرض له في الفصل السادس.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/٣٨٦) بتصرف.

(٢) أحمد حجازي السقا: المناظرة الحديثة في علم الأديان بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت، تقديم الشيخ الغزالي، مكتبة زهران، القاهرة (د. ت)، ص١٥١.

الفصل السادس

حوار الحضارات

- المبحث الأول: مقدمة تاريخية عن عالمية الإسلام.
- المبحث الثاني: حوار الحضارات في المفهوم الإسلامي.
- المبحث الثالث: التقاء الإسلام بالحضارات الأخرى.
- المبحث الرابع: مراحل التطور التاريخي للعلاقة بين الإسلام والغرب.
- المبحث الخامس: الرؤية المستقبلية لحوار الحضارة وأهميته وشروطه.

حـوار الحضارات

المبحث الأول

مقدمة تاريخية عن عالمية الإسلام

ظهرت الطبيعة العالمية لرسالة الإسلام من الأيام الأولى. كان حول الرسول ﷺ سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي لقد آخى الإسلام بينهم وصهرت روحه القوية فوارق الدم والجنس فيهم كما كان حوله الرجال والنساء والأطفال؛ أحرارًا وعبيدًا.

وعندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة كان من أعماله الأولى المؤاخاة التي قام بها بين المهاجرين والأنصار فقرن كل واحد من المهاجرين بواحد من الأنصار اعتبره أخاه، ووصل كرم الأنصار، وثقتهم في هذه المؤاخاة إلى الدرجة التي كان الأنصاري يعرض على أخيه المهاجر نصف ماله وإحدى زوجتيه بعد أن يطلقها.

وكانت الثانية هي «صحيفة الموادعة المشهورة» التي جمعت الفئات اليهودية داخل إطـار «أمة المدينة» ورتبت عليهم واجبات كما منحتهم حقوقًا وواجبات.

وتعد صحيفة الموادعة من أولى المعاهدات التي ترفع فوق حواجز الدين وفوارق الجنس وتمنح الجميع حقوقًا وواجبات متساوية.

ومع الزمن كانت الطبيعة العالمية للإسلام تتضح وكانت نصوص القرآن صادعة بذلك، وصلت الآيات التي يتصدرها «أيها الناس» محل الآيات التي توجه إلى المؤمنين.. والتي تصرح ببعثة الرسول ﷺ «إلى الناس جميعًا» وتصف «عالمية الإسلام» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وسلك الإسلام طريقة «حضارية» سليمة في الدعوة لعالميته، تلك هي الخطابات التي أرسلها الرسول ﷺ إلى ملوك الدول المعروفة وقتئذ الروم والفرس ومصر وكانت هذه الكتب تدعو هؤلاء الحكام إلى الإيمان بالإسلام أو تحملهم مسئولية إبقاء جماهيرهم في ظلمات الكفر إن رفضوا.

وكما هو معروف فقد رفض الجميع باستثناء المقوقس الذي لم يرفض ولم يقبل، وأهدى إلى الرسول ﷺ هدايا.

وأتم الخلفاء الراشدون ما بدأه الرسول ﷺ؛ ذلك أنه كان يسع المسلمون وليس لديهم قوة أن يقنعوا بتبليغ الملوك ولكن عندما توفرت لهم القوة كان لا بد من تبليغ الشعوب والأمم، بصفة عامة برسالة الإسلام.

ذلك أن التبليغ برسالة الإسلام باعتباره الرسالة الخاتمة.

ولننظر سويًا إلى هذه الآيات الكريمة: -

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

على أن هناك نقطة دقيقة يجب إيضاحها، ذلك أن الإسلام كما هو عقيدة دينية، فإنه أيضًا عدالة دنيوية، وقيم حضارية، وقد استبعد الإسلام نهائيًا فرض العقيدة الدينية بالقوة؛ ليس لأنها تخالف طبائع الأشياء فحسب ولا لأنه لا قيمة لدين يكره عليه صاحبه، ولكن أيضًا لأنه لا يخالف النصوص القرآنية الصريحة في أن الله تعالى لو شاء لجعل الناس أمة

واحدة وأن الهداية مردها إلى الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

هنا نجد أفضل صورة للعالمية، صورة تعرف الناس بدين يستبعد عبادة الأحبار - والرهبان والملوك والطغاة، ويعرض عبادة الرحمن الرحيم الخالق الكريم رمز القيم والمثل الغائبة والإيمان برسول الله ﷺ رحمة للعالمين... ولكن هذا العرض لا يعني الإجبار، إنه مجرد عرض، دور المسلمين فيه أن يكونوا شهداء عليه.

وفي الوقت نفسه فإن تطبيق القيم الإسلامية والنظم الإسلامية التي تقوم أساسًا على العدالة، وتستبعد كل صور الظلم والطغيان تحرر المجتمع، وتفتح أبواب الحرية، وآفاق المبادرات للأفراد جميعًا.

يتضح مما سبق أن للإسلام «عالمية» وضعها تطبيقًا لتوجيه القرآن أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذه العالمية لا تقف أمامها حدود أو سدود وهي تنظر إلى الناس جميعًا دون تفرقة بين أبيض واسود. ذكر وأنثى، والإسلام يجد من واجبه أن يعرف للناس هذه العالمية بالإسلام كعقيدة دينية وعدالة دنيوية وقيم حضارية، فالمسلمون هم حملة رسالة عليهم أن يبلغوها، وفي العهود الماضية لم يكن ذلك متيسرًا بغير العمل العسكري الذي يشعر الجماهير به، فضلًا عما يتمخض عنه من حرب، أو إيمان، أو موادعة تكون كلها لها آثار بعيدة المدى إن لم يكن في إسلام هذه الأقوام فعلى الأقل تعرفهم على قيم الإسلام وبالتالي ثورتهم على قيم الطغيان والجبروت(١).

خلاصة القول أن الإسلام بطبعة عالمي وأن عالميته تقوم على التعريف به، وما فيه من قيم، وأن هذا يمكن أن يتم مع احتفاظ الأمم الأخرى بأديانهم؛ لأن الإسلام وإن كانت عقيدة من ناحية فهو نظام في ناحية أخرى وقاعدته العامة هي الآية ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن وآخرون: الإسلام والعولمة، ص١٤٦، القاهرة، مؤتمر عن العولمة، والصراع بين الإسلام والغرب، ١٩٩٩م.

تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

سمات عالمية الإسلام ومظاهر ذلك:

وتتمثل عالمية الإسلام كذلك في عدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقه في إقليم خاص، أو بيئة معينة. ويكون عالميا بامتداد هدايته أزمانا طويلة تتجاوز العصر الذي بدأت فيه. بمعنى أن يكون الدين صالحًا لكل جنس، وكل جيل ولكل زمان ومكان. وبمعنى آخر: يكون الدين عالميًّا: إذا كان شريعة الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة، التي لا تدخل في ماهية الإنسان كإنسان، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين.

ونود أن نتعرف إلى الخصائص التي يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالميًّا وصالحًا لكل زمان ومكان. ونجمل هذه الخصائص في ثلاث:

١- وفاؤه بحاجة الإنسان جميعًا، فيما يصون وحدتها، ويرعى إنسانيتها، ويحمي أفرادها في العاجل والآجل.

٢- تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد، ولا تنزع معه إلى عصبية دم، أو اختلاف لون، أو فرقة جنس.

٣- اتساقه مع حقائق الكون، وخصائص الوجود؛ بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم، أو يختلف مع منطق الفكر.

وكذلك لا يكون عالميًّا إلا إذا صحب الإنسان في جميع أزمانه المتطورة، وعصوره المتلاحقة، أي: يكون خالدًا، لا يعتريه نسخ أو زوال ولا عقم ولا جمود؛ موفيًا بجميع مطالب الإنسان المتنوعة المتجددة في كل الميادين التي يزاول فيها الإنسان بعقله الواسع نشاطه الكامل. ولا يوجد دين من الأديان السماوية فيه هذه المواصفات التي تجعله عالميًّا، إلا دين الإسلام.

والعالمية من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام؛ لأن مجتمع الإسلام هو مجتمع الإنسانية كلها، مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود.

فالرسالة الإسلامية قد توجهت للناس كافة، من جميع الأجناس والألوان، وفي كل العصور، وبالعالمية التي اتصف بها الإسلام، يتميز عما سبقه من رسالات سماوية كانت تتوجه إلى أقوام بعينهم، في عصر معين[1].

وأن الإنسان وهو يتابع عالمية الإسلام يلحظ بوضوح: أن العالمية في الإسلام، قد قامت على عناصر متكاملة:

العنصر الأول: وحدانية الإله، وإنكار تعدد الآلهة، ومن هنا كان أساس الإيمان في شريعة محمد ﷺ أن يكون بالله وحده لا شريك له، وتنزيهه عن كل صفة يتصف بها خلقه.. واقتضى هذا العنصر:

١- وحدانية الربوبية. فلا خالق، ولا مدبر، ولا متصرف سواه.

٢- ووحدانية الألوهية. فلا معبود، ولا مسؤول، ولا مستعان سواه، وبالوحدانية بشقيها دعا الإسلام.

العنصر الثاني: الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء، سواء منها ما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على إخوانه السابقين؛ لأن هذا الإيمان عنصر من عناصر الإسلام، لا يتحقق إلا به.

فالإيمان بوحدانية الله، والإيمان بكتبه، ورسله، عناصر رئيسية في العالمية التي جاء بها الإسلام.. ولكن ألا ترى معي أن عالمية الإسلام قضية لا بد لها من أدلة تدعمها، وشواهد تثبتها، ولهذا سنحاول أن نعرض هذه الأدلة لتكون علائم الكمال، ومعالم الطريق في عالمية الدين الإسلامي

المجموعة الأولى: أدلة تعتمد على ما ورد في كتاب الله، وسنة نبيه محمد ﷺ من قوله وفعله. إذن هذه الأدلة تقوم على الكتاب والسنة.. وأدلة الكتاب: جاءت منها آيات مكية،

(١) انظر الدكتور: أحمد عبد الرحيم السايح: هذا هو الإسلام، سماته وحاجة الإنسانية إليه، دار الثقافة، الدوحة، د. ت، ص ١٣٢.

تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى، ومنذ أشرقت على الناس، كما جاءت منها آيات مدنية تنبئ عن العالمية واستمراريتها.

ومن الآيات المكية:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

وإذا انتقلنا بعد ما ذكرنا من آيات القرآن الكريم، إلى السنة النبوية وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله.

يقول رسول الله ﷺ: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[1].

ويقول رسول الله ﷺ: «إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة»[2].

وفي كتاب النبي ﷺ إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى ملكي عمان، قوله: فإني رسول الله إلى الناس كافة، الإنذار من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين[3].

المجموعة الثانية: تقوم أدلتها على العوامل الأساسية، إذ أن المقومات الأساسية، الخالدة للإسلام: أنه قائم على العقل والبرهان، وأن هناك ـ أصولًا أولية يتألف منها دستور علمي، يوجه إلى ينابيع الحكمة، وهي تنحصر في هذه الكليات التي تفيد:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٨١٠).
(٢) رواه البخاري في صحيحه بفتح الباري، ج١، ص: ٥٣٣.
(٣) القسطلاني: المواهب اللدنية، مطبعة البابي الحلبي، مصر، (١/ ٢٢٥).

دوام النظر، والتفكير في الوجود إجمالًا، وفي الكائنات التي فيه تفصيلًا، ودرس أحوال الأمم، والاعتبار بها، وتنور نواميس الاجتماع خلالها، والاستهداء بالأعلام المنصوبة في الوجود لهداية السالكين إلى الحقائق الخالصة من الشوائب، والتجرد من جميع الصيغ الوضعية، ومن الهوى في الحكم على الأشياء، والاجتهاد في تحصيل العلم حيث كان، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال؛ الذي قدره الخالق للإنسان في هذا العالم، واعتبار وحدة الإنسانية، وأن الناس ما قسموا إلى أمم وشعوب وقبائل، ليتخالفوا ويتناكروا، وإنما ليتعارفوا ويتحابوا.(١)

ويضاف إلى ما سبق من عوامل أساسية كدليل على عالمية الإسلام: أن كلمة «الإسلام» لا تدل على اسم شخص بعينه، أو أمة بعينها، وإنما تدل على صفة مخصوصة بضمنها معنى الإسلام.

ويظهر من هذا الاسم: أنه ما عنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال، وليس خاصًا بأمة معينة، دون سائر الأمم، وإنما غايته أن يصبغ الأرض جميعًا بصفة الإسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم، ويكون مسلمًا كل من سيتحلى بها في المستقبل.

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة، تتسع لماضي الناس وحاضرهم ومستقبلهم، كما اتسعت نبوات الأنبياء جميعًا، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر.

والإسلام بلغة القرآن: ليس اسمًا لدين خاص، إنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل اتباع الأنبياء.

المجموعة الثالثة: أدلة واقعية، وهي كثيرة، وكلها تشهد لعالمية الإسلام وأنه دين الإنسانية كلها، وسنحاول أن نشير إلى الحقائق الواقعية التالية:

أولا: كان من السابقين إلى الإسلام أبو بكر العربي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي.

---

(١) عطية صقر: الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، ص ص: ٢٤ ـ ٢٥.

وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان من رؤساء قريش في الجاهلية محببًا فيهم، مؤلفًا لهم، وكان إليه الأشناق[١] في الجاهلية، كان إذا حمل شيئًا صدقته قريش وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه.

فلما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه[٢].

أما بلال بن رباح: فقد اشتراه أبو بكر الصديق ﷺ وأعتقه لله عَزَّوَجَلَّ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أبو بكر سيدنا، واعتق سيدنا، يعني بلالا.

وقال مجاهد: أول من أظهر الإسلام بكلمة سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وعمار، وبلال، وسمية أم عمار[٣].

وأما سلمان الفارسي: فأصله من فارس، وكان ببلاد فارس مجوسيًا، سادن النار[٤]. فجاء إلى العرب في قصة طويلة وأسلم.

وأما صهيب الرومي: فكان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأبلة[٥] وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل.

ثانيا: ومن الحقائق الواقعية في التعامل الإسلامي الدال على عالمية الإسلام: «أنه نادى كل الناس» فكانت العقيدة الفائقة التي وضعها الإسلام، والمبدأ العام الذي يجب أن تسير عليه البشرية في تطورها؛ لتصل إلى غايته هو المعبر عنه في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) الأشناق: هي الديات التي يدفعونها ومفردها (دية) ابن الأثير، أسد الغابة ج: ٣، ص: ٣١٠.
(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٣١٠.
(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ: ٥، ص: ٤٨١.
(٤) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ: ٢، ص: ٤١٧.
(٥) هي: بلدة على شاطئ دجلة، على بعد أربعة فراسخ من البصرة في زاوية الخليج، الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة، كان سكانها قوم من الفرس، يعملون في البحر، فلما قرب منهم العرب نقلوا ما خف من متاعهم وعيالهم إلى مدينة سيدان. انظر ياقوت الحموي معجم البلدان جـ: ١، ص: ٧٦ ـ ٧٨ محمد ابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار ص: ٨ ـ ٩.

فالإسلام ـ كما يفهم من النصوص القرآنية ـ جاء ليقيم رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعًا بالله الخالق، فهم جميعًا عباد الله لا ليجعل شعبًا معينًا شعبه المختار.

والرسول ﷺ الذي أمر بتبليغ الإسلام، خوطب في القرآن الكريم على هذا الأساس: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ولم يرسل ليكون هاديًا إلى قومه وحدهم، كما أرسل موسى هدى لبني إسرائيل، وكما أرسل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بني إسرائيل، إنما أرسل ليكون للناس أجمعين.

ثالثا: ومن الحقائق الدالة على عالمية الإسلام: الكتب والرسائل التي بعث بها النبي ﷺ إلى ملوك الأمم، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

يقول ابن هشام: بعث رسول الله ﷺ رسلًا من أصحابه كتب معهم كتبًا إلى الملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

- فبعث دحية بن خليفة الكلبي، إلى قيصر ملك الروم.
- وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.
- وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.
- وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر.

وأشار ابن هشام، في سيرة النبي ﷺ إلى كتبه ورسائل أخرى إلى ملوك عمان، واليمامة، والبحرين، وتخوم الشام[1].

ومن أمثلة هذه الكتب: ما أرسله النبي ﷺ إلى النجاشي، إذ قال له: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد ـ رسول الله ـ إلى النجاشي ملك الحبشة.. أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، خلقه الله من روحه ونفسه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ: ٤، ص: ٢١٧، باختصار شديد.

وأن تتبعني وتؤمن بالذى جاءني، فإني رسول الله، و إني أدعوك وجنودك إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

والأدلة على عالمية الإسلام أكثر من أن تذكر، وتتجلى في الإسلام وأحكامه، وتشريعه، وأخلاقه، وفضائله، وكل ومضة من ومضاته، و إشراقة من إشراقاته.

وهذه العالمية للإسلام التي أبرزناها لها مظاهر أخرى في قابلية الإسلام للحوار مع الحضارات الأخرى، مما سنوضحه فيما يلي.

(١) المرجع السابق، ٢١٨.

المبحث الثاني

حوار الحضارات في المفهوم الإسلامي

تعد قضية الحوار مع الآخر فريضة شرعية اقتضتها دعوة الإسلام، التي اعتمدت في رسالتها إلى العالم منطق الرفق واللين والمجادلة بالتي هي أحسن.. ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولعل الحوار في أدق معانية ودلالاته الاصطلاحية: يعبر عن اتجاه سام بالمجتمعات الإنسانية بعيدًا عن نزق الأهواء، وجموح العواطف، وغائلة الظلم، والتعصب، والانفلات... والحوار إلى جانب هذا: يعد من أرقى الوسائل إلى إقرار الحق والعدل والمساواة في دنيا البشر؛ إنه توظيف حيوي لملكات الخير في النفس البشرية كي تعمل دورها في الحياة للحيلولة دون انحدار البشر على اختلاف انتماءاتهم الحضارية إلى شفا الحروب والصدامات. !

والإسلام ابتداء، ومن منطلق دعوته الكونية لم يضمر لأحد من الناس كيدًا ولا ضغينه ولا حقدًا قط، «فالإسلام يريد لعالميته أن تستعيد مكانها تحت الشمس ولا يريد أن يدفع الشعوب الأخرى أن تأخذ بها قهرًا وقسرًا كما فعلت وتفعل حضارة الغرب»(١). فغير المسلمين اعتمد القرآن في خطابه إليهم منهج الحوار، ولا سيما القضايا الأكثر حرجًا وتعقيدًا، وذلك صيانة للمسلمين والمؤسسات؛ فرغم خلافنا العقدي معهم لم يشأ الله لنا التعرض إليهم بسب أو تجريح؛ تلافيًا لما قد لا يعود بنفع على دعوة الله عز وجل في الأرض ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وأهل الكتاب قد ميزهم الله في كتابه الكريم من حيث الخطاب والمعاملة؛ ذلك بأنهم - افتراضا - معنيون كمثلنا بتأمين عقيدة التوحيد في أرض الله، فهم أصحاب رسالات سماوية، وأهل نبوات خالية، والطبعى أن يسعوا حثيثًا من جانبهم إلى التعاون معنا في سبيل غرس القيم السماوية في نفوس البشر أجمعين، كل بحسب ما لديه من مرجعيات ...

---

(١) منير شفيق: قضايا التنمية والاستقلال في الصراع الحضاري، دار الناشر، بيروت، ١٩٩٢، ص٩١.

فلما كان التفريط من جانبهم والصد والإعراض: أرشدنا الله تعالى إلى كيفية مخاطبتهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ولما بلغت الإساءة من جانبهم إلى الله مبلغًا؛ أخذ القرآن الكريم يخطب ودهم، متوسلًا بما ينبغي الالتقاء عليه، والالتفاف حوله، والعمل من أجله ... ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والإسلام في هذا السياق يعتنى بالأصول والكليات، ويهتم بما هو أهل للاتفاق عليه، دون خوض في تفاصيل ثانوية لا طاقة لأولى الجد بها!! ولعل الدعوة القرآنية إلى اعتبار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رمزًا مشتركًا لقضية العقيدة من دلالات الرغبة في الإسلامية الصادقة في النأى بآليات الحوار الحضاري عن أجواء الاختلاف والتوتر والعصبية..[1]

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فهي خطوات جادة - من خلال الحوار حول الإيمان بأنبياء الله جميعًا - نحو التقارب والتعارف والتعايش في ظلال مفاهيم سليمة سمحة كريمة، خالية من التمايز الزائف والتفاضل المغشوش ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

«إن الله حينما نوع الأجناس لم يرد أن تتناكر وتتخالف، ولكن أراد أن تلتقى».

ولقد اقتضت عالمية الإسلام: شق قنوات اتصال بالآخرين، ومد يد التعاون والتفاعل الإيجابي معهم، وذلك وصولًا إلى تحقيق قدر معقول من التوازن في حركة الحياة، وكذلك صياغة توليفة تناغمية جيدة من تلك الأضداد المتنوعة وبوسائل ربانية حانية

(١) عطية فتحي الويشي: حوار الحضارات وإشكالية التصادم، وأفاق الحوار، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، ٢٠٠١، ص ٢٦٦.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

أما من استغنى: فللإسلام بشأنه العهود والمواثيق، فلقد كانت المدينة المنورة مقام خليط من الملل والأعراق والعصبيات؛ فاتجه النبي ﷺ إلى وضع دستور تتحدد من خلاله معالم الوحدة الاجتماعية، وتصورات التعايش الحضاري مع أصحاب الرسالات وأهل الذمم والعهود.

قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار، ودعا فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم: أن اليهود يقفون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.. وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله»[١].

وفي عجالة: نتجه اضطرارًا إلى سوق ما قد يتبدى - لبعضنا - بعده عن سياق موضوعنا، وهو فيما يتصل بأدب الحرب وأخلاقها في الإسلام؛ إذ لا ينبغي لحرب أن تكون مباغتة من جانب المسلمين تجاه خصومهم، إلا إذا نقضوا العهود وخرقوا الذمم؛ ... حينئذ يرى الإسلام وجوب إعلامهم بالانتقال إلى حال الحرب ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ومع اشتداد هول الحرب، وحمأة وطيس المعركة: شرع الإسلام كذلك منطق الحوار ومراجعة النفس والاستجابة لمبادرات الخصوم.. ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٨-٣٩].

فليس للإسلام حاجة في التقاتل والتدابر والحروب، وتاريخنا منذ بواكيره، وعلى امتداد قرونه، وانتهاء بواقعنا المعاصر لم يسطر قط في صفحاته أي ظلم من جانبنا بحق الآخرين على اختلاف عقائدهم وتباين أفكارهم، يقول المفكر أودين أ. كالفيرى Kalvairy: «ولم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة هذه أحدًا من المسيحيين أو اليهود على اعتناق

---

(١) عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، مصر، دار الريان، ١٩٨٧، (١٢٨/٢).

الإسلام فلقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية التدين وإقامة شعائرهم»[١]. ومن ثم وضع الإسلام بفتوحاته - التي امتدت شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا - عن البشرية أغلالها وفك أسرها، واعتنى بكرامة الإنسان وحفظ حقوقه أيما حفظ وعناية.

ولقد أقر السيد أنتوني ناتانج Antony Natang في مذكراته بهذه الحقيقة الناصعة حيث ذكر: «وطبقًا لشهادة المؤرخين المسيحيين: فقد صدرت أوامر صارمة إلى الجنود المسلمين إبان الحروب الصليبية» بحماية أرواح المسيحيين، وممتلكاتهم، ولم يتعرض مسيحي واحد للمضايقة بسبب ديانته، وهذا فارق جدير بالتنويه بالقياس إلى الفظائع التي ارتكبها الفرنجة[٢].

إن الإسلام يرى في اختلاف الأجناس والألوان، وتباين الطبائع والأفهام، وتعدد المواهب والقدرات وما في نحوه.. من مقتضى حكمه الرب جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، فلعل هذا الاختلاف يحقق للبشرية قدرا من طموحها وتطلعاتها إلى التنمية الحضارية من خلال التعاون والتفاعل الإيجابي فيما بين يدي بني الإنسان من معطيات السماء المادية والروحية، والثقافية والأخلاقية.

فالحوار من ثم كان ضرورة بشرية، بحكم طبيعة تلك المعطيات، وفضلًا عما ينبغي الائتلاف عليه من أمور ترجح - في الحقيقة - ما قد يختلف بصدده[٣].

«فعلى الناس أن يستشعروا الرابطة الأسرية الكبرى التي بينهم، فأبوهم آدم وأمهم حواء، وبهذه الرابطة ذكر القرآن الناس وكثيرًا ما ناداهم «بابنى آدم»فلم لا يعيشون عيشه الأسرة الواحدة ويرجئون كلمة الفصل بينهم إلى من إليه مصيرهم؟»![٤].

---

(١) ت. كويلرنج: الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته، ت. عبد الرحمن محمد أيوب، دار النشر المتحدة - مصر، سلسلة الألف كتاب الأولى، د. ت، ص ١٦٤.

(٢) أنتونى ناتانج: العرب تاريخ وحضارة، دار الهلال، مصر، (١٩٨٠ - ٢/٢٦).

(٣) عطية فتحي الويشي: المرجع سابق، ص ٢٧.

(٤) د. عبد العظيم المطعني: مبادئ التعايش السلمي في الإسلام، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ١٩٩٦، ص١٥١.

وبعيدًا عن جو الصدامات والحروب: أتاح الله للطاقات البشرية مجالات خير متعددة تستوعب زخمها الطاغي اللحوح، ولتثبت من خلال تلك المجالات كفاءتها، وتحقق بالعمل النافع لكل البشرية ذاتها الحضارية، وتميزها بقيم الخير.. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

«وتأييد الله في هذا السياق لا يقر المحاباة إلا بالحق، فتلك سنة من سنن الله من خلقه لا تبديل لها ولا تحويل[1]» ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ٢٧.

المبحث الثالث
التقاء الإسلام بالحضارات الأخرى

اللقاء الحضاري الإسلامي مع حضارات الأمم المختلفة تم بناء على أن العالم هو أقرب ما يكون إلى «منتدى» عالمي لحضارات متميزة تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى، ومن ثم فإن بينها ما هو «مشترك حضاري عام».

وأيضًا فإن هذه الأمم تتمايز حضاريًا[١]، الأمر الذي يستدعي الحفاظ على الهويات الحضارية المتميزة لا لمجرد الحفاظ عليها رغم أهميته إنما لأسباب وطنية، وعقدية تلعب دورها في إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها، لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروعة، والطاقات المحركة في معركة الإبداع، ولما للتعددية الحضارية من دور في إثراء مصادر العطاء العالمي[٢].

والذين يعايشون حياة الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنية، والتاريخ القديم، والتراث العريق، أو يغوصون في تراث هذه الأمم وفلسفتها، ومذاهبها، وتقاليدها، وأعرافها يدركون أن العالم الإنساني به أمم متعددة تتميز كل منها بشخصيتها القومية، والحضارية المتميزة.

و إننا إذا نظرنا في مذاهب هذه الأمم وأعرافها، وفي معايير الحلال والحرام، والمشروع والممنوع لدى أبنائها، وفي موازين الأذواق والحاسة الجمالية، وفي تصوراتها لمكان الإنسان من الكون، وتصوراتها لمصيره بعد الموت، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون، وما وراء المادة والطبيعة.. إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم، في هذه القضايا الأمهات أدركنا السمات التي تمايز بينها جنبًا إلى جنب مع سمات تشترك فيها، فتجمع بينها[٣].

ولا يخفى أن الباحث الذي يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضاري، يجد أنها تضرب بجذورها في أعمق أعماق التاريخ حيث

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة مجلة الأزهر، ١٩٨٨، ص٨.
(٢) المرجع السابق، ص٧.
(٣) المرجع السابق، ص٨، ٩.

كان البابليون، والآشوريون، والفينيقيون، والمصريون، وغيرهم ممن أسهموا في الفكر الإنساني، وكان لهم تمايز حضاري[١].

ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل الفرس والصين والهند واليابان ستفضى بالباحثين إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية، وطرائق العيش، والفلسفة، والحياة، وفي النظرة للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارات.

وذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان، وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها ثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام - بعد الأحياء لهذه المواريث - ثمرة لاندماج هذه المواريث في الفكر الإسلامي، الذي استصفاها وطورها وفقًا لمعاييره[٢]. حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة ولكن إضافاتهم للأصول التي نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا، وابتكروا. لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التي أخذوا عنها، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[٣].

إذن لا بد من التصور الذي يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه على المستوى العالمي الإنساني وجدنا في هذا الفكر «ما هو مشترك إنساني عام» لا يختص بحضارة بذاتها. وفي هذا الفكر أيضًا ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز في الفكر بين ما هو مشترك إنساني، وبين ما هو خصوصية حضارية إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التي تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها، والمادة وخصائصها، هي من قبيل الفكر الذي هو مشترك إنساني عام؛ وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمي، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هي السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التي هي بنت الدليل، والتي لا تختلف باختلاف مذاهب، وعقائد، وأجناس، وفلسفات

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، دار اللواء بالرياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨١م، ص٨٠.

(٢) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص٩ «بتصرف»

(٣) الدكتور توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ط. مكتبة التراث الإسلامي، مصر ١٩٩٠م، ص١٥١.

المكتشفين. ومن ثم فهي لا تتغاير بتغاير القوميات، والحضارات. بل هي واحدة على المستوى الإنساني. كما أن موضوعاتها - المادة وظواهرها - واحدة هي الأخرى لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات.

فعلوم مثل الرياضات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب، والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها، وحقائقها، وقوانينها ومكتشفاتها، لكن حقائق علومها - أي فكرها العلمي - ستظل واحدة، مهما اختلفت المذاهب، والعقائد، والحضارات[١].

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها - على نحو ما، وإلى حد كبير - العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات التي ترشد أداء الإنسان، وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية، لا تستغني عنها أية حضارة مهما سميت وارتفعت. إنها تمتزج لتكون معها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر. وهذه العناصر الخارجية تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود والاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة؛ فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت، ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل؛ فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عارًا وإنما هي فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة لا خطر فيها ولا خوف منها[٢].

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة؛ فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم. ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين، وحضارات الإغريق، والكنعانيين، والآراميين، وجزر بحر إيجه، وفي الغرب

---

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة ص ١٦.

(٢) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، فرنسا، ١٩٨٢م، ص١٥٢.

ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفي الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج في حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة. وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعًا لهذا الاختلاط والتزاوج(١).

في هذا الجو جاء الإسلام، إنه لم ينتشر في فراغ؛ فالأمم التي صادفها أو اتصل بها في حركة المد الكبيرة، أو تلك التي اعتنقته ودانت به أمم عرفت حضارات شتى، وثقافات متنوعة، ومرت بتجارب روحية، وخبرات مادية متعددة.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولًا، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك. ومن هنا كان التأثير والتأثر، ومن هنا كان التفاعل والإخصاب، وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند، وحكمة فارس، وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم، وتشعبت آراؤهم. وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر، وشاع التزاوج والإصهار، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات. وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صيغة فريدة، ونتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي وروحي جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها(٢).

وكلما ذهبنا نبحث في حضارات الأمم وجدنا أن اللقاء والتفاعل الحضاري اللذين عرفهما التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو «مشترك» ولما هو «خاص» قد تم وفق «ما هو مشترك إنساني عام» وهناك ما هو خاص؛ فالتقاء الحضارات - وهو معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية - وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى هو قدر لا سبيل

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤.

إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه تم دائمًا وأبدًا، وفق هذا القانون الحاكم: التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام تفتح له الأبواب والنوافذ، بل يطلبه العقلاء، ويجدون في السعي إلى تحصيله، وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون - في حذر - قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه ويتمثل من ذلك الذي يرفضونه لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية.

ويستطيع الباحث في الحضارات أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها في أخذ وعطاء وفق «ما هو مشترك إنساني عام» و«ما هو خصوصية حضارية».

المثال الأول: لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارات الفارسية، والهندية، واليونانية.

والمثال الأخر: لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

أما المثال الأول الذي يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارات الفارسية، واليونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ بعيدين عن التفتح العقلي، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت. كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن الكريم؛ فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي، وتحرك عملي وعلمي.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التي التقت مع المسلمين لقاء مودة أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها، وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها مسترشدين بالمنهج العلمي العام الذي رسمه للمسلمين مصدرًا التشريع الإسلامي العظيمان: القرآن والسنة. كل فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التي رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم صراطها المستقيم[1].

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٠هـ ص١٢٢.

إن الدولة الإسلامية الجديدة التي عملت على نشر الإسلام في الممالك المختلفة، والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكي تعطي، إنها لم تقبل التراث الفكري اليوناني وغير اليوناني إلا لكي تهضمه بعقليتها الجديدة، وتتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وترده بعد ذلك أضعافًا مضاعفة. فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود وأصحاب الحضارات القديمة يغترفون منها ما كان في وسعهم أن يغترفوا، لكن تلك العناصر التي التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديدًا[١].

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها في عملية البناء كان رائدهم في ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها و«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها».

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود، والخلاخيل، بل بناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة.

لقد كان المسلمون ينظرون في كل شيء، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من الماضي، وينطلقون للمستقبل، ويستفيدون من القديم، ويبنون الجديد، وكانت لهم جولات في كل ناحية من نواحي الحياة: في العلم، وفي الحكمة، وفي الأخلاق، وفي الفلسفة، وفي الطب، وفي الهندسة، وفي الجغرافيا، وفي الفلك، وفي الصناعة، وفي الكيمياء، وفي الصيدلة، وفي الزراعة، وفي التاريخ، وفي القصص، وفي اللغة، وفي الحيوان، وفي الفيزياء، وفي الأحجار، وفي البحار والمعادن[٢].

ولم يدخر المسلمون جهدًا في البحث عن تراث الأمم السابقة. واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على الثقافات اليونانية القديمة، والفارسية، والهندية، وغيرها من الثقافات التي نمى إلى علمهم أنها موجودة في أي صقع أو قطر[٣].

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي، مرجع سابق ص ١٦٧.
(٢) الدكتور توفيق الراعي: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٣٨٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٩٠.

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذي قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفرًا باللغة العربية. فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة، والعلوم، والفنون المختلفة التي سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادئ الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة التي ورثها المسلمون عن الشعوب ذات الحضارة العريقة[1].

١- لقاء الإسلام بالحضارة الفارسية:

ليس هناك شك في أن الفتح الإسلامي للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية في إطار الدولة الإسلامية قد أتاحا أوسع الفرص لتفاعل حضاري واسع، وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي. لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامي - إبان تبلور حضارته، وبين الميراث الفارسي يستطيع أن يميز بين ما «قُبل» وبين ما «رُفض» من هذا الميراث.

لقد فتحت فارس على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية: النيل، وبردى، ودجلة، والفرات. ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبنى النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية الذي كان يسمى «وضائع كسرى» وظل سائدًا ومعمولًا به حتى عدل في ظل الدولة العباسية.

فأنت ترى أنه في عهد عمر بن الخطاب تم استلهام خبرة وتجربة حضارية فارسية في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية. ولكن المسلمين الناشرين للإسلام في فارس كانوا حذرين كل الحذر وشديدى الرفض والمقاومة لكل ما هو «خصوصية حضارية» فارسية، تتعارض مع معايير الإسلام، وجوهر معتقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة.

لقد رفضت الخلافة الإسلامية - وهي نمط متميز في الحكم - ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم وفلسفته السياسية التي كانت ترى رأس الدولة « كسرى» ابنًا للإله «أهورا - مزدا» يحكم باسمه، ونيابة عنه زاعمًا أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين.

---

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي، ص ٢٢١.

كذلك رفضت الحضارة الإسلامية ميراث الفرس في النظام الطبقي المغلق لتعارضه الجذري مع فلسفة الإسلام في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات. والذين يقرءون مصنفات علماء الإسلام في الملل والنحل، وصراعهم الفكري مع الفرق والمذهب غير الإسلامية يدركون المقاومة الباسلة التي ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم(١). فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العملية، ولعلوم التمدن العملي كان الحذر بل المقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة للمعايير الإسلامية، إنْ في السياسية أو في الاجتماع أو في الدين.

٢- لقاء الإسلام بحضارة الشام. مصر وبلاد الشمال الإفريقي:

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الشعوب التي كانت تنتظر الإسلام. ونشأت الحضارة الإسلامية في كنف القرآن الكريم، والسنة النبوية. وكانت الأمم الداخلة في الإسلام ذات حضارات مزدهرة، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج وتفاعل ولقاء، وبدت أعظم مظاهر هذا المزج في النظم الاجتماعية، والآراء العقلية.

واشترك الدعاة إلى الإسلام مع أهل البلاد التي فتحت صدرها للإسلام في الحركة الاجتماعية والاقتصادية. وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة، وتأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية الاجتماعية، والطبائع العقلية.

وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية؛ ولهذا أسهمت في نشأة الحضارة الإسلامية. وحضارة مصر والشام والشمال الإفريقي - كانت ذات ميراث بيزنطي - استفادت منها حضارة الإسلام في (تدوين الدواوين) وهو خبرة إدارية بيزنطية.

ويخبرنا التاريخ أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية سعى إلى مدرسة الإسكندرية؛ ليتعرف على ما فيها من تراث، وقد كتب إلى أبيه يزيد بن معاوية يبشره بنجاح سعيه وبلوغ ما أراد، فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه في هذا الشأن يقول فيها:

---

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص٢٠٨.

أيـا راكبًـا نحـو الشـآم عشـية ... يـؤمُّ دمشـقًا قـفْ فحمـل كتابيـا
وبلـغ يزيـدًا حـين يتلو رسـالتي ... وقـل خالد قد نـال مـا كان راجيا
ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة ... وحزتهـما مـن بعـد طـول عنائيـا

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة. وكانت صناعة الكيمياء آنذاك قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلى الفضة والذهب(١).

وبهذا بدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية، وفنون التمدن العملي والتي سميت بعلوم الصنعة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع حضارتي مصر والشام، وتبنت ما في هذه المجتمعات من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية، فإنها في الوقت نفسه حاربت الغنوصية والهلينية في الفلسفة، وعارضت عقائد ومذاهب المسيحية التي أخرجتها الروح الهلينية عن نقاء عقيدة التوحيد.

٣- لقاء الإسلام بالحضارة الهندية:

الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب مختلفة الأجناس، والمذاهب الدينية، والفكرية، والاجتماعية. وجهود الهند في التعليم قديمة جدًّا، وأكثر نتاج الهند الفكري كتب باللغة السنسكريتية وهي معروفة الأصول؛ مما ساعد على معرفة جميع نواحى الثقافة الهندية.

والباحث في الحضارة الهندية سوف يجد أن الهنود أسهموا في جميع العلوم القديمة، وأشهر علوم الهند:

- الفلك والرياضيات. وأقدم الرسائل الفلكية هي كتاب (السدهانتا) حوالى ٤٢٥م، ثم أبحاث (أريابهاتا) أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذي علل الكسوف والخسوف في حركة الأرض حول الشمس. أي قال بدوران الأرض حول الشمس، وشرح كروية الأرض في دورتها الحيوية حول محورها، كما عرف هذا الرياضي النظام العشري.

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ ص٨١.

- الفيزياء والكيمياء: وجدت في الهند مذاهب فيزيائية مختلفة. وقال بعضهم: إن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد، وإن الشمس مصدر الحرارة للعالم. وفسر آخر: الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الأشياء وتطرق العين. أما الكيمياء فقد تقدمت مع تقدم الطب الهندي والصناعة الهندية. وكان الرومان ينظرون إلى الهند كأمهر أمة في الصناعات الكيميائية مثل الصباغة، الدباغة، والصابون، والزجاج، ونوع من الأسمنت.

- الطب: وأشهر ما اشتهر به الهنود الطب. وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد، يعرفون الأوعية الدموية، والأنسجة الدهنية، والضفائر العصبية، والجهاز اللمفوي، وأنواع العضلات وحركاتها، ويعرفون تجبير العظام، ويفهمون عملية الهضم، وتطور الجنين، ويشرعون في ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج[١].

ولا شك أن تفاعلًا حضاريًا في مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره في محيط الحضارة الإسلامية من واقع تأثيرات التمازج والمخالطة. فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتاب (السدهانتا) السند هند[٢].

وفي أيام ابي جعفر المنصور قدم كثير من علماء الهند، وكان معهم (السدهانتا) السند هند باللغة السنسكريتية. وقد كلف أبو جعفر العلامة أبا إسحاق بن حبيب الفزاري بتعريبه ففعل، وقام الخوارزمي بتصحيحه ومراجعته[٣]. وقد استفاد المسلمون من الأرقام عند الهنود فهذبوها وكونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية[٤].

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضارة الهندية أخذ ما يتناسب معه، وترك ما لا يتفق مع مبادئ الإسلام مما هو خصوصية حضارية؛ فالبيروني (٣٢٦ - ٤٤٠هـ - ٩٧٣- ١٠٤٨م) الذي نهض بمهام وأعباء البعثة العلمية عندما عاش بالهند أربعين عامًا عقب الفتح الغزنوي لبعض أقاليمها.

---

(١) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ط. دار الفكر ١٣٩٣هـ، ص٥١١، ٥١٢

(٢) الدكتور مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ط. دار العلم للملايين، بيروت، ص ١٣٠.

(٣) فيليب طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، جـ١، ط. بيروت، ص٥٠.

(٤) أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ، دار اللواء بالرياض١٤٠١ هـ ص ٩٤.

والذي درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقري المتفرد: البيروني هذا يعلمنا أن أسلافنا ميزوا بين العلوم الطبيعية، والعلمية، والتجريبية التي أخذوها وطوروها وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التي رفضوها؛ لتعارضها مع التوحيد الإسلامي ومع إلهية المصدر الديني في الإسلام[١].

٤- لقاء الإسلام بالحضارة اليونانية:

يكاد يكون معروفًا أنه ليس في الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب مثل الحضارة اليونانية، لأن هذه الحضارة جمعت آثار الحضارات البابلية، والمصرية، والفينيقية، والفارسية، ثم أضافت إليها آثارًا فنية رائعة، ومذاهب فكرية مبتكرة، ومبادئ خلقية سامية يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره. ولا شك أن للعوامل التاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية تأثيرًا في تكون الحضارات ولكن هذه الأسباب لا تكفى لتفسير ما تميزت به حضارة اليونان من قوة الإبداع، والابتكار. لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة، ومحصوها أعمق تمحيص، فحذفوا منها ما حذفوا، واستبقوا منها ما استبقوا، ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب، وإنما هي حضارة متميزة أطلقت حرية العقل، وجاوزت حدود الزمان والمكان[٢].

ويذكر العلماء أن الحضارة اليونانية عرفت باسم الحضارة الهلينية نسبة إلى (هلين) الجد الأكبر الخرافي للشعب اليوناني. وقد انتشرت هذه الحضارة الهلينية مع امتداد نفوذ الإغريق التجاري الاستعماري، ولما فتح الإسكندر المقدوني الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق، فنشأت حضارة مزيجة عرفت بالهلينية، وأخصبت عدة مراكز في الشرق[٣].

ولما جاء الإسلام وجد في هذه المراكز حضارة يونانية، في الإسكندرية، وفي أنطاكية وغيرهما. وكان لا بد لهذه الحضارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود عنوانًا على حضارة هذه الأمة الآرية التي علمت الإنسانية الكثير من أنماط الفكر وسياقاته، ولكن

---

(١) البيروني: تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة، ص ٨٠، بتصرف.
(٢) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية. دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٨٦م، ص ٥٤.
(٣) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص٥٠.

كان لها النسق الخاص بها، والخاص بها وحدها المتصل ببيئة المجتمع اليوناني، ولذلك حين وضع الإسلام فلسفته المعبرة عن حضارته كان لا بد من اختلاف عنيف، ومن جدل قاس وتعارض في المنهج، وفي المادة بينه وبين الفلسفة اليونانية[١].

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية آخذين إياها من مصادرها الشرقية في البلاد التي فتحوها؛ فترجموا تراث اليونان في الطب، والكيمياء، والهندسة، والرياضيات، والميكانيكا «الحيل»، الزراعة، والمناظر، والحساب، والمنطق، وغيرها من العلوم الطبيعية والعلمية، والتجريبية. ولكن المسلمين زهدوا، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية؛ لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة وكيف كان يصارع بعضها بعضًا، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر. فهناك ميادين في المعتقدات، والإنسانيات اليونانية قد نفر منها المسلمون، فضربوا عنها صفحًا ولم يترجموها، ولا حتى للمختصين من العلماء، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها، وآداب اليونان وفنونها[٢].

إذن أفاد المسلمون من الحضارة اليونانية في حدود «قانون التفاعل الحضاري» الذي يميز دائمًا وأبدًا بين ما هو «خصوصية حضارية» وبين ما هو «مشترك إنساني عام».

المثال الأخر: لقاء الحضارة العربية بالحضارة الإسلامية:

والباحث في انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية يجد أن هذا الانفتاح قد تحقق من خلال:

١-نقل التراث الإسلامي في صقلية.

ولا يخفى أن المسلمين قضوا في حكم جزيرة صقلية قرابة ثلاثة قرون، وخلال ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهارًا شد انتباه غير المسلمين، فلما استولى الأوربيون على جزيرة صقلية استفادوا من الحضارة الإسلامية، واستطاعوا أن ينقلوا إلى لغاتهم تراث

(١) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ١، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م، ص١٠٢.
(٢) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢١٢.

المسلمين الحضاري المزدهر في جزيرة صقلية؛ مما كان له أثر واضح في النهضة الأوربية الحديثة.

٢- نقل التراث الإسلامي في بلاد الأندلس:

إن المسلمين استطاعوا في قوة أن يقيموا حضارة الإسلام في بلاد الحضارة والعلم؛ مما جعل علماء أوربا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على أيدي علمائها، ويترجموا تراثها من العربية إلى اللاتينية.

لقد كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثاني مركزًا رائعًا للجمال المادي والنشاط الفكري، ونما ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث وكان شديد العناية بالعلوم والآداب، وتزايدت هذه النهضة في عهد ابن الحكم الثاني الذي كان إلى جانب علمه يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم الإسلامي لابتياع الكتب أو استنساخها. ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب.

وإذا كانت قرطبة وغرناطة وغيرهما من مدن حضارية قد سقطت في أيدي غير المسلمين فإن العلوم والآداب الإسلامية والحضارية واصلت ازدهارها في ظل النقل والترجمة والإبداع.

٣- نقل التراث الإسلامي أثناء الحروب الطبيعية:

كانت الحروب الصليبية صراعًا بين الكنيسة والشرق الإسلامي، وهدف هذه الحروب تخليص الأراضي المقدسة من المسلمين، وقد استمرت قرنين من الزمان. ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحروب هي العامل الوحيد في تقدم أوربا حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية، ويرى بعض العلماء أن الشرق الإسلامي قد أثر في الغرب المسيحي إبان الحروب الصليبية من أربع نواح هي:

١- في الكنيسة البابوية؛ إذ قامت في بيت المقدس عام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلًا من «الثيوقراطية» الدينية التي كان يحلم بها البابا.

٢- كما أثرت الحروب في الحياة الداخلية والاقتصادية في جميع الممالك؛ إذ نشأ نوع جديد من الضرائب على ممتلكات الأشخاص، كما ساعدت تلك الحروب على الإقلال من أراضي الأشراف.

٣- كما أثرت الحروب في العلاقة الخارجية للدول ونظام أوربا بتأثيرها في الكنيسة من ناحية، وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية.

٤- كما أثرت تلك الحروب في العلاقات القائمة بين أوربا وآسيا. فنهضت حركة الارتياد والرغبة في الاستزادة من المعلومات[١].

لقد اختلط الأوربيون بمن هم أرقى منهم؛ فاستفادوا من الحضارة الإسلامية فساعد هذا على قيام النهضة الأوربية الحديثة.

إن أوربا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية، وتأخذ عنها، وتستفيد منها فيما هو «مشترك إنساني عام» أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية فقد رفضه الغرب.

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية: علوم المادة وظواهرها، وخصائصها، وعلوم التمدن المدني والعلمي مثل علوم الطب، والصيدلة، وقواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة والنباتات، والحيوان، وفنون وعلوم الحرف والصناعات، والتجارة والمواصلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعها والمعادن، والبصريات، والمناظر، والكيمياء والفلك، والرياضيات من جبر وهندسة وحساب، والجغرافيا، والرحلات، وعلوم البحار، والملاحة وغير ذلك من علوم وفنون[٢].

لقد أخذ الغرب ما سبق أن أخذناه نحن عن أسلافهم اليونان، وغيرهم من الفرس والهنود وما أخذناه من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة؛ مضافًا إليه إبداع المسلمين.

لقد أخذ الغرب من الحضارة الإسلامية ما هو «مشترك إنساني عام»، وترك من الحضارة الإسلامية ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

«لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية، وهي خصيصة «التوحيد» وخصيصة «الوسيطة» وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام،

(١) الدكتور توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ص١٦٧، ١٦٨، بتصرف.
(٢) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٨.

وعقائده. ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية هو الذي ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل: الطابع المادي.

- فالحضارة الإسلامية قامت بعملية «توفيق» ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.
- والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة في خصوصية حضارية فكانت العلمانية.
- الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع في ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد في «ليبرالية» واضحة.
- الحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها، والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها، أما الحضارة الغربية فكان اهتمامها قائمًا على اللذة والشهوة واللحظة، وكانت سياسة الحضارة الغربية تعني «بالميكيافيلية» (فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق).
- الحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها في حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء[1].

إذن وبكل تأكيد هناك ما هو «مشترك إنساني عام» تأخذه الحضارات من بعضها، وتسهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد الذي يزيده قوة وفائدة.

وهناك ما هو خصوصية حضارية لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ ونجد ذلك واضحًا في أعمال أوربا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

---

(١) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٩-٢٥٠، بتصرف.

المبحث الرابع

مدخل التطور التاريخي للعلاقة بين الإسلام والغرب

الموجه الأولى (مرحلة ما قبل الحروب الصليبية ٦٣٠م، ١٠٩٥م):

لما كانت المدينة المنورة مقامًا لخليط من الملل والأعراق والعصبيات؛ اتجه النبي ﷺ إلى وضع دستور تتحدد في ضوئه معالم الوحدة الاجتماعية، وتصورات التعايش الحضاري مع أصحاب الرسالات وأهل الذمم والعهود.. قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار، واعد فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم.. أن اليهود يقفون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى رسول الله ﷺ»(١).

إن ظروف وملابسات الاحتكاك الحضاري بين المجتمعات الإنسانية: كانت مرتبطة دائمًا بمدى درجة الوعي الحضاري لدى هذه المجتمعات. ولعله كلما التصق هذا الوعي بالقيم الدينية في صورتها الأولى النقية؛ قلت أو انعدمت أسباب الاحتكاك أو التصادم. وبإسقاط هذا المعيار على تلك الحقبة التاريخية: نجد أن الاحتكاك بين الغرب المسيحي والإسلام لم يكن منذ بواكيره مسلحًا كما زعم هانتنحون - اللهم إلا اعتباره المواجهة الإسلامية بيهود في المدينة - كأحد الشواهد للتصادم المبكر مع الإسلام - مع بني قينقاع في شوال من السنة الثانية من الهجرة، على إثر نقضهم العهود وإخلالهم بميثاق التعايش السلمي مع المسلمين وتحرشهم اللازم بالمسلمين والوشاية بهم في عموم الجزيرة العربية؛ فضلًا عن كون حركة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: عمر تدمري، دار الريان، مصر، ١٤٠٧ هـ، (٢/ ١٤٤-١٤٦).

النفاق خرجت أصلًا من تحت عباءة يهود.!! و يأتي هذا الاعتقاد في سياق صهره اليهود في بوتقة الحضارة الغربية. و إن كنا نقرر من جانبنًا: أن علاقة الغرب بالإسلام أخذت طابع التحرش والعنفوان فيما تأخر من سني تلك الموجه، كمقدمة لما تلاها من صراع بلغ أشده وذروة عنفوانه واتساع بقاعه بعد ذلك.

وعلى أي حال: فقد سجل الإسلام حضورًا إيجابيًا أينما حل وارتحل؛ فقد عرض دعوته على المجتمعات المتاخمة، وقد لاقت تلك الدعوة قبولًا عامًّا وارتياحًا من جانب تلك المجتمعات، فقد حققت لهم مزايا نفسية وروحية واجتماعية وسياسية واقتصادية.. ما كان لها من وجود في حمأة الظلم والمعاناة، والتعسف والاضطهاد من جانب الفرس أو الرومان على السواء. فلقد كان الفرس والرومان بالنسبة للشعوب التي اتجهت إليها ناحية الفتوحات الإسلامية بمثابة استعمار وعلامة قهر وتخلف وضياع؛ فكان الإسلام ضمادًا لجراح بشرية مثخنة وغائرة، وبعثًا لموات آمل البشرية في عيش هانئ رغيد.

وعلى الجانب التاريخي فقد وضعت الدولة الإسلامية حدًّا للضياع الذاتي الكامن في داخلة النفس الإنسانية، والتي لم يتحقق لها - على امتداد عمرها الزمني - أي خصوصية أو هوية واضحة المعالم[١].

فلقد استغرقت حركة الفتح الإسلامي ثمانين عامًا لتلك البلاد التي احتلها الرومان فمثلًا في ثمانية قرون. ! أو لعل هذا الاختزال الزمنى الهائل يكشف عن فلسفة الفتح الإسلامي ذاتها: إذ اعتمد الإسلام لوهلته الأولى، وفي سياق امتداده الحضاري عمومًا: مبدأ الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كأحد مقومات الحركة الراشدة، فلقد حمل الإسلام على أجنحته قيم الرحمة والبر والتسامح.. ومن ثم انطلقت الحركة الإسلامية تزيح كابوس القهر الخانق، وتبدد ظلام الاستبداد المطبق، وراحت تفك أواصر انعقدت بأغلال العرق واللون والطبقية النكراء.. «ويجادل كثير من الكتاب الغربيين - في لجاج مفهوم - بأن هذه الدولة كانت إمبراطورية استعمارية لم تخرج عن أن تكون غزوًا وإخضاعًا وتبعية، والحقيقة أن الدولة الإسلامية كانت تحريرية بكل معنى الكلمة، كما قد نقول،

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ١١٩.

فهي التي حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الروماني أو الفارسي المتداعي واضطهاده الوثني وابتزازه المادي»[١].

إن أحد البحاثة الغربيين - مونتجمرى وات Watt يصف الفتح الإسلامي لأسبانيا بأنه «حدث مفاجئ هابط من السماء بالنسبة للأسبان».!

ومن جهة أخرى: فقد أدى امتداد الفتح الإسلامي إلى أطراف غرب أوربا، وشمال البحر المتوسط، والى أفريقيا والأندلس غربًا، والى معظم قطاعات أوربا الشرقية وآسيا الوسطى شرقًا إبان تلك الموجة؛ أدى ذلك بدوره إلى ميلاد أفكار مشوهة وانفعالية عن الإسلام لدى بعض من أولئك الذين استعصوا على التجاوب مع حركة الفتح الإسلامي ونظروا إليها بشيء من الريبة والتوجس وسوء الظن؛ مما خلق جوًّا ملبدًا بالعداء، لاسيما هنالك عند الحدود الغربية التي أمست مثارًا للتصادم وسفك الدماء.!

يقول المفكر الفرنسي روجيه جارودي معلقًا على موقعة بلاط الشهداء-بواتية (١١٤هـ، ٧٣٢م): «لم تكن هناك معركة في بواتية لأنه لم يكن هناك غزو إسلامي عسكري، بل كان هناك رسل حضارة، ولكن للأسف حالت البربرية الفرنسية دون أن يستفيد الشعب الفرنسي من الحضارة الإسلامية كما استفادت منها إسبانيا لعدة قرون ... إن إسبانيا استطاعت بفضل ما اكتسبته من الحضارة الإسلامية: أن تبني أسطولها الذي اكتشفت به أمريكا»[٢].

والحقيقة أن أوربا لم تشعر على امتداد تاريخها الطويل بأي تحديات حضارية تقريبًا سوى من جانب الإسلام خلال أربعة عهود بالتحديد؛ بيد أنه لم يكن ثمة ما يحمل على خصومة الإسلام - كرسالة سماوية - لم يتح أي فرصة للتلاقي والتفاهم والحوار، ولكن مع ذلك فإن الغرب ظل جاهلًا بالإسلام لجهله وتخلفه كمجتمع وحضارة.

هذا ولم تشأ الأقدار لتلك الموجة أن تقلع برحالها دون أن تترك لأجيال الغرب إرثًا هائلًا من الحساسية المفرطة والحقد الملتهب تجاه الإسلام؛ ولقد أخذت تلك الأجيال على مسئوليتها طرق البوابات الغربية على حدود الإسلام بقوة واستفزاز..!

(١) جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال، مصر، ١٩٦٨، ص ٣٠.
(٢) ر. جارودي: من أجل حوار بين الحضارات، تعريب: ذوقان قرقوط، دار النفائس، بيروت١٩٩٠، ص١٦٥.

لقد كان أحد أهم أسباب هذه الحساسية: ذلك الحرج الذي سببه الإسلام لدى قوى الظلام الديني والسياسي في أوربا. إنها ردة فعل الهزيمة والإحباط اللذين حلا بكافة مؤسساتها؛ حيث تحولت ردة الفعل تلك في مرحلة ما من التاريخ الأوربي إلى حشد الجهود استعدادًا لما سموه هنالك بالخلاص: خلاص إسبانيا، ومحاكم التفتيش وحروب صليبية...!!.

الموجة الثانية: (وتمتد من ١٠٩٥م غداة الحروب الصليبية وحتى نهاية القرن الثالث عشر).

ولقد جاءت تلك الموجه بعد اتساع ملك الدولة المسلمة وتبحر سلطانها وترامى أطرافها ... ورغم هذا فقد بدت الخلافة الإسلامية واهنة نسبيًّا، غير ذي طول حكيم ومكن عميم؟ من ذلك الامتداد الجغرافى الهائل؛ الأمر الذي أغرى بكثير من الأمراء إلى التنافس المحموم على الملك والتفرد والاستقلال؛ فسادت روح الفرقة والتنافر والانقسامات ... وكان مما يقوله أبو المظفر الأبيوردي بين يدي نذر هذا الضعف والارتخاء:

أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفًا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم[1]

ولقد أيقظت حركة الفتوحات الإسلامية - على الجانب الآخر - شعورًا سلبيًّا لدى الغربيين بمدى التفاوت الحضاري بينهم وبين المسلمين؛ مما أوجد نوعًا من التحفز والتحضير لتعبئة العقلية الغربية المختلفة بحتمية الزحف نحو الشرق المسلم.

ومع بداية العقد السابع من القرن الحادى عشر: كانت مقاليد الأمور في الغرب لا تزال تمامًا بقبضة الكنيسة الكاثوليكية، وتحقق للبابا أوربان الثاني السواد المطلق بعدما أذعنت له أوربا بأطرافها.

ولقد عبر أوربان نفسه عن سمات تلك المرحلة، داعيًا إلى نبذ الفرقة والتنافر، والاتجاه قبل الإسلام ثأرًا لمسيحيتهم، بقوله: «لقد آن الزمان الذي تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر، فالحرب المقدسة المتعمدة الآن ليست

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٢/١٦٨.

هي لأخذ الثأر من إهانات ضد البشر، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط، بل هي أقاليم آسيا بجملتها[١].

ولقد خلط دعوته هذه - وهو يشق طريقه نحو العالم الإسلامي - بآثار من العهد الجديد: «ومن لا يحمل صليبه و يأتي ورائى فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا»[٢].

فلقد تأسس الفكر الحربي للحملات الصليبية كلها على مبادئ وأفكار حملتها الأولى، والتي كانت بمثابة روح جديد سرى في عروق الغربيين تمخضت عن دفقة حقد ديني جامحة لم تتحد إلا بقدر الله.!

وهنا تتعين الإشارة إلى أن جحافل الصليبين لم تكن من أوساط الفرسان الرسميين وحسب بل كان للحركة الشعبية - التي وضع بذرتها الأولى «بطرس» الناسك - دور هائل في تلك الحروب حيث خرجت حشود الفقراء عن بكرتهم نحو الشرق المسلم وبداخلهم رغبة تغلي بخلاص الروح وطرد المسلمين الكفار من أرض المسيح، وإن كانت تلك الرغبة قد اختلط بها شيء من أمل الخلاص من الفقر المرير؛ كأمل تلوح بشائره في آفاق عالمنا الإسلامي، الكافر والغنى.. !!.

بل لقد كان المنطق السائد في ذلك الزمن البئيس بشأن معاملة المسلمين: «أن المسيحي الذي يبيد أعداء دينه لا يخرج بذلك عن نطاق الإيمان، لأنه بفعله هذا إنما ينحر القرابين إرضاء للرب[٣]. وكان هناك سبعون ألفًا من الضحايا المسلمين بعد غارة صليبية واحدة - على القدس - جاست خيول الغادرين حتى لجامها في دمائهم بين أطلال الخراب.

وبغض النظر عما يثار حول عقائدية الحروب الصليبية من شكوك ... يمكننا أن نقرر بأنها اكتسبت زخمها واستكملت عنفوانها، بل واستلهمت توجهاتها من وحي الدين! ولقد استنهض قادتها همم شعوبهم ذات مرة ـ الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩م ـ بتصوير تمثال للمسيح وهو ذبيح بسكين محمد ...!! فهب القوم عن بكرتهم هبة حمقاء أخمدها صلاح الدين وردها خائبة.!

---

(١) علي عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، دار عكاظ، السعودي، ١٩٨٢، ط٢، ص ٢٧.
(٢) إنجيل لوقا: ١٤ /٢٧.
(٣) عبد الفتاح عبد المقصود: صليبية إلى الأبد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص ٤٤.

ولعل من أوجه الحقيقة الناصعة للحروب الصليبية: أن تلك الحروب لم تسفر عن ظاهرة الشعور بالذات الحضارية وحسب لدى الجانبين كليهما، بل دعمت هذا الشعور وأججت ناره إلى درجة لم يعد معها من رغبة لدى الطرفين إلا دحر الآخر وإزاحته، لا سيما وأن العدوان الصليبي قد اتسعت جبهاته لتتجاوز الشام إلى مصر وشمال إفريقيا، فضلًا عن الأندلس[1].

«ولقد كانت الصليبيات درسًا حضاريًا قبل كل شيء لأوروبا. فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف، وستنعطف أوربا على نفسها لتعكف على تطوير وتنمية ما تعلمته من الشرق حتى تخرج به في النهايات أرقى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد ... كذلك فقد كانت الصليبيات أول ما وحد أوروبا ومنحها شعورًا بالقومية[2].

وكانت تلك الحروب الثمانية بالنسبة للغرب، تتويجا لحماس ديني أهوج تحكمه المطامع والأهواء، والجهل والتعصب.. أكثر مما تحكمه نداءات العقل ومنطق التأمل فيما أمد الإسلام به الغرب ـ الكنود ـ من مقومات التنوير، وبواعث النهضة والفلاح... !!

يقول الكاتب الأمريكي مايكل هارت: HARTT معروف لنا جميعا خطورة الحروب الصليبية، وما تركته من أثر في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وما تركته في نفوس الغزاة والشعوب التي شاركت في القتال والدفاع والنصر والهزيمة، وكيف أن هذه الحروب قد قربت بين الشرق والغرب، وكيف أن الغرب اكتشف أن الحضارة الشرقية الإسلامية أكثر تقدما من الحضارة الغربية وأن هذا الاتصال بين الشرق والغرب: هو الذي مهّد لعصر النهضة الأوربية[3].

ويقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي معلقا على الطريقة التي رد بها الغربيون الجميل إلى المسلمين بقوله: «إن حمّام الدم علّم المسلمين أن يكرهوا الغرب كما لم يكرهوه من

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص١٢٤.
(٢) جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، مرجع سابق، ص ٤١.
(٣) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ت: أنيس منصور، دار الكتاب المصري اللبناني، مصر، ١٤٠٦، ص ٢٠٦.

قبل.. باختصار نجد أن الحضارة الإسلامية التي دمرها الصليبيون في بيت المقدس، كانت أرقى وأجنح للسلم من غزاتها». ولقد حكى أحد المسيحيين معلقًا على مشاعر المسلمين تجاه خصومهم بقوله: «إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وأخوتهم وبناتهم وأخواتهم، وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على أراضيهم والذين سقناهم عرايا من بيوتهم، أعطونا من طعامهم، وأبقوا على حياتنا عندما كنا نتضور جوعًا، وغمرونا بعطفهم حتى ونحن تحت رحمتهم»[١].

الموجة الثالثة (بدايات القرن الرابع عشر: نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م):

لم يعد خافيا على كل متحسس أبعاد العلاقة التاريخية بين الغرب والإسلام. إن هذه العلاقة خضعت بطبيعتها لمؤثرات الوعي الديني على صعيدي المجتمع والدولة لدى الطرفين كليهما، بغض النظر عن مدى التباين في مؤشرات هذا الوعي، بيد أن حقبة الحروب الصليبية بأحداثها المروعة قد كشفت بوضوح عن زيف ذلك الوعي الغربي بالآخر الإسلامي إلى الدرجة التي جعلت المسلمين بالكفار سواء، فكانت بمثابة إرث كريه أليم، لم يقدر للأجيال التالية أن تتعافى من تفيؤ عواقبه الوخيمة، فلقد ورث الشرق المسلم، والغرب المسيحي كلاهما شعورًا دفاقًا بالعداء والترقب تجاه الآخر، بيد أن الغرب على وجه الحقيقة: لم يكن لديه شيء من البراهين النظرية والعميلة يومئذ على سلامة موقفه هذا من الإسلام وأهله.

ولقد كان لفشل الصليبيات النسبي مردود سلبي على وحدة الغرب وتماسكه، لكن هذا التفكك لم يحل دون اتجاه مفرداته إلى البناء الذاتي والتحضير لعصر نهضة تلوح بشائره في ضوء ثمرة الاحتكاك الحضاري بالمسلمين ونقل علومهم وسائر فنونهم ونظرياتهم في مختلف جوانب الحياة».

وفي حين كانت الصدمة الصليبية مناط عظة بليغة ومبعث صيحة بوجوب الوحدة والنهوض والاستواء لدى الجانب الغربي، كانت هناك على الجانب الإسلامي قوى جديدة

(١) كافين رايلي، الغرب والعالم، ت: عبد الوهاب المسيري وآخر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٥ هـ، ص ١٩٨/١.

تفرض نفسها على مسرح الأحداث باعتبارها قدر الأمة في الخلاص من حالة الضعف والوهن والارتباط الذي حل بها بعد حقبة الصليبيات المنهكة، فلعل أبرز ما أسفرت عنه فعاليات تلك الموجة: الظاهرة العثمانية، كتعبير قوى عن حركة إسلامية أكثر حيوية وتجددًا، حيث اتجهت حركة الفتح الإسلامي غربًا نحو أوروبا، ففتحوا تراقيا الغربية: ١٣٧٤م، وصربيا: ١٩٣٢م، والقسطنطينية ١٤٥٣م، والهرسك: ١٤٨٣م، والجبل الأسود: ١٤٩٦، وبلغراد: ١٥٢١م، ورودس: ١٥٢٢م، وقبرص: ١٥٧٢م، وغيرها.

يقول محمد أسد: «وبسقوط القسطنطينية: فتح باب أوروبا على مصراعيه للسيل الإسلامي، وبالرغم من أن العثمانيين كانوا يستقبلون كمحررين أكثر من كونهم غزاة غاصبين. بيد أن تلك الفتوحات ـ رغم تسامحها الشديد ـ لم يعد ينظر إليها من جانب الغربيين لاسيما في إنجلترا وفرنسا وحتى أسبانيا: على أنها طوق النجاة، إذ لم تقابل بالرفض المجرد وحسب، بل تمثل ذلك الرفض وضعًا إيجابيًا؛ حين اتخذ في سبيل التصدي للعثمانيين اتجاهين خطرين:

أحدهما: التصادم المباشر والآخر: قوافل الاختراق الحضاري الموصومة بالكشوف الجغرافية مما يعكس تصادمًا ذات آليات جديدة..»[1].

وباختصار شديد، فإن الروح الصليبية لم ينخمد لهيب سعارها المتأجج في صدور النخبة من الأوروبيين، فضلًا عن العامة، على امتداد الزمان الغربي الوسيط والحديث والمعاصر، ففي عام ١٤٥٤: وضع البابا نيقولا الخامس Nicholas الأكثر تحررا من أفكار العصور الوسطى، وأشد انفتاحًا على عصر النهضة ـ خطة ملك البرتغال تضمنت إعداد حملة صليبية كاثوليكية تشنها أوروبا ضد الإسلام للقضاء عليه نهائيا، وهي ما عرفت بخطة الهند، ومؤداها تحويل حملة صليبية لتطويق الإسلام في أفريقيا والهند وسحقهم من الخلف.

وقبل أن تخطو حركة الكشوف الجغرافية والأوروبية خطواتها الأولى: شن الملوك الكاثوليك ضد المسلمين في شبه جزيرة أيبريا ـ الأندلس ـ ضد المسلمين حربا ضروسا

(١) بول كولز: العثمانيون في أوروبا، ت عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص١١٩.

استمرت عشر سنوات، استسلمت بعدها غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس ١٤٩٢، واتجه الأسبان بقوة إلى: «إجبار السكان المسلمين على التحول للمسيحية بطريقة فيها مهانة شديدة»(١). ونصبت فيما نصبت محاكم التفتيش الأليمة عقب الإعلان عن سقوط الخلافة الإسلامية هنالك،!! وازداد في إثر ذلك سكان مملكة قشتالة حوالى أربعمائة ألف مسلم، تم تحويلهم رسميًا إلى النصرانية، وهم من عرفوا بالموريسيكيين في التاريخ.

الكشوف الجغرافية.. وحركة التجديد في الفكر الصليبي:

وعلى حين كانت الأوضاع تتردى في الأندلس على هذا النحو المخيف، كانت أسراب الكشافين البرتغاليين وغيرهم تتسلل عبر البوابات الخلفية لحدود المسلمين الحضارية، فحين تأكد لأهالي مدينة قاليقوط الهندية رؤية السفن البرتغالية وهي تبحر باتجاه ميناء المدينة في العشرين من آيار مايو ١٤٩٨م، بادر حاكم المدينة سائلا قائد الحملة ـ الكاردينال فاسكوداجاما ـ عن علة مجيئهم للبلاد، فأجابه قائلا: «المسيحية والبهارات».

وبينما كانت الدويلات الإيطالية وفرنسا وإنجلترا وغيرها، قد أوشكت أن تبلغ درجة التشبع بأفكار العلمانية مع تباشير عصر النهضة، كانت أسبانيا والبرتغال تبدوان أشد تعصبا للكاثوليكية من باباوات روما أنفسهم، وهو ما انتقل بمسؤولية إحياء روح الحروب الصليبية على كاهل أقصى الغرب من أوروبا، فلقد تميز ملوك شبه الجزيرة الأيبيرية بالإسراف في تعصبهم للكاثوليكية، ووضعوا موارد بلادهم في العالم الجديد الذي اكتشفوه في خدمة الكنيسة لضرب كل من حركة الإصلاح الديني البروتستانتية، فضلًا عن الهدف الأساسي: وهو إزالة أي أثر للوجود الإسلامي فيما يدخلونه من بلاد.

وعندما سنحت للأمير البرتغالي هنري الملاح Henri Le Navigateur ١٣٩٤ - ١٩٦٠ فكرة احتلال شواطئ مراكش الأطلنطية، ومن ثم الاتجاه نحو السنغال وغانا، وتطويق المسلمين، وطعنهم من الخلف بمساعدة ملك الحبشة، حينئذ أصدر البابا نيقولا الخامس مرسوما بابويا، استهله بقوله: «إن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز، هنري، أمير

(١) المرجع السابق ص ١٣٠، ١٣٣.

البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جون، وبوصفه جنديًا قديرًا من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة..» ا. هـ.

ولقد كان كرستوفر يزعم أنه مبعوث القوة الإلهية لنشر المسيحية في الأراضي الجديدة، ثم قام مسيحو شبه جزيرة أيبريا بمطاردة المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة، ثم انتقل نشاط الأسبان إلى شمال وغرب إفريقيا لتعقب المسلمين، ثم راودتهما الأفكار في محاصرة المسلمين عن طريق البحر وطعنهم من الخلف وسحقهم في آسيا و إفريقيا.

وكان يدفع الأسبان في ذلك امتزاج الروح الصليبية بالعاطفة الوطنية، ونظر البرتغاليون إلى حركة الكشوف الجغرافية على أنه يجب عن طريقها تحويل المسلمين في غرب أفريقيا، وفي غيرها من المناطق، إلى المسيحية الكاثوليكية، وأنه يجب نشر المسيحية فيما وراء البحار وفق المذهب الكاثوليكي، بل وصلت بهم الآمال إلى حد تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، وفصلها عن الكنيسة الأرثوذكسية في مصر.

ولقد باركت البابوية حركة الكشوف الجغرافية؛ فأصدرت عدة مراسيم خولت بموجبها لملوك أسبانيا والبرتغال حق ملكية كل إقليم جديد يتم اكتشافه.

وقد بلغ حد التعصب الرهيب ببعض البابوات مداه: فوصفوا الإسلام في مراسيمهم بأنه طاعون!.. وطالبوا المكتشفين بتنصير سكان المناطق التي اكتُشفت، ووصل تشجيع البابوات لحركة الكشف الجغرافي ليزداد الإقبال عليها بغية نشر المسيحية، بأن أصدروا مرسومًا ينص على العفو عند الحساب في اليوم الآخر والفوز بالجنة والنجاة من النار، وأمروا الملاحين برسم الصلبان على أشرعة السفن، وحمل دعاة المسيحية معهم الصلبان كما يحملون الزاد والماء.

وفي إحدى المضابط التاريخية: نجد مسطورًا بيد أحد الكشافين البرتغال الذي كاتب قادته يوما بقوله: «لقد حوصر محمد ـ يقصد الإسلام في شخص النبي ﷺ ـ ولا يمكنه أن يتقدم أو ينساب أكثر مما فعل، والحقيقة أنه سيحطم ويحطم ولا خيار له سوى ذلك»[1].

(١) المرجع السابق: ص ٢٠٦.

ومن يوم أن بدت شمس القرن السابع عشر تميل عن كبد سمائه، وميل منحنى الحضارة الإسلامية أخذ في الهبوط مرة أخرى، في حين بدت معالم التفوق الغربي المادي تتضح شيئا فشيئا، لاسيما بعد انعتاق مؤسسات من ربقة الكنيسة، ومرورها بأطوار الاكتشافات والثورة الصناعية، فضلا عن قضايا الإصلاح الديني وبروز قطب العلمانية، والأهم من كل ذلك طور الاستعمار الغربي لبلادنا. إذ يبدو أن فشل الصليبيات على الصعيدين: السياسي والفكري، قد استنبت في نفوس الغربيين من بعدها: روحًا استعمارية شريرة وحاقدة، بل وأكسبها شراهة وطمعًا بالغ الحدة والترصد، حتى لقد ركزت جحافل الاستعمار نشاطها تجاه الشرق وما حوله، باعتباره الأرض التي تفيض ـ وفقا لمنطق العهد القديم ـ لبنًا وعسلًا، وهذا معناه. أن الفلسفة الاستعمارية التي هيمنت على طبيعة العلاقة الغربية بالشرق المسلم، برغم ماديتها، بيد أنها استلهمت توجهاتها على كافة المسارات الاستعمارية من مخلفات الموروث الديني، الذي جعل تلك العلاقة الابتزازية تنزع إلى المصيرية التي لا مفاصلة عليها ولا حوار مع العالم الإسلامي بشأنها.

وفي عام ١٨١٢م: أقدم جيش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم على غزو اليونان، وهو ما أثار لدى الأوساط الغربية طيلة خمسة عشر عاما فزعًا وهلعًا من خطر الإسلام العائد مجددا. فلم يهدأ لهم بال أو تقر لهم عين؛ حتى تم تدمير الأسطول المصري المسلم في موقعة نفارين ١٨٢٧م بعد أن أجهزت عليه أساطيل أوروبا مجتمعة.

«وطيلة فترة تزيد على ١٢٠٠ سنة، ظل الإسلام يشوه من خلال معلومات وانطباعات إما منقوصة أو كذوبة، حتى تحولت تلك الصورة المغشوشة بمضي الوقت إلى مسلمات مستقرة في الأعماق الغربية، وظلت تلك الصورة المغشوشة عن الإسلام هي الحاكمة لعلاقة الغرب بالإسلام حتى هذه اللحظة. هكذا قال الكاتب البريطاني أرسكين تشيلدرز ثم أضاف: «إن المسيحيين لم يتم تقطيعهم إربًا بالسيف، عندما كان العرب يشقون طريقهم عبر المتوسط لكنهم كانوا يمارسون شعائرهم بكل احترام.

وفي القدس عقد المسلمون معاهدة مع أعيانها من المسيحيين واليهود، ضمنت لهم حريتهم، ولم يكن عليهم سوى أن يدفعوا الجزية للسلطة الإسلامية التي وفرت لهم الأمان والرعاية، وعلى النقيض من ذلك؛ فعندما وصل الصليبيون في عام ١٠٩٩م دخلوا القدس

بالخداع وأغرقوها في حمام الدم، وذبحوا المسلمين فيها، وفي مفارقة درامية في التاريخ لا تزال أصداؤها تتردد عبر القرون، و إن لم تعرف على نطاق واسع في الغرب، فإن الصليبيين أحرقوا يهود القدس أحياء في معبدهم؛ في حين تم الإبقاء على مختلف الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود بدون أن يمسها سوء خلال الحكم العربي الإسلامي كله. وينبغي أن يلاحظ الآن أنه في أسوأ لحظات الغضب بين المسلمين تجاه الغرب لم يتم سب الدين المسيحي أو اليهودي»(١).

وبوجه عام، كانت الفكرة الغربية عن الإسلام قد نامت شيئا ما، فقد كان شبه مستأنس لا شأن له بالجوانب الإستراتيجية للشؤون العالمية فضلا عن تجافيه طريق المؤسسات السياسية في أغلب بلدانه، حتى أن بدت نذر الانهيار في آفاق المعسكر الشيوعي، لاسيما بعد شروع المسلمين الأفغان في نجارة نعش الشيوعية، ثم كانت البروستريكا بمثابة مؤشر الاحتضار، وأعلن رسميًا في مطلع التسعينات عن الوفاة، وشيعت الجنازة في عموم شرق أوروبا.

من يومها والأبحاث والدراسات الغربية تسعى حثيثة إلى استدعاء الإسلام من منفاه هنالك خلف دائرة الشعور المسلم، كان استدعاء قسريا؛ لا ليعبر عن وجوده كحتمية إستراتيجية تعزى تلك الأمم الجريحة في مصيبتها، فتنهض وتتفيأ العافية في ظلاله «ولا حتى من منطلق الإيمان الغربي بمبدأ التعددية الحضارية، بل كان استدعاء في سياق ما يسمى بدبلوماسية الاحتواء، تلك التي ترمى إلى وضع الإسلام في موضع العدو البديل للشيوعية. وربما نفطن إلى أسباب تعكر الأجواء وبث الفتن بين بعض الحكومات في بلدان العالم الإسلامي ومؤسسات الصحوة الإسلامية الرسمية والشعبي التي تمثل هاجسًا مفزعًا لدى الغرب وكل كاره للإسلام وأهله. هذه الأسباب تعد جزءا من إستراتيجية شاملة لمواجهة الإسلام تحت ستار مواجهة الأصوليات الإسلامية(٢).

---

(١) عطيه فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ١٣٤.
(٢) بول كولز: العثمانيون في أوروبا، ت عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١١٩.

المبحث الخامس
الرؤية المستقلة للحوار الحضاري وأهميته وشروطه

بعد أن قررنا ضرورة الحوار، والتي تقتضيها حاجة البشر إلى عالم تغشاه السكينة ويسود السلام نتحول إلى أهمية الحوار الحضاري وشروطه، والتي تعد ضمانات حقيقية للوصول إلى نتائج تسكن من روع الجهود التنظيرية المضنية، والتي ترنو بلهفة مخلصة إلى تحقيق التعايش الحضاري الوقور بين الأمم والشعوب.

ولعل الطامحين إلى الوصول بالحوار الحضاري إلى نتائج إيجابية بصدد فرعيات ثانوية، فضلا عن الأسس والأصول: لن يعودوا إلا بخفي حنين، ليس ذلك تشاؤمًا، ولكنه اعتبار بسنة من سنن الله في خلقه. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فغير خاف على أحد أن الاختلاف بين تيارات النسق الحضاري الواحد له حقيقة ووجود، فأنى للأطراف المتحاورة حضاريًا بالاتفاق حول الفروع؟

وإذا أخذت إستراتيجية الحوار الحضاري وضعا جادًا، وقصدا سنيا لا شوب فيه، وأحاطت بالأصول والكليات تنظيرًا وتطبيقًا: فقد أدرك راسموها مرادهم وثمرة جهودهم. ونحن إنما نعني بالتنظير هنا: حسن صياغة الأفكار وجودة مضمونها وترتيب أولوياتها، وملاءمتها جو الحوار بما لا يخل بثوابتها.

وكذا نعني بالتطبيق: حشد وتفعيل آليات الحوار لتعكس مدى جدية عملية التنظير، وما ينبني على ذلك من تكاملات حضارية تناسبية في شتى المجالات الحيوية، بمعنى توافر فرص الشراكة في صنع الحاضر والمستقبل الإنساني، وبنسب عادلة لكل الأطراف.

وكما تشق الأفكار الآنفة سبيلا نحو أهدافها في مبادئ مأمونة من الزلل والتراجع أو التحرش والتزاحم، ثمة بعض النقاط التي ينبغي إلقاء الضوء لتوضيح مواصفات الحوار الحضاري المنشود مع الآخر:

أولا: التكافؤ:

ونعني به حيازة قدر معقول من الأهلية الحضارية، يحقق لنا وجودا متوازنا، وحضورًا فعالا ومتميزا حول مائدة الحوار، وهذا التكافؤ الحضاري لا يقاس بمعايير سياسية أو عسكرية أو اقتصادية، فهذه وتلك تخضع بطبيعتها لتقليدات الظروف والأحوال الدولية، وإنما يقاس التكافؤ في الحقيقة بمقدار ما قدمته حضارة ما لكل الأمم والشعوب من منجزات مفيدة كريمة، وبمدى ما أسهمت به في إثراء الوجود الإنساني وتطويره، وإمداده بالقيم الروحية والأخلاقية على مر التاريخ.

وطبقا لهذه المواصفات القياسية، لن نكون بحاجة إلى شديد عناء بصدد تحصيل أسباب ومؤهلات التكافؤ الحضاري، ولعل ذلك مرهون بمدى استردادنا وعينا بذاتنا الحضارية، واستعادة عافيتنا في خضم أمواج من الهموم المتلاطمة، التي تفسد علينا أمرنا وتقوض أركاننا؛ بل وتنال من إحساسنا بوجودنا. تلك الهموم تتصل بإشكالية بلورة الاتجاهات الفكرية - والتي أقل ما يقال بشأنها أنها غير منسجمة مع بعضها البعض - وحشدها في نسق حضاري واحد؛ لتحقيق عنصري التوازن والتكامل في بنيتنا الحضارية.

لكن في ظل تبرم العلمانية بالمشروع الحضاري الإسلامي، وتجاهلها رصيده التاريخي الضخم؛ فضلا عن ولائها غير المتحسب للحضارة الغربية سيخل ذلك حتمًا بالتوازن التأهيلي المطلوب، مما يحول بيننا وبين تحقيق أي نتائج عادلة، وذات جدوى من الحوار.

ولعل الترادف الأيديولوجي بين الساسة والمفكرين على اختلاف مشاربهم، أمر حتمي لا محيص عنه بشأن تحقيق التكافؤ المثمر بيننا وبين الغرب مما يقتضي حوارا محليا لا يمنع إلحاحه والإسراع به من الجدية في تحديد متطلباتنا تحديدا دقيقا في ضوء موروثنا الحضاري الأصيل، والتجرد من الأهواء أمام مصالحنا العليا وغاياتنا البعيدة السامية(١).

---

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ٢٧٤.

ثانيا: إعادة اكتشاف الآخر:

وحتى يتسنى الخروج من حوار الحضارات بنتائج أكثر إيجابية، يتعين على كل فصيل حضاري إجراء ما يمكن تسميته بعملية «تشريح حضاري»، يتوسل بها المشرحون إلى استكناه الأنساق المعرفية لدى الكيانات الحضارية الأخرى، وذلك للوقوف على موقع الآخر في أدبياتها، ومن ثم قياس أداء آلياتها من حيث عطاؤها المخلص، ومدى استيعابها مفاهيم التعددية الحضارية وتجربتها التاريخية فيما يتصل بقضية التعايش السلمي وحسن الجوار، وكذا رؤيتها للحياة.. العالم.. الموروث الثقافي.. القيم الدينية.. النمط الاجتماعي.. الأقليات.. كل ذلك من مؤشرات فاعلية وإثمار الحوار الحضاري من عدمه «إن جارودي Garody» مثلا: يرى عبثية الحوار بين الغرب والشرق المسلم، وقلة جدواه؛ بل وفشله: «ما لم يظهر الطرف الأول عقيدته من صدأ قرون الهيمنة والتسلط الذي رزح تحته، وما لم تع تكنوقراطية الطرف الثاني شروط نظام لا يطرح المشكلة بأبعادها ومعانيها وأهدافها الإنسانية»[1].

والحقيقة أنه ليس ثمة مبرر يحمل الغرب على القلق والتوجس إزاء الصحوة الإسلامية التي تمتد إشراقاتها حتى تسطع على حدود الإسلام الحضارية، فيصفها الغرب ـ تحت الضغط النفسي ـ بالأصولية تارة وبالإرهاب تارة أخرى، مع كونها افتراضا إحدى بشريات عصور التسامح والاتقاء والتلاقح الحضاري المأمول.

وما زلنا نعاني نحن المسلمين للأسف من قصور في نظر الآخر إلينا، ومن تغافل، وتعام لتاريخنا، ومن غمط لمآثرنا وأمجادنا الحضارية. فهل الغرب من النزاهة بحيث يقر بالفضل لأهله ويرد الاعتبار لتاريخنا وحضارتنا؟ ! ثم أليس من واجبنا على جانب آخر أن نرفع هذا الظلم عنا فلا نظلم أنفسنا بإساءتنا إلى هذا الإسلام العظيم، فنكون أصدق تعبير عن قيمه وأخلاقياته ومناهجه وتصوراته؟

ولذلك أصبح من أبجديات نشاطنا الفكري الآتي بشأن السعي إلى تلاشي الانطباعات الخاطئة عن الإسلام لدى الغربيين، ليس الإدانة والانفعال، أو رفع شعارات الدفاع عن

---

(١) روجية جارودي: ما بعد به الإسلام، ١٩٨٣م، ص ٢٤٧.

الإسلام ضد مطاعن واتهامات المبطلين، لا؛ بل بنقدنا ذاتنا، وحسن عرض بضاعتنا، فأولئك لا يرون الإسلام إلا من خلالنا، ومن ثم يعرف قدرنا وتروج تجارتنا، فلا يزايد أحد علينا أو يبيع على بيعنا، ونعود في الأخير برضاء الله في رحالنا.

ثالثا: الاحترام المتبادل:

فإن ظواهر الأحادية والانتقاص من شأن الآخرين، والسعى إلى بسط الهيمنة عليهم - والعمل على إرهابهم وملاحقتهم والمظاهرة عليهم لا تعكس بحال أي نوع من الاحترام المتبادل، وإن صح تقييم تلك الظواهر على جانب آخر فإنما يعكس - بمرارة - عدم احترام أولئك الآخرين أنفسهم وتراثهم، فحق فيهم الضعف والارتخاء وقلة الفاعلية وتبدد هيبتهم في نفوس أندادهم.

وفيما تمدنا التجربة التاريخية الإسلامية من دروس وعبر: أن دلائل ومقومات الاحترام الحضاري المتبادل. هي النهوض بالتعثر، وتنشيط الخامل، وإمداد الضعيف بمقومات القوة، وحفظ مقام الآخر وكرامته وموروثه التاريخي، وتقدير ثقافته. هكذا ينبغي للأمر أن يكون، لكننا نستظهر في كل يوم ينشق فجره مسالك صارخة من جانب خصوم حضارتنا بعامة والحضارة الغربية بخاصة، ابتداء بالأثرة والضن، ومرورا بالتعويق والمزاحمة، وانتهاء بالتحرش والإزاحة.

ولا سبيل إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من احترام الآخر لنا - فضلا عن احترامنا لأنفسنا، إلا بالعض على عقيدتنا وقيم حضارتنا بنواجذنا.

والعمل الجاد المخلص على إعادة إنتاج الفعل الحضاري الإسلامي في صدى إشراقات تراثنا الروحية والمادية والأدبية. كذلك بنبذ احتقار الآخر وازدرائه، والتريث في رفضه فقد نتخذ هذا الموقف الأخير من الغرب، بدعوى التحوط من جانبنا لصون قيم إسلامية التي أجمل ما فيها إنسانيتها التي لم تكن يوما ما حكرًا على أحد دون أحد من خلق الله.

نعم قد يكون ذلك صحيحًا نسبيا بيد أنه في الحقيقة مسلك يوحي بالسلبية والانغلاق، الذي يقدح في إنسانية الرسالة وعالميتها، إذ هو يصرف المسلم عن رعاية حق الله في هذا

العالم بصون رسالته ونشر قيمه وإشاعة مبادئه في دنيا الناس أجمعين بلا استثناء ودون تعصب. من يدري فلربما أشرقت شمس الدعوة الإسلامية بنور الهداية الإنسانية من جهة هذا الآخر.؟ ومن ثم فأي مسلك لا يعبر عن روح الإسلام، ولا يجسد جوهره وطبيعته الإنسانية السامية، إنما يعد في سياق الفتنة التي تقطع بغير حق شعرة معاوية، ونكون من أولئك: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤].

وهكذا نبوء بالفشل الذريع في أداء رسالتنا التي أناطها الله بنا لأجل حوار يهدي إلى الرشد، ويعصم من البطر والانحراف والمنكرات، فالمسلم الحق يعرف للناس أقدارهم ويحترم الآخر وإن لم يواده.

فالحضارة الغربية وخاصة في قرونها الأخيرة فرضت نفسها كحقيقة ليس لمن يريد التعايش معها أن ينكرها، وطرحت حضارة الغرب رؤى ونظريات. وإن لم نتفق معها بجملتها، فلا يمكن إغفالها، وعلى العاقل الحصيف أن يتلمس أسباب التفاهم معها، وأن يقيم الحوار مع عقلائها، أن يميز بين المعتقد الذي لا نقبل المساس به، وبين أوجه المعاش التي نحترم ما أصله الغرب في ميدانها.

فالأمل في هذا السياق أن يتخلص الخطاب الإسلامي من نبرات الانفعال والتشنج، فكثيرا ما تفوت في غمراته فرص هائلة لخدمة الإسلام والكشف عن مذخور فضائله وشمائله في جو من الهدوء والتأمل والاقتناع. فرحابة صدر حضارتنا تتسع لأى قيم ومنتجات حضارية ذات معنى إنساني سام دونما صد أو نفور أو امتعاض[1].

رابعا: التفاهم والتعاون:

والحقيقة أننا نتطلع إلى التعامل الحضاري يوما ما في إطار مرجعيتنا الإسلامية التي تتحدد من خلالها ملامح وظيفتنا الحضارية في دنيا الوجود، والتي ترتكز في الأساس على نشر الخير والعدل والإحسان، ونبذ الشر والمنكر والظلم ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وذلك هو جوهر

(١) فتحي الويشي: مرجع سابق، ص٢٧٨.

الوسطية التي تحوزها آلية التفاهم والتعاون الإسلامي بشأن الحوار مع الآخر الحضاري ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، فإن القرآن الكريم ينادى بمبدأين صريحين لا بد منهما إذا شئنا السير في طريق وحدة البشرية وتعاونها في سبيل رقيها وتقدمها، وهما:

١- أنه لا شيء يهدم وحدة الأسرة البشرية مثل العدوان والتعاون عليه.

٢- أنه لا شيء يقرب ما بين أعضاء الأسرة البشرية مثل العمل على الخير المشترك والتواصي به، وتقوى الله في حقوق الإنسان، في السر والعلن.

ومن وحي التجربة التاريخية: نبوء بخيبة أمل فيما يتصل بقناعتنا إزاء إيمان الغرب بالتعاون والتفاهم مع الأمم والشعوب الأخرى في إطار مبادئ التعددية الحضارية، والتي تقوم الأساس على قيم العطاء الحضاري العام.

ولعل أهم ما تغتم له النفوس، ويبث فيها التوجس والترقب، أن تلعب الألوان والأجناس دورا أساسيا في فلسفة التفاعل الإنساني لدى منظومة الفكر الغربي، وهو ما يعكس الشعور الزائف بسمو الجنس، الذي ينبني بمقتضاه الكيل بمكيالين، والنظر بغير عين، كما هو حادث الآن من القوى الكبرى في العالم.

فاليهود من جانبهم لا يرون أي التزام أخلاقي تجاه الآخرين من دونهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولعل شواهد التاريخ ـ البعيدة والقريبة ـ تدلنا على مجافاة اليهود لروح الاجتماع الإنساني وإيثارهم الاعتزال والتقوقع والتربص، «فحياتهم رغم اتصالهم بمختلف الحضارات، حياة القبيلة البدوية الجوالة، فهم يغفلون العالم رغم اتصالهم به، ولا ينظرون إليه إلا نظرتهم إلى عدو يخضعون له إذا كان أقوى منهم، ويستعدونه إذا كانوا أقوى منه، وهم دائما معبئون أنفسهم تحت السلاح لشن غارة، أو دفع غارة، فروحهم الملية روح بدوية قبلية لا تحسن الاتصال بغيرها ولا تريده»(١).

(١) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص ٨٣.

ولعل قضية فلسطين ومسيرة التفاوض بشأنها، وما يختلجها من مواقف هائلة ومشاهد مروعة، من مؤكدات ما ذهبنا إليه في تبيان العجز الكائن في داخلة ذلك الكيان الحضاري غريب الأطوار مفرط النزوع إلى الحقد والعدوانية والاغتصاب، والذي لم يألفه التاريخ قط.

وقد لخص الدكتور هـ. ج دورمان H. G Dorman في كتابه - في الطريق إلى فهم الإسلام - الخلاف الذي استمر قرونا بين المسيحية والإسلام تلخيصا رائعا، فوصف أول جدل بين المسلمين والمسيحيين وهو جدل البطريق اليعقوبي يوحنا وعمرو بن العاص فاتح شمال سوريا ومصر. وكذلك عدد يوحنا الدمشقي في دفاعه عن الكنيسة الأرثوذكسية، ولقد تمكن من نشر مواعظ على هيئة أسئلة وأجوبة تساعد المسيحي على أن يرد على العربي المسلم في جداله حول الدين. وقد اهتم أكثر من خليفة إسلامي بمجالس الجدل، من ذلك ما حدث في مجلس المأمون ببغداد سنة ٨٦١م حين جلس عبد المسيح بن إسحاق الكندى يجادل عبد الله بن إسماعيل الهاشمي وأخذ كل منهما يدافع عن دينه في أدب وهدوء»(١).

وفي حين خرج المسلمون من الحروب الصليبية يلثمون رعاف جروحاتهم بعد نصر مجهد تقدمته ألوان شتى من البغي الصليبي والحقد والغدر وخيانة العهود، ظفر الصليبيون بالعلوم، ونقلوا من المعارف والفنون الإسلامية ما تأسس عليه بنيان النهضة الغربية الحديثة.

ولقد نقل أرنولد أوف لوبيك Lubek على لسان أحد القادة المسلمين قوله: «فلئن اختلفت عقيدتنا فإن خالقنا واحد وأبانا واحد. يجب أن نتآخي لا بسبب عقيدتنا ولكن لأننا كلنا بشر، فلنتذكر إذن أبانا المشترك ولنطعم إخوتنا»(٢).

إن فلسفة الإسلام في التعايش مع مسالميه، لا تتوقف عند حدود إقرارهم ومسائلتهم المجردة؛ بل يتعدى ذلك إلى برهم والإحسان بهم والإقساط إليهم، ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

---

(١) كافين رايلي: الغرب والعالم، مرجع سابق، ص ٢٠٠.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٦٥.

ولعل مستقبل قضية الحوار الحضاري: مرهون بمدى استعداد كل حضارة لفهم، بل لهضم البعد الإنساني، واستيعاب قيم الخير والإيجابية في أدبيات كل حضارة أخرى بتجرد وموضوعية.. يستتبع ذلك تخطيطًا للعلاقات الحضارية، بحيث يعكس تلك القيم بصورة عملية وصادقة؛ إذ إن هناك وفرة من الاستفهامات التاريخية بشأن قضية الحوار، والتي ما زالت تلح بطلب إجابات شافية كافية تعلق عليها الإنسانية بعامة، والأمة الإسلامية بخاصة، آمالا عظيمة في الدفع بآليات الحوار مستقبلًا نحو مسارات أكثر جدية، وإيجابية، وإثمارًا.

والخلاصة هنا أن التفاعل الحضاري ضرورة إنسانية لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن. أما الانغلاق الحضاري فهو قاتل للإنسان، والتبعية الحضارية هي الأخرى قاتلة لكل إبداع، ولا بد من حوار الحضارات.

وإذا تأملنا في حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها ـ من وجهة نظرنا ـ محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان فهي بعد الأمة عن ماض حضاري مشرق لم تعد تربطه به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان فهي بعد الأمة عن واقع حضاري معاصر تجهل عنه كل شيء مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها. ولذلك إذا كان لا بد لهذه الأمة أن تعود إلى التفاعل الحضاري، وتستفيد من حضارات الإنسانية. ولابد من خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزماني والاغتراب المكاني، وذلك بالربط بين الواقع وثوابت الحضارة الإسلامية، وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر. وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير، فإن فعلت الأمة ذلك كان ذلك بداية في طريق حضاري.

وإن التقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكري والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات، ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا، ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطي. ويجدر أن ندرك أن

الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء، والتبعية الحضارية غير مفيدة أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية. والعزلة الحضارية والجهل صنوان، كلاهما تخلف وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كؤود في طريق التطور والتقدم. ويكاد يكون مؤكدا أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم وتفاعل بين حضارات آخر تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان. والنمو الحضاري إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم[١].

والأمة الإسلامية وهي تتطلع إلى مستقبل مشرق لا بد أن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تملك رصيدا ضخما من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع يسمح لها بأن تنمي فلسفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية. ومما هو معروف أنه ليس كل عمل يصدر من الإنسان يسهم في الحضارة الإنسانية، وإنما ذلك العمل الذي ينمي الحضارة، وينطلق من الإنسان للإنسان.

وفي كل نجدنا في حاجة لبيان أهمية الحوار ودوره في الدعوة والتربية والثقافة؛ مما سنعرض له في الفصل السابع والأخير.

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم السايح: الحوار الحضاري ضرورة إنسانية، مجلة الدار السعودية، دارة الملك عبد العزيز، العدد الرابع، السنة العشرون، رمضان ١٤١٥هـ، ص ٢٣٥.

الفصل السابع

ثمرات الحوار

- المبحث الأول: ثمرات الحوار في مجال الدعوة.
- المبحث الثاني: ثمرات الحوار في مجال التربية.
- المبحث الثالث: ثمرات الحوار في مجال الثقافة والتفاعل الحضاري مع الأمم الأخرى.

ثمـرات الحـوار

المبحث الأول
ثمرات الحوار في الدعوة إلى الله

أولاً: الحوار في مجال الدعوة:

حيث إن الحوار يغلب عليه الهدوء، والرغبة في التوصل إلى الحق، والبعد عن الخصومة والعناء، فالواجب أن يختار له أطيب الكلام وألينه؛ مما يكون مفتاحًا للقلوب، وأقرب إلى القبول والتسليم، فربما كانت الكلمة الطيبة، وحسن العبارة وطيب القول عاملًا أساسيًّا في نجاح الحوار والوصول إلى نتيجة، وقطف ثمرته، كما أن سوء العبارة وفحش القول، وبذاءة اللسان - في الغالب - سبب في فشل الحوار، وعدم التوصل إلى الهدف منه، لذلك كان لا بد من بيان مبدأ الكلم الطيب، وتقديم التي هي أحسن لعلاقته الوطيدة بأدب الحوار، وذلك من خلال النصوص المستفيضة في تقرير هذا المبدأ في الكتاب والسنة.

فمن ذلك قول الله - سبحانه - مخاطبًا بني إسرائيل ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. أي قولوا لهم قولًا حسنًا وكلموهم طيبًا ولينوا لهم جانبًا ويشمل ذلك كل خلق حسن رضيه الله (كما ذكره ابن كثير) ويشمل كل خير وحسن ومنفعة، مثل لين القول والصدق والنصيحة[١].

قال الحسن: لين القول من الأدب الحسن الجميل، الخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه[٢].

---

(١) ابن كثير: (١/١٢٠).

(٢) الطبري: (١/٣٩٢)

وقد ضرب الله للكلمة الطيبة مثلًا بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، والتي تؤتى ثمارها باستمرار، فكلمة الخير تثمر الخير دائمًا (سواء كان المقصود بها كلمة التوحيد، أم كل كلمة خير طيبة).

فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

عن عطية العوفي قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إليه[١]. والكلمة الطيبة التوحيد، وقيل كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة كما وصف الله عباده المؤمنين الذين يدخلهم الجنة بقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤]. فالهداية إلى الطيب من القول والهداية إلى صراط الحميد تذكر في مشهد النعيم الدائم في الآخرة، فهي نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق[٢].

ولما للكلمة الطيبة، والقول الحسن من أثر في النفوس، ووقع في القلوب، وإبعاد عن نزغ الشيطان وإيقاعه بين المؤمنين أمر الله عباده أن يدفعوا بالتي هي أحسن ويقدموها قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [المؤمنون: ٩٦ -٩٧].

ومثلها قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

(١) الطبري: (١٣/٢٠٤).
(٢) الظلال: (٤/٢٤١٥).

ومجمل معنى الآيات الثلاث أن الله يأمر عباده أن يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة.

روي مبارك عن الحسن قال: «التي هي أحسن» أن لا يقول له مثل قوله، ولكن يقول له: يرحمك الله، ويغفر الله لك[(١)].

وأن يدفعوا إساءة المسيء بالنصح، والفحش بالسلام، والمنكر بالموعظة، والغضب بالصبر، قال ابن كثير: (قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم)[(٢)].

وقال سيد قطب تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه، بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة، فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيء يتلوها، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء، والكلمة الطيبة تأسوا جراح القلوب، تندى جفافها، وتجمعها على الود الكريم. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ يلتمس سقطات فمه وعثرت لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه. والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمنًا في نزغاته ونفثاته[(٣)].

بل إن الله سبحانه وتعالى أمر بتقديم التي هي أحسن حتى في الجدال الذي غالبًا ما تكون فيه الخصومة والعناد، ذلك أن الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ[(٤)].

قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال ابن كثير: (أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن

(١) زاد المسير: (٥/٤٧).
(٢) ابن كثير: (٤/١٠١).
(٣) الظلال: (٤/٢٢٣٤).
(٤) الظلال: (٤/٢٢٠٢).

خطاب......) إلخ[(١)]. ويكفينا دليلاً على أهمية الكلمة الطيبة، وضرورة القول اللين، وخاصة في أمر الدعوة والخطاب، أن الله أمر بها موسى وهارون - عليهما السلام- في مواجهة الطاغية فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٤٤).

والآيات في هذا المعنى متعددة، وأما تقرير ذلك في السنة فقد جاء عن طريقتين، أحدهما: الأمر بها والحث عليها وبيان فضلها، من خلال أقواله ﷺ.

وثانيهما: تطبيق ذلك عمليًا من خلال معاملته ومعاشرته ﷺ.

فمن الأول قوله ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»[(٢)].

وقوله «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[(٣)].

وقد جعل النبي ﷺ: الكلمة الطيبة وسيلة للوقاية من النار، كما جعلها في مقام الصدقة المحسة بالمال، وهذا يدل على أهميتها وأثرها البالغ في النفوس[(٤)]. كما جعل الأصل بالنسبة للمسلم ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرًا أو طيبًا وإلا فالصمت أولى وأسلم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[(٥)].

وحيث إن طلاقة الوجه انبساطه وبشاشته من القول الحسن والخلق الجميل، وله أثره الملموس في موضوع الحوار، فقد أشار إليه النبى ﷺ: وجعله من الصدقة والمعروف فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلق أخاك بوجه طليق»[(٦)].

وقال أيضًا: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»[(٧)].

---

(١) ابن كثير: (٢/٥٩١).

(٢) جزء من حديث طويل متفق عليه (البخاري: كتاب الجهاد رقم ٢٨٩١، مسلم كتاب الزكاة ٢/٦٩٩رقم٥٦).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الأدب رقم ٦٠٢٣، مسلم كتاب الزكاة (٢/٧٠٤) رقم ٦٨.

(٤) يحي زمزمي: مرجع سابق، ص ٩٠.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الأدب رقم ٦٠١٨،

(٦) أخرجه مسلم: كتاب البر (٤/٢٠٢٦) رقم ١٤٤.

(٧) أخرجه الترمذي: كتاب البر (٤/٣٣٩) رقم ١٩٥٦.

وأما ما ورد من فعله وحسن معاملته ولين قوله وطيب كلامه ﷺ فهو كثير جدًا ويكفي ذكر بعض الأمثلة هنا.

- الحديث الأول: حديث عائشة في لعن اليهود قالت: «دخلت رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت: يا رسول الله ﷺ: قد قلت وعليكم»(١).

- الحديث الثاني: حديث الأعرابي الذي بال في المسجد: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دخل أعرابي المسجد ورسول الله ﷺ جالس قال: اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «لقد احتظرت واسعًا» ثم ولى حتى إذا كان في ناحية المسجد فشج يبول. فقال الأعرابي بعد أن فقه: فقام إلى بأبي وأمي. فلم يؤنب ولم يسب فقال ﷺ: «إن هذا المسجد لا يبال فيه، وإنما بني لذكر الله وللصلاة»، ثم أمر بسجل من ماء؛ فأفرغ على بوله»(٢).

قال ابن حجر رحمه الله: «وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عنادًا، ولا سيما إن كان ممن يحتاج إلى استئلافه، وفيه رأفة النبي ﷺ وحسن خلقه».(٣)

- الحديث الثالث: حديث معاوية بن الحكم، وفيه قال: وبينا أنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة، إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فحدقني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أماه، ما لكم تنظرون إلي؟ قال: فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتوني، لكني سكت. فلما انصرف رسول الله ﷺ دعاني بأبي وأمي هو، ما ضربني ولا قهرني ولا سبني، وما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، قال: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن»(٤).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب رقم ٦٠٢٤.
(٢) أخرجه البخاري: في كتاب الوضوء رقم ٢٢٠،
(٣) فتح الباري: (١/٣٢٥).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد (/٣١) رقم ٣٣.

ولعل هذه الأحاديث الشريفة كافية في بيان المقصود من لين قوله وطيب كلامه ﷺ؛ فهو يأمر السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بالرفق في القول حتى مع اليهود، بل حتى وهم يسبون ويؤذون فلا يرضى بالشتم، ولا يقر الفحش في القول.

فلم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وهو يرفق بالأعرابيين غاية الرفق، فلا يسب بل يعلم بالكلم الطيب، وينهى أصحابه عن الزجر والشدة، ويأمرهم بالتخفيف والتيسير مطلقا، حيث كان يقول: «يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا...»[١].

وفي المقابل فقد حذر ﷺ ونهى عن بذاءة اللسان لما له من الأثر السيء على المجتمع المسلم، فقد قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذئ»[٢].

ومعلوم خطر سيئ الكلام، وفحش القول، فربما كانت كلمة سيئة أو قولة غير مسؤولة سببًا في مصائب عظام، أو طريقًا إلى الدمار، كما قال الشاعر:

فـإن النـار بالعوديـن تذكى　　　وإن الحـرب مبدؤهـا كلام

ولذلك فقد قال ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه وما كان الحياء في شيء إلا زانه»[٣].

فيحذر الداعية المحاور كل الحذر من زلات اللسان، وسقطات الكلام. فقد تؤدي بحواره إلى الفشل والضياع.

ثانيًا: الحوار وسيلة للدعوة:

يعتبر الحوار صناعة الرسل والدعاة؛ لأن تغيير العقائد ليس أمرًا سهلًا؛ ولذلك أعطى الله رسله البيان. وأرسلهم بلغة أقوامهم ومنحهم القدرة على المخاصمة؛ لكي يردوا جدل المعارض ويقنعوا السائل. ويأخذوا بيد الجميع عن طريق المناقشة الحرة العاقلة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم ٦٩.
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر (٣٥٠/٤) رقم ١٩٧٧.
(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البر (٣٤٩/٤) رقم ١٩٧٤.

فهو - أولًا - يبين للداعية بعض ما سوف يصادفه من أعداء دعوته، ويبصره بمشاق الطريق الذي سوف يسلكه، وذلك برواية الجدل الذي دار بين النبي ﷺ ومدعويه؛ ذلك لأن المعارضين دائمًا يقفون ضد دعوة التغيير. فإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية تطالب المعاندين بتغيير جذري يشمل الحياة كلها؛ لظهر لنا سر قوة المخاصمة وشدة العناد.

وإذا ما علم الداعية أنه أمام موقف صلب من الناس لزمه أن يستعد له بقوة عقلية ونفسية، وخاض طريقه الصعب صابرًا محتملًا. والنبي ﷺ كان هو القدوة في هذا المجال؛ فلقد كان القوم يحاولون هدم رأيه، ويصفونه بمختلف الأكاذيب، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

فهؤلاء الكفار حينما سمعوا رسول الله ﷺ يتلو عليهم الآيات البينات ويذكرهم بالأدلة الواضحة قالوا: إن محمدا رجل كاذب وساحر يهدف إلى إبعاد الناس عن دين آبائهم، وقرآنه كلام مختلق ودينه سحر مبين؛ فتراهم اتهموا الرسول وكتابه ورسالته خصومة وجدلًا.

إن الله سبحانه وتعالى مع من يدعو إلى دينه يدافع عنه وينصره. ولذلك أمر الرسول ﷺ أن يرد بالطريقة الجدلية على اتهامات معارضيه؛ فلئن تباهوا بما لهم من مال وولد وظنوا أن ذلك يدفع العذاب عنهم. ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فإن الله يعلم رسوله الرد ويأمره به فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٦، ٣٧].

وهكذا يرد الله مباهاتهم بمالهم؛ لأن هذا المال رزق أعطاه الله لهم، وهو قادر على إزالته من ملكيتهم. وليس الملك أيًا كان بمقرب من الله والجنة ومانع من العذاب والنار. ولكن الإيمان والعمل الصالح هما أساس الحساب خيرًا كان أو شرًا[1].

(١) أحمد غلوش: مرجع سابق، ٣٨٣.

ولئن وجهوا اتهاماتهم إلى القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥]، فإن الله يعلم رسوله الرد ويأمره به في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

ولئن كانوا يستبعدون القيامة. ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (يونس: ٤٨)، فإن الله يأمر الرسول ﷺ بالرد فيقول: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٣٠].

ومن هذه الآيات نرى أن مجادلة النبي ﷺ هادفة؛ فهو يأخذ مكابرتهم ويرد عليها ردًا مقنعًا قاصرًا على المعترض عليه.

والداعية يأخذ من هذه المواقف صورة التأييد الإلهي لرسوله ﷺ الداعية الأول، ويسير على الدرب في الدعوة؛ متوقعًا المعارضة البشرية متأكدًا من التأييد الإلهي. ويجب عليه أن يصبر على كل ما يلقاه فلقد أمر الله الرسول ﷺ من قبل بقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠] أي إذا دعوتهم وعارضوك وتقولوا عليك الأقاويل فاصبر عليهم وتجلد لقولهم، وأعرض عنهم إعراضًا لا يشوبه أذى ولا شتم ولا مقاومة، وعليك أن تكل الأمر إلى الله تعالى في النهاية.

والحوار - ثانيًا - يبصر بالدعوة ويبين أساسياتها، ويعرض القرآن في هذا الموضع جدل سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود وإثباتًا للألوهية يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذا جدل حول إثبات الألوهية بأدلتها، تراها أدلة مفحمة ملزمة من أقرب الطرق، وقد ترك سيدنا إبراهيم دليل الإحياء والإماتة؛ حينما أوجد النمرود شبهة شكلية عليه. وانتقل إلى دليل لا شبهة فيه عند النمرود وهو مطلع الشمس ومغربها. وهنا بهت النمرود ولم يجد جوابًا، وهو نوع من الجدل يعرف بـ «الانتقال» وهو أن

ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أخذ فيه لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول[١].

وهذا الدليل يبطل عبادة الأشخاص ولا يثبتها إلا للإله الواحد القادر على كل شيء المتصرف في سائر الأمور عند الحياة والأحياء.

ولقد جادل المكيون رسول الله ﷺ في شأن دعوة التوحيد، وقال أنصار الشرك والتعدد: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] وقال الدهريون المنكرون للإله بالكلية ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقال المقلدون: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

هذه المكابرات من القريشيين توضح موقفهم من دعوة التوحيد. وهنا يبين الرسول لهم القول الفصل في هذا الأساس الوطيد، ويقول كما أمره الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وهكذا يجادلهم الرسول ﷺ بالأمور المسلمة لديهم؛ لأن تسليمهم بها يجعل النتائج مسلمة كذلك، بل إنه يجادلهم بالأمور البدهيه لتكون الحجة قطعية فيقول كما قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فترى الآية تتضمن جدلًا يسلم بمظنوناتهم، ثم يناقشهم فيها، وبالمناقشة يظهر بطلان رايهم، فكأنه قال: ليس مع الله إله آخر. ولو سلمنا بوجود آلهة أخرى معه كادعائهم الكاذب فإننا لا بد وأن نرى على ما هي العادة -فساد السماء والأرض، واستقلال كل إله بما خلق، وكون لنفسه ملكًا خاصًا به ولحدث الشجار والتعالى بين الآلهة، ولو كانت الآلهة أصغر من الإله الأكبر صاحب العرش لطلبت الآلهة سبيلًا إلى الله معاندة ومبالغة.

وكل ما كان منتظرًا كنتيجة للفرض المظنون لم يحدث، إذ لم تفسد السماء والأرض، ولم تستقل آلهة بملكها، ولم يتعال إله على إله، ولم تطلب الآلهة طريقًا إلى الله الأكبر،

(١) الإمام السيوطي: الإتقان، جـ٢ ص ١٣٧.

والنتيجة الحتمية هو أن التسليم باطل، والفرض المظنون كاذب لا صحة فيه. والثابت المؤكد هو أنه لا إله إلا الله.

وهكذا أسهم الجدل مع سائر الأدلة في إثبات الأساس الأول للدعوة، وهو الإيمان بالله وحده ورد افتراءات المعارضين.

وأما الأساس الثاني، وهو إثبات الرسالة لسيدنا محمد ﷺ فقد كثر الجدل حوله، إذ جحد المعارضون الرسالة واستبعدوا أن يكون الرسول ﷺ بشرًا من الناس وكذبوا. ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤].

ولم يستبعدوا إرسال البشر فقط، بل أخذوا في توجيه الاتهامات الباطلة يقول تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ ﴾ [الأنبياء: ٥].

ودارت مكابراتهم حول هذه الاتهامات فهو شاعر، وكاذب، وساحر وناقل، ولكن الرسول ﷺ جادلهم في دعاويهم. فلما قال: قال الكافرون (لست مرسلًا) أمره الله أن يرد عليهم بقوله ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] ذلك لأنهم جاهلون بالحقيقة، ويكفي أن يعلمها الله. ويعرفها من عنده علم الكتاب.

ويؤكد الله لسيدنا محمد ﷺ أن المعاندين مغالطون في دعاويهم، فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

وذلك لأنهم اتهموا النبي ﷺ بأنه يأخذ الكتاب من رجل أعجمي، لكنه تلا عليهم بلسان عربي فكيف التوفيق، خاصة وأن النبي ﷺ أمي، ولم ينزل كتاب من قبل هذا، وأيضًا فهم يطلبون بأنه يكون الرسول ملكًا وهذا خطأ لأنه لا بد من حصول الفهم المشترك والقدرة على الخطاب. ولا يقدر على ذلك مع البشر إلا بشر منهم. ولقد وصل بهم حد التحدي إلى أن طلبوا من الرسول ﷺ أن يظهر لهم بعض الآيات الحسية العجيبة، لكن الله سبحانه وتعالى بسبب جدلهم ومكابراتهم يأمر رسوله ﷺ بأن يجيبهم ويقول له: ﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٣].

إن المتتبع للحوار في مسألة إثبات النبوة لسيدنا محمد ﷺ ينتهي إلى وضوح بين بالرسالة وإمكانها وإثباتها.

والحوار - ثالثًا - يعرف بالناس ويبين طبائعهم. واتجاهاتهم، فإليهم توجه الدعوة، والعلم بأحوالهم ضرورة للداعية؛ ليتمكن من الأخذ بيد مدعويه على وجه لائق ومناسب.

والحوار - رابعًا - أسلوب حكيم يناسب كافة الطوائف الإنسانية؛ لأنه يسوق حججًا إقناعية في بعض الأحيان لتكون موعظة حسنة تثير الانفعال وتهيج النفس، وتدفع إلى الإيمان بما تدعو إليه، وفي هذه الحالة يتلاءم الحوار والجدل مع العامة والجمهور الغالب من الناس حيث يسلم بأفكارهم. وينتقل من فكرة معارضة إلى سواها حتى يصل إلى التصديق.

وفي أحيان أخرى تكون حجة الجدل قطعية يقينية، مثل قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والحوار القرآني - خامسًا - يساير الواقع البشري شأن القرآن كله.

وهو في جملته خطاب بين الرسول ﷺ والبشر، ورواية عن مناقشات سابقة، والإنسان هو الإنسان في كل عصر وزمان - ولذلك جعل الله جدل القرآن فطريًا ومنزوعًا من قضايا الواقع. حتى يكون في مقدور الخاصة والعامة من الناس.[١]

ثالثًا: دور الحوار في إبلاغ الدعوة:

الحوار القرآني وسيلة من وسائل الدعوة قام ويقوم بدوره على وجه كامل وذلك على النحو التالي:

١- الإقناع العقلي المجرد:

خاطب القرآن الكريم العقل، وناقش الخصوم مناقشة تعتمد على كثير من المسلمات؛ حتى يقطعوا بصحة المدعي أمامهم؛ وكأن الجدل في هذا المعنى يستنتج النتائج الصحيحة بعد ذكره للمقدمات الصادقة. ذكر السيوطي أن الإسلاميين من علماء الكلام استنتجوا من

(١) د. أحمد غلوش: مرجع سابق، ص ٤٠٣.

أول سورة الحج إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] خمس نتائج وعشر مقدمات لها، أما النتائج فقد احتواها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦-٧].

وأما المقدمات العشر فهي سهلة الإيراد، وذلك أن الله أخبر عن يوم القيامة وزلزلة الساعة، وذلك حق منقول إلينا بالتواتر. ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق، وأخبر سبحانه وتعالى عن أهوال الساعة وعن قدرته الشاملة. ولا بد للساعة من إحياء الموتى فالله القادر يحيى الموتى فالله على كل شيء قدير، وأخبر عن الساعة وخلق الإنسان من تراب. وأماته بعد ذلك. وخلق الأرض وصدق خبره في كل ذلك، بدلالة الواقع المشاهد. ومن صدق خبره في ذلك صدق في أخباره عن مجيء الساعة. فصدق أن الساعة آتية لا ريب فيها. ولا تأتي الساعة إلا ببعث من في القبور فثبت أن الله يبعث من في القبور»[1].

هكذا نجد النتائج أمام العقل ثابتة صادقة، وهي نتائج ذات تأثير نفسي بالغ فهي لا تقف عند شكلية القياس؛ بل تجعل المجادل كلما وصل إلى نتيجة ازداد إيمانا وتصديقا؛ حيث تشتمل النتائج على إبراز حقيقة الألوهية، وقدرة الله، وتخبر عن إحياء الموتى وبعثهم في يوم الساعة الآتية بلا ريب، وتتحدث عن ضرورة الحساب على الأعمال.

ومن أجل الوصول بالعقل إلى إقناع كامل بالشيء الذي هو محل الجدل رأينا الجدل يأتي بالأمر المناقش فيه، ويحلله إلى منتهى أقسامه، ويرد كل قسم على حدة، لينتهى أخيرا إلى الرأي الحق وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فترى هذه الآية تقسم الرأي في موسى عقليا؛ لأنه إما أن يكون كاذبًا و إما أن يكون صادقًا، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه ولا يتعداه، و إن كان صادقًا فاتباعه نفع وفوز ونجاة والتقسيم يؤدي في النهاية إلى عدم التعرض لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعدم محاولة قتله.

(١) السيوطي: الإتقان، جـ٢، ص ١٣٥، ١٣٦ بتصرف.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وقد رد الله في هذه الآيات على اليهود تحريمهم لذكور الأزواج المذكورة تارة، وتحريمهم لإناثها تارة ثانية، وتحريمهم لما في أرحام الإناث حسبما اتفق تارة ثالثة. فجادلهم الله في رده بطريق «السبر والتقسيم» فبين أنه خلق من كل زوج مما ذكر ذكرًا وأنثى، وسألهم عن سبب التحريم وعلته؛ لأن العلة إما أن تكون بسبب الذكورة أو بسبب الأنوثة معًا، أو بسبب خارج عن حدود مصدر الشيء المحرم كأن ينزل به وحي من الله. وتلك هي أسباب التحريم كلها. ولا يُعتقد سبب سواها.

ويترتب على هذه الأسباب أن يحرم الذكورة جميعًا إن كانت العلة هي الذكورة، أو يحرم الإناث جميعا إن كانت العلة هي الأنوثة، أو يحرم الذكور والإناث إن كانت العلة هي الذكور والأنوثة معًا، أو يحرم ما فصلّه الوحي إن كان هو السبب لكن السبب المشاهد أن اليهود يحرمون على هواهم فيحرمون هذا تارة، وذاك تارة أخرى، ويحللون الشيء بعد تحريمه، وقد حصر الله علة التحريم الممكنة وسألهم عن تحديدها إن وجدت، وبذلك أبطل فعلهم، وأثبت أن ما قالوه ضلال وكذب.

وهكذا بـ «السبر والتقسيم، ينزاح الشك، وتستريح النفس، ويتبقى العقل المجرد والفكر السليم»[(١)].

٢- مراعاة الطبائع النفسية:

يعتز كثير من الناس بآرائهم وأفكارهم، حتى وإن كانت خاطئة، والمعاندون أكثر الناس تشددًا في هذا المجال. والجدل يراعى هذه الناحية في مناقشاته، حيث ترى في طرق الجدل ما عرف بطريقة «مجاراة الخصم» ومجمل هذه الطريقة أن يسلم المجادل ببعض مقدمات الخصم للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه، وإنما هي بعيدة

(١) الإمام السيوطي: الإتقان جـ٢ ص ١٣٥، ١٣٦.

عنه. ومن أمثلة هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

فدعوى الخصم أن الرسل بشر والبشر لا يستطيعون أن يتلقوا وحي الله، وهم بدعوى الرسالة يريدون صد أقوامهم عن عبادة الآباء والأسلاف. وبملاحظة رد الرسل عليهم نرى التسليم للخصوم بأنهم بشر، ويذكرون أن البشرية لا تتنافى أن يمن الله بالرسالة على من يشاء من البشر.

وفي هذا النوع من الجدل استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه، وربما كان من الممكن بهذه الطريقة ثنيه عن الإنكار بعد بيان فساد العلاقة بين القضية المسلمة والنتيجة التي رتبت خطأ عليها. يقول الشهرستاني: «واعلم أن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج»(١).

وفي «مجاراة الخصم» تقدير للفكر وللعقل السليم عن طريق تقدير قوله الصادق وعقله المكين.

ومن طرق الجدل التي تساير الطبائع الإنسانية، وترضى الغرائز البشرية ما عرف بـ «قياس الخلف» وهو جدل يثبت الأمر بإبطال نقيضه، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

فقد أثبت قول الله تعالى هذا أن القرآن من عند الله تعالى بإبطال أنه من عند غير الله، لأنه خلا من الاختلاف اللازم له لو كان من عند غير الله(٢).

ومن الطرق التي راعت طبائع الناس مجاملة الخصوم وعدم الرد المباشر على دعاويهم مع عدم التسليم بها، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]. ومثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وذلك لأن المجاملة أدعى إلى الطاعة، وأقوى في التأثير.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ ٢، ص ٥٦.
(٢) د. أحمد غلوش: مرجع سابق، ٤٠٧.

٣- ملاحظة التنوع البشري:

يختلف الناس في مجادلاتهم فمنهم المجادل العنيد ومنهم المناقش السهل، ولقد راعى الجدل هذه الاختلافات. فمع العناد يلجأ إلى إفحام الخصم و إلزامه، ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة، و يبينها له في وضوح.

فلقد كان المعاندون يطلبون في إصرار أن يكون الرسول ﷺ ملكًا لإزالة اللبس من إرسال البشر فرد الله إصرارهم في وضوح و إيجاز وعرفهم أنه لو أرسل ملكًا على صورته الملكية لهلك الناس من رؤيته. ولو جعله على صورة البشرية يعايشهم و يدعوهم في بشريته هذه لبقى اللبس وطلبوا ملكًا آخر. وهكذا في تسلسل لا ينتهي وهو محال نشأ من طلبهم المحال. وعليهم بعد ذلك أن يسلموا بالرسول البشر.

ومن أمثلة هذه المراعاة قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفي هذه الآية بيان لإنكار اليهود إنزال الوحي على بشر هو محمد ﷺ، بينما هم يؤمنون برسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد رد الله عنادهم وأفحمهم بأقصر طريق بسؤالهم عن مسلمات عندهم؛ هي من نوع ما ينكرون. ولذلك سألهم عن الكتاب الذي جاء به موسى وعمن أنزله عليه؟

وحينما يبدأ المعاند في إنكار المسلمات بإلقاء شبهه عليها. نجد أن القرآن الكريم في قصده الحق يأتي بطريقة تعرف «الانتقال»؛ حيث يترك ما ألقيت عليه شبهة الخصم، و ينتقل إلى ما لا شبهة فيه، وذلك مثل قوله تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤- الترغيب والترهيب:

يراعى الحوار القرآني هذا النوع في الخطاب؛ لأن الإنسان يحب الخير، ويسعى إليه ويكره الألم وينفر منه، ولهذا الغرض يسوق القرآن حوارًا يجري بين أهل الجنة وأهل النار. فيقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]. والوعد المسئول عنه أشياء جاءت على ألسنة الرسل تظهر في الآخرة كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، ومجرد اعتراف الكفار بوقوع الوعود به يثير وجدان الكافرين ويجعلهم يرهبون مصيرهم بسبب الكفر. ويحاولون النجاة.

ويقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]. وهذه الآية تبين أن الجنة فوق النار، وأن ماءها العذب ورزقها اللذيذ كثير، فيه فيض وسعة، إلا أنه مع كثرته محرم على الكافرين الذين أهملوا الرسالات، وجهلوا أن لهم هذا اليوم الموعود.

وهكذا يقدم الحوار القرآني صورًا متعددة من مناقشة الخصوم مما جعله وسيلة ناجحة للدعوة تملك التأثير في الناس وهدايتهم إلى الصواب.

وإذا كنا أبرزنا فيما تقدم أهمية الحوار في الدعوة الى الله تعالى، وكونه وسيلة للدعوة الى الله مباشرة ونافعة وهادفة، ثم أكدنا على دور الحوار في تبليغ الرسالات وتوصليها المنهج الإيمانى الصحيح الى المتلقين؛ فإننا نتحول إلى خصوصية الحوار في المجال التربوي التدريسي مع الطلاب، وداخل المؤسسات التعليمية، وثمرات ذلك؛ مما سنعرض له في المبحث التالي.

المبحث الثاني
ثمرات الحوار في مجال التربية

يؤسس الحوار التربوي داخل قاعات الدرس على مجموعة من الأسس تقضي إلى تحقيق أفضل نتائج في التعلم، وهذا ما نعرض له بشيء من التفصيل في هذين المحورين.

أولًا: أهمية الحوار في المجال التعليمي (التدريسي)

منذ وجود البشر وقيام مجتمع بدائي بلا قانون يضبطه، ولا شريعة تقوِّمه، ولا نظام يهتدي به، والناس تتشابك مصالحهم وتستبد بهم الأهواء، ويشتد النزاع بينهم: فيحتكمون إلى السيف حينًا، وإلى الحجة الدامغة والكلمة أحيانًا: حيث كان على الإنسان أن يسوق كلمته قبل أن يسل حسامه، فربما كانت الكلمة البليغة أمضى من السيف، وأفضل من الرمح؛ لذا ظل اعتمادهم على الكلمة المنطوقة اعتمادا كبيرًا، حتى بعد أن عرفوا الكتابة، وصار تبادل الرسائل أمرًا مألوفا[1].

وهذا يؤكد اعتماد الأمم السابقة بشكل أساسي على الحوار؛ كطريقة فعالة لفض المنازعات، وربما يرجع هذا إلى أن الإنسان تعلم باكرًا - ولفترة طويلة من الزمن - أن يتكلم قبل أن يتعلم كيف يعبر عن أفكاره ومشاعره بشكل كتابي، ومع أن الكتابة اختراع قديم، إلا أنها إنتاج حديث إذا ما قورنت باللغة الشفهية.

ويطلق على العصر الذي نعيشه عصر التدفق المعرفي والثورة العلمية وتطبيقاتها الثقافية، كما أنه عصر تزايد المطالبة بالعودة إلى فطرة الله في الإنسان؛ أي العودة إلى الحرية المسئولة كأسلوب للحياة الإنسانية السوية، وهذا كله يتطلب من الإنسان الذي يعيش هذا العصر أن يفكر فيما يقوله، وأن ينتقي كلماته وأفكاره، وأن يعرض فكره بصورة معقولة، كما أن تقارب المسافات بين الدول، نتيجة لتطور وسائل النقل والمواصلات السريعة - أدى إلى قيام اتصالات حضارية جديدة ومعقدة؛ بحيث أصبح أي حدث يقع على بعد آلاف الأميال في أي بلد يكون له صدى في بقية البلدان.

---

(١) محمد طاهر درويش: الخطابة في صدر الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ، ١٩٦١، ص ٨١.

وتقتضي الحياة الكريمة التي تقوم على الشورى إتقان أشكال الاتصال الشفهي وألوان النشاط اللغوي، وأن يكون كل فرد قادرًا على التحاور مع الآخرين وإقناعهم؛ لكي يستطيع أن يؤدي دوره في المجتمع.

والشورى تقوم على الحوار المتبادل كحق مطلق لكل مواطن؛ مما يتيح للعقول أن تتفاعل، وتتصل إلى الحل الأفضل، ويستطيع كل فرد أن يقدم فكره ونفسه للعالم، ويعبر عن نفسه بما يصله بالآخرين، ويصل الآخرين به، خاصة في ألوان النشاط اللغوي المختلفة؛ من ندوات؛ إلى مؤتمرات، إلى جماعات، ومناظرات... وغيرها.

ومع تعقد شئون الحياة وتطورها؛ تغير تفكير الناس، وتغيرت أساليب الحياة اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، وأخذت الكلمة المنطوقة سبيلها تحت قبة البرلمان، ومجالس المدن والقرى، والهيئات، والجماعات؛ ومن هنا أصبح الإنسان في حاجة فعلية إلى الحوار في وسط ما يعيشه من اختلاف مذاهب، وتضارب آراء، واضطراب أفكار تحول بينه وبين الرؤية الواضحة الصحيحة للأمور.

والحوار أحد الأشكال الرئيسة للاتصال اللغوي والاجتماعي بالنسبة للإنسان؛ يتحدث به إلى الآخرين، ويتحدث الآخرون إليه باعتباره جزءًا مهمًّا في الممارسة اللغوية التي يمارسها الأفراد في الحياة؛ فالناس يتحاورون أكثر مما يكتبون، ويقدر ما يكون لدى الإنسان من قدرة على عرض وجهة نظره بطريقة واضحة وإقناع الآخرين بها، بقدر ما ينجح في اتصاله بالآخرين وفي إنجاز الحوار الهادئ الهادف المقيد؛ فهو يعتمد على الحوار بشكل أساسي عندما يريد استمالة غيره من أفراد المجتمع والتأثير فيهم؛ فيحملهم على أن يسلكوا سلوكا معينًا، وبدون امتلاك مهارات الحوار لا يوجد لنا بقاء في عالم اليوم، ولا ننسى أن الإنسان في حياته العادية وفي آية مرحلة من مراحل العمر لديه الميل والرغبة في أن يتحدث، ويعبر عما يفكر فيه وعما يفعله، وقد يستطيع بأقواله وأفعاله أن يقنع السامع، ويسيطر عليه، ويكسب تأييده وثقته.

وإذا كان للحوار هذه الأهمية، فإننا يجب أن نوليه عناية كبرى في مدارسنا، وأن نحرص على تدريب التلاميذ على كيفية إتقان التحاور وإتقان الآخرين، وإذا كانت

العملية التربوية تعتمد على ما يجري من اتصال بين جميع الأطراف المشتركة في المواقف التعليمية[١]، فإن الحوار أو الحديث هو وسيلة هذا الاتصال وجوهره، سواء أكان هذا التحاور بين المعلم والتلاميذ، أم بين التلاميذ بعضهم وبعض.

إن الفرد الذي لا يكون قادرًا على المشاركة فيما يجري من اتصال في المواقف التعليمية، لا يمكن أن يتعلم على النحو المرغوب فيه، كما أن التدخل المستمر من جانب المعلم فيما يجري من اتصال بين التلاميذ، يقلل من عائد هذه العملية. والمشكلة الرئيسة في هذا الشأن، هي أن المعلم يستخدم طرقا تقليدية تعتمد عليه في معظم الأحيان، ويعتبر أن وظيفة الحديث أو الكلام هي نقل الحقائق والمعلومات إلى التلاميذ، ومن ثم فإن جوهر الاتصال هنا ما يجري من حديث بينه وبينهم من أجل الوصول إلى غايات تفوق تلك الغاية من حيث الأهمية.

وإذا كان تدريب التلاميذ على الحوار يعُينهم على أن يحيوا حياة فاعلة متجاوبة مؤثرة - ولا سيما في المجتمع الديمقراطي - فإن معظم التربويين يؤكدون أن تنمية قدرة التلاميذ على التحاور من أهم الأغراض في تعليم اللغة؛ فليس هناك شيء يقتنيه المتعلم في حياته أثمن من تمكنه من لغته القومية، واستطاعته أن يعبر عما في نفسه؛ وإن يقف على قدميه في مجالها الفكري.

ومن ألزم واجبات المدرسة أن تأخذ بأيدى تلاميذها في مجال التعبير، وأن تعودهم الاشتراك في المناقشات الجماعية المنتظمة في أسلوب واضح سليم، يقوم على الإقناع وأن تدربهم عند تعاملهم اللغوي بالفصل الدراسي على ان يقدموا أفكارهم دون تقييد أو إكراه؛ لأن قدرة أفراد المجتمع على التحاور الهادئ الرزين النافع، وقدراتهم على الاستماع للآخرين، وعرضهم وجهات نظرهم، ومحاولة إقناع الغير بها من العوامل المؤثرة في تقدم المجتمعات.

وممارسة الحوار يمكن أن تكسب التلاميذ مهارات متنوعة من خلال هذه المواقف، تجعلهم قادرين على التحاور النافع مع الآخرين، وعلينا بعد ذلك أن نعدهم للمواقف والأنشطة الحوارية التي يشاركون فيها كدافع لهم على التحاور والإقناع. وتتمثل أهمية الحوار فيما يلي:

---

(١) فارعة حسن محمد: المعلم وإدارة الفصل، القاهرة، سلسلة معالم تربوية، ١٩٩٣م، ص٥٥

١- تنمية اللغة الشفهية أساس بالنسبة لفنون اللغة الأخرى، كما أن الأطفال الذين يستطيعون تقديم أنفسهم بطريقة فعالة عندهم النية أن ينجحوا في مجالات أخرى من فنون اللغة.

٢- في الحوار فرصة لاحترام رأي الطالب وتشجيعه على التفكير وتقديم الآراء والمقترحات، حتى لو كان فيها ما يغاير المألوف، وإذا استطعنا أن نحترم كل نتيجة يصل إليها التلميذ - مهما كان مستواها - بغض الطرف عن رأينا فيها، وإذا غرسنا فيه الثقة بالنفس، وعرضناه لمواقف تتطلب التفكير والموازنة، لوصل تدريجيًّا إلى الاستقلال في التفكير.

٣- يزيد الحوار من القدرة على اكتساب المهارات وإصدار الأحكام وتكوين الآراء، واتخاذ القرارات، كما يساعد الحوار على إحداث تطوير في المعلومات ودعم الروابط والعلاقات الاجتماعية؛ مثل علاقة الصداقة، ويساعد أيضًا على اكتساب روح التعاون وأساليب العمل الجماعي.

٤- المشاركة الإيجابية التي تتحقق من خلال الحوار تجعل تعبير التلاميذ عن حالاتهم الانفعالية يتخذ شكلًا طبيعيًّا، يصل بهم إلى القدر المرجو من الاتزان الانفعالى، ويمكن للمعلم أن يدرب التلاميذ على ضبط انفعالاتهم وتهذيبها في جو من الصداقة والود؛ مستثمرًا كل فرصة في تنمية ثقتهم بأنفسهم.

٥- يساعد الحوار على كسر حصار الخجل والتهيب، ويزيد من جرأة التلميذ ومن قدرته على المواجهة؛ فأثناء التحاور يقف مع زملائه متحدثًا ومستمعًا، وهو باعتياده هذه المواجهة يألف مواجهة الآخرين؛ مما يغرس الثقة بالنفس. ويساعد الحوار على علاج أمراض النطق التي تعود إلى أسباب نفسية أو الإحباط الذي تعرض التلميذ له في مواقف سابقة.

كما يخفق الحوار من الصراع النفسي والشعور بالإحباط والقلق؛ وذلك من خلال السماح للتلميذ بالتعبير عن نفسه.

وتوجيه النقد والمشاركة الجماعية في الحوار؛ مما يخفف من درجة توتره وقلقه، ويوفر لديه قدر كبير من التوافق.

٦- تمكن التلميذ من مهارات الحوار واكتسابه أسلوب الشورى القائم على النظام واحترام الرأي المعارض، يشعره بأهمية آرائه، ويزيد من إقباله على الدراسة.

٧- يُعد الحوار تجميعًا للآراء والخبرات المختلفة؛ بحيث يظفر كل عضو في النهاية بحصيلة أكبر من تلك التي كانت لديه؛ أي أنها مصدر للثقافة وخلق الوعي ودعم الوحدة الفكرية بين أفراد المجتمع، ويمكن الحوار التلاميذ من زيادة خبراتهم الشخصية عن طريق منافذ المعرفة المختلفة؛ لأن هذه الخبرات تمنحهم فرصة للحديث، وتجلب لهم التفات الآخرين، والنظر إليهم نظرة تقدير واحترام، كما تنمى معلومات التلاميذ وثرواتهم اللغوية، وتحثهم على البحث والاطلاع.

٨- يساعد الحوار على تنمية الجانب القيادي لدى الطلاب؛ حيث يشعرهم بكيانهم الاجتماعي وسط جماعة الرفاق، وباستقلال شخصياتهم وتفردها، حين يعبرون عن مشاعرهم، أو حين يتكلمون بدلًا منهم. كما أنه يساعد على اكتشاف الطلاب الموهوبين ومساعدتهم؛ لتنمية تلك الموهبة إلى أقصى حد ممكن.

٩- الحوار فرصة لاكتساب التلاميذ مجالات اللياقة الاجتماعية في التحدث، واكتساب آداب التحدث مع الآخرين، والسيطرة على الصوت، وتنويع طبقاته، وتدريب التلاميذ كذلك على كيفية الوقوف للتحدث والهيئة التي يكون علها الشخص وهو يقف أمام الآخرين.

١٠- تكسب الحوار التلاميذ بعض المبادئ الأخلاقية، ويمكن المعلم من تعديل بعض الممارسات والسلوكيات غير السوية.

١١- تعويد التلاميذ الجرأة، والارتجال، وسرعة الخاطر، والاعتماد على النفس في الحصول على المعلومات، وحرية النقد[١].

خصائص الحوار التربوي:

١- أن يقوم الحوار على التواضع، أما إذا تعالى كل طرف على الآخر واتهمه بالجهل؛

---

(١) بثينة محمود محمد: مرجع سابق، ص ٨٦.

فسيتحول الحوار إلى نزاع بين الأطراف المتحاورة، ويصبح مجرد صيحات وصراع. وقد ينتهي بالعداوة والكراهية والإحباط وتبادل الاتهامات ومحاولات الانتصار على الخصم.

٢- الحوار الجيد يقوم على الحب؛ فيصعب تواجده في غيبة الحب، كما يجب أن يقوم الحوار على الإيمان واحترام الآراء، ويساعد على نشر الحب، ويجنب أصحابه العنف والانفعال والكراهية والتسلق والمبالغة؛ وبذلك يوجد فريقًا متعاونًا يتبادل أفراده الحب، ويفهم كل منهم الآخر، وهذا هو الحوار الناضج.

٣- إعطاء كل الأفراد حق التحاور، مع احترام وجهات النظر المعارضة غير أن حرية إبداء الرأي لا تعني الهجوم على الأطراف المعارضة لمجرد الاختلاف؛ أي يجب أن يعرف التلاميذ - بوضوح - أنه من واجب كل فرد أن يستمع إلى زملائه وهم يتحدثون أو يعبرون عن أفكارهم.

٤- الحوار الجيد يساعد على بناء علاقات جادة بين التلاميذ بعضهم وبعض، وبينهم وبين المعلم، ويكتسب التلميذ ثقة بالنفس، وإدراكًا عميقًا لحقه في الاختلاف مع الآخرين، وحق الآخرين في الاختلاف معه، كما أنه يكسب التلاميذ أسلوبًا جديدًا في معالجة أمور حياته.

٥-الحوار الجيد لا يتناول الفكرة باعتبارها مسلمة أو بدهية، وإنما يتناولها بالتحليل والنقد؛ مما يكسبها أبعادًا جديدة أكثر عمقًا، وهذه الأبعاد لا يمكن اكتسابها إذا كانت من طرف واحد، وإنما تكتسب من أفكار التلاميذ واتجاهاتهم المتعددة، وهذا بالطبع يبرز الفكرة.

٦- الحوار الجيد يقوم بين أفراد واعين قادرين على تحليل المواقف بشكل مرن متحرر من التمسك والتعصب بالأفكار الشخصية؛ يساعد فيه المعلم تلاميذه على أن يفسروا ويستنتجوا؛ معتمدين على معرفتهم بالمعلومات السابقة.

٧- يعتمد الحوار الجيد على لياقة التلاميذ المتحاورين، وكياستهم وإحساسهم بالمسئولية نحو أنفسهم ونحو الجماعة.

٨- يتسم الحوار بالبعد عن الاتجاهات الجدلية، وكذلك البعد عن السفسطة التي لا طائل من ورائها؛ مما يساعد كذلك على إصلاح الأفكار الخطأ الهدامة، وترسيخ الأفكار البناءه المثمرة.

٩- الحوار الجيد تتوافر فيه الدوافع النفسية التي تثير حماس التلاميذ، وتصور عبارته وأفكاره حسب مشاعر التلاميذ، وتنبع من نشاط تفكيرهم لا تفكير غيرهم، وتبرز ميولهم في صدق و إخلاص[1].

١١- في الحوار الناجح يجب أن يتكلم التلاميذ أكثر من المعلم، على أن يتم تبادل الأفكار الموجهة نحو تحقيق هدف معين.

وبعد أن أبرزنا أهمية الحوار في الجانب التعليمي (التدريس) وخصائص الحوار التربوي الجيد، فإننا نتناول أثر وسائل الحوار في مجال التربية وذلك فيما يلي..

ثانيًا: أثر وسائل الحوار في مجال التربية:

سنتناول فيما يلي وسائل الحوار وأثرها في مجال التربية، وكيفية إسهام الحوار في التربية الصحيحة على نحو ما يمكن توضيحه فيما يلي:

الوسيلة الأولى: التبليغ بالقول (الكلمة) وأثره:

إن تبليغ الدعوة بالكلمة يمثل المرتكز الأول لنشر الدعوة إلى الله وبثها في الناس موالين كانوا أم معادين، وقد كان التبليغ بالكلمة، وهو منهج النبيين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، ونزل كتاب الله سبحانه وتعالى إلى محمد ﷺ وأمره جل وعلا بتبليغ ما فيه لأقرب الناس إليه، قال تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ثم وسع له دائرة الدعوة، فأمره بإعلانها وأخبره بحمايته من المستهزئين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

(١) بثينة محمود محمد: مرجع سابق، ص ٩٣.

إن كنتم تعلمون (٩٥) ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٦].

ويبين رسول ﷺ منهجه في الدعوة بقوله تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف: ١٠٨]. واستجابة لأمر الله بقوله: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [النحل: ١٢٥].

واستخدام الكلمة في الدعوة إلى الله له أنواع عديدة، وهذه الأنواع كما ذكرها صاحب فقه الدعوة يمكن تفصيلها على النحو التالي:

١- الخطبة:

والخطبة لون من ألوان القول يحشد له الخطيب من الأسباب ما يمكنه من التأثير في سامعية وجذبهم إلى جانب ما يدعوهم إليه عن طريق:

أ- الإقناع بما يسوق من حجج وبراهين.

ب- الإمتاع بحسن اختيار الكلمات وجميل العبارات وملائم الإشارة والدقة في اختيار الموضوع الذي يشد اهتمام الناس مع حسن سمت الخطبة وجميل صوته وقدرته على إجادة فني الوصل والفصل في الكلام(١).

وللخطيب مؤهلات فطرية: تنحصر هذه المؤهلات في عنصرين اثنين هما:

أ- العقل السليم.

ب- اللسان المبين(٢).

واللبنات التي تقوم عليها الخطابة:

أ- المجادلات والمحاورات ووسائل الإقناع من حجة ومنطق وبرهان، وشواهد

(١) علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة الى الله، ج١، ص ١٦٩

(٢) عبد الرحمن خليف: كيف تكون خطيبًا، ص ٧٧.

لذلك علَّم الإسلام الناس أصول الحوار للوصول إلى الحق، وعلمهم كيف يحتجون وينافحون عن الحق والقرآن هو أعظم مدرسة لتبيين مناهج الحوار لإظهار الحق.

ب- بساطة الأسلوب ولذلك كانت كلمات القرآن سهلة ميسرة ليس فيها إغراب ولا بعد في المعاني.

ج- الاختصار والتركيز لأن آفة الخطابة التطويل خشية الإملال، ولذلك نلاحظ أن أسلوب الإيجاز هو الوارد في القرآن وهو الغالب.

٢- المحاضرة:

أسلوب من أساليب القول يجالس فيه المتحدث من يتحدث إليهم ويتكلم معهم بما يحضره، ولذلك سميت محاضرة، ويقال فلان حسن الحاضرة أي مجيد لحديثه مع الناس من حيث تنويرهم وإقناعم بما يقول[1]. والمحاضر يطرح موضوعًا معينًا، وله هدف معين من هذا النوع، وعدة المحاضر هي:

١- المعرفة الجيدة بالمنهج العلمي.

٢- التدقيق في اختيار موضوع المحاضرة بحيث يكون مما يشغل المخاطبين في حاضرهم ومستقبلهم.

٣- استعمال الألفاظ العلمية الدقيقة الواضحة الدلالة، والابتعاد عن الألفاظ الموهمة أو الفضفاضة التي تحتمل وجوهًا عديدة.

٤- الابتعاد عن التصوير الخيالي للمعاني.

٥- أن يكون موضوع المحاضرة ولغتها والحوار الدائر فيها من جانب المحاضر ملائما لمستوى السامعين ولطبائعهم وظروفهم الاجتماعية والسياسية والثقافية؛ حتى تحقق المحاضرة هدفها وحتى يتأسى المحاضر بأدب مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وهو من أبرز علامات التوفيق في المتكلم أيا كان نوع كلامه.

---

(١) علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة إلى الله، ج ١، ص ١٧٣.

٣- الدرس:

هو دعوة إلى الله بالكلمة عن طريق حلقة تعقد مع عدد من الناس حضروا إلى مَنْ يدرس قصدا في أي مكان ملائم، والدرس وسيلة مهمة من وسائل تفقيه الناس في أمور دينهم ودنياهم، كما أنه وسيلة جيدة لإيجاد علاقات وروابط بين المهتمين بشئون دينهم من الناس ولابد أن يختار موضوع الدرس بدقة وعناية بحيث يحقق ملاءمة ويثير اهتماما لجمهور الناس الذين يتلقون الدرس، ولكي ينجح الدرس لا بد له من أمور:

١- أن تكون لغته سهلة وألفاظه خالية من الغريب.

٢- العبارات واضحة تنقل المعاني إلى ذهن السامع دون إسراف أو التزويق.

٣- الاستشهاد بالأمثال والقصص للسابقين.

ومن أهداف الدروس:

١- محاورة الناس وسؤالهم والإجابة على أسئلتهم.

٢- التأثير في الناس وربطهم بالعقيدة الصحيحة.

٣- تقرير مفاهيم صحيحة وتصحيح مفاهيم خاطئة.

٤- غرس القيم الفاضلة والأخلاق.

وعند النظر إلى الخطبة والمحاضرة والدرس ومراجعة ما ورد في القرآن الكريم من حوار بين الأنبياء وأقوامهم نجد أنه يحتمل الأساليب الثلاثة فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يسميه المفسرون خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه وبراعته في إقامة الحجة عليهم ودحض حججهم، وقد جاءهم بينة من ربه على صدقه فيما يدعو إليه[1].

ونوح قد نوَّع في وسيلة دعوته ومواعيدها حتى لكأنه كان يتعهدهم بدروس مستمرة أثمرت مع فئة قليلة وفشلت مع الباقية.

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ، ص ١٤٥.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطابه مع فرعون وملئه يبدو وكأنه يلقي عليهم محاضرات يبين فيها دعوته وصفات إلهه ويتحداهم بالمعجزات.

٤- الرسالة:

وهي استخدام الكلمة في الكتابة إلى الغير ودعوته إلى الله وإلى الحق من خلال هذه الكتابة أو عقد صلة مودة مع الآخرين. ولا بد من تحديد هدف الرسالة والموضوع الذي تدور حوله وينبغي أن يكون مثيرا لاهتمام المرسل إليه، ولا بد لكي تحقق الرسالة هدفها من أمور:

١- أن تكون لغتها سهلة واضحة للمرسل إليه.

٢- أن يكون تعبيرها جميلا وأسلوبها لطيفا رقيقا.

٣- أن تحتوى على موضوع الرسالة (ويبتعد فيه عن الاستفزاز)[1].

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع المثل في استخدام هذه الوسيلة لتبليغ دعوة الله ومن ذلك رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم وكان نصها[2].

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وفي القرآن ذكر لنا تعالى أن سليمان قد استخدم هذه الوسيلة مع بلقيس حين أرسل لها رسالة مع الهدهد ألقاها إليها يدعوها فيها إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٢٩-٣١).

---

(١) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ١٥١.

(٢) علي عبد الحليم محمود: عالمية الدعوة الإسلامية، ج٢، ص ٤٦٩.

٥- المقالة:

وهي فن من فنون القول كالرسالة، وهي وسيلة جيدة لعرض الفكرة والمشاعر في موضوع من الموضوعات المهمة بأسلوب متقبل جذاب (والمقال المثمر هو الذي يلامس حاجة الفرد، ويمس قضايا الأمة، ويبتعد عن الألفاظ الصعبة، وهو المتوسط فليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، وهو الذي يختار له صاحبه عنوانا جذابا براقا يجذب العيون، ويستحب للمقال المثمر أن يكون مقسما ومجزءًا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وأن يكون ذا عناوين هامشية لكل فقرة، فذلك أدعى للقراءة وأحب للقارئ[١].

٦-الكتاب:

وهو وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، وفي إنزال الله تعالى الكتب على الأنبياء إشارة إلى خطورة هذه الرسالة، فإن لكل أمة كتاب ومنهج، وقد كان قرآننا كتابا خالدا محفوظا من التبديل والتغيير. ولذلك نهج السلف في تأليف الكتب يبينون أفكارهم وينشرون علومهم ويثبتون عقائدهم ليتوارثها الأجيال فتكون علما ينتفع به.

وإن بعض أصحاب المنكر من لا يستطيع بعض الدعاة إقناعهم بسبب فارق الثقافة الشاسع يمكن لهم استخدام الكتاب ليتكلم عنهم ويقوم بعملية إقامة الحجة على صاحب المنكر، وقد يهتدى بسببه[٢].

الوسيلة الثانية: التبليغ بالعمل وأثره:

تعني هذه الوسيلة أن على المحاور أن يلجأ إلى الأسلوب العملي القائم على تلبية احتياجات الناس في إصلاح حالهم أو إبعاد الشرور عنهم وحمايتهم من كل ما يفسد عليهم أمور دينهم، وعلى ذلك فالتبليغ بالعمل يتناول مناشط وهي:

١- الأمر بالمعروف.

٢- النهي عن المنكر. وهما وسيلتان قوليتان عمليتان.

---

(١) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ١٦٥.
(٢) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ١٦٣.

وذلك لتكون حياة الناس على هذه الأرض آمنة مطمئنة منتجة نافعة، تصلح الدنيا وتعد للآخرة وسواء أكان هؤلاء الذين يعيشون هذه الحياة داخلين في الدين الإسلامي منتمين إليه أم كانوا يعيشون في كنف نظامه وتحت مظلته فلا فرق لأن الحياة الإنسانية يجب أن تكون كريمة آمنة منتجة نافعة لكل أحد، فلابد من وجود أنظمة تسير هذه الجماعة، وهذه الأنظمة لا يمكن أن ينفذها المسلمون أو يقوموا على أمرها إلا إذا كانوا أصحاب قوة وشجاعة وتضحية؛ فبذلك يمكن الله لهم دينهم الذي ارتضى[1].

مبادئ عامة للأمر المعروف والنهي عن المنكر:

١- أن عامة المسلمين مطالبون بأن يأمر كل واحد منهم بالمعروف وينهى عن المنكر في حدود قدرته.

٢- أن جماعة من المسلمين لا بد أن تتحد وتمارس هذا الواجب وذلك هو الحد الأدنى.

٣- أن الالتزام به يحقق الأمن والرخاء ويوجب الجنة.

٤- أنه يحتاج إلى قوة ومنعة لأطر الناس على الحق أطرًا.

٥- أن التخلي عنه يوجب عذاب الله ومنع المغفرة وعدم استجابة الدعاء.

مراتب ودرجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- التعرف على وجود المنكر والتأكد منه بلا تجسس.

٢- التعريف بالمنكر فقد يقدم عليه بجهل.

٣- النهي بالوعظ والنصح والتخويف من الله.

٤- التعنيف بالقول الغليظ عند العجز عن اللين وعدم جدواه.

٥- التغيير باليد بحيث يبطل صلاحية المنكر.

---

(١) علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة إلى الله، ج١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ «بتصرف».

والتغيير باليد له قيود:

أ- تعذر الإنكار بغيره.

ب- غلبة الظن بإحداث منكر أشد منه.

جـ- توافر القدرة[١].

٦- التهديد والتخويف.

٧- مباشرة الضرب باليد فإذا اندفع المنكر كف[٢] ومع أن الأصل في دعوة الناس هو الرفق والمداراة إلا أن بعض الناس لا ينفع معه الرفق بل إن الرفق يجعله يتمادى في منكره ويجعله يتجرأ ويستخدم يده لضرب صاحب الإنكار وربما أثر إعلانه بمنكره على بعض الضعاف فيجعلهم يتشجعون لفعل المنكر جهارًا أمام الناس خاصة إذا كان منكره يحمل طعنًا في العقيدة وفي مثل هذا الوضع لابد لصاحب الإنكار أن يقوم بزجر صاحب المنكر وأن يريه غضبه على ذلك حتى يكون هذا سببًا لردعه عن التمادى في منكره[٣].

والحق أن علماء الأمة لم يلجأوا إلى التعنيف والتهديد إلا عند كثرة الجدال وعدم الرغبة في الإيمان وظهور التحدي والعناد من أقوامهم ثم انتظار العذاب من الله، ولم يقتصر الأمر في ذلك على الأنبياء بل هذا حال المصلحين في كل زمان ومكان.

وخير مثال نسوقه على ذلك قصة أصحاب القرية الذين يعدون في السبت فقد بين تعالى في قصتهم وحوارهم مع الآخرين بالمعروف الناهي عن المنكر عدم استجابتهم لهم والعقوبة التي حلت بهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

(١) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ١٢٨.
(٢) د. علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة إلى الله، ج١، ص ١٤٦.
(٣) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ١٢٨.

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٨].

الوسيلة الثالثة: التبليغ بالقدوة ودوره:

إذا توافر الفكر النير ثم الكلمة الطيبة جاء دور العمل الصالح نعمله ونجعل من أنفسنا فيه للناس أسوة حسنة ومثالا يحتذى به، فما لم نحول ما ندعو إليه إلى سلوك عملي لنا وحياة نحياها بقلوبنا ووجداننا بسلوكنا ونهجنا فيدرك المخاطبون إخلاصنا وصدق نياتنا من خلال الروح السارية في كلماتنا والمؤكدة بالسلوك العملي لنا، فإننا لن نجد من يصغي إلينا وكذلك عصم الله أنبياءه من سائر المنفرات ونشأهم على السلوك الحسن قبل النبوة وبعدها عصمهم من الذنوب[1]؛ لأن القدوة الحسنة من أهم وسائل الدعوة، وهي وسيلة عملية ناجحة تضع أمام المدعو صورة حية يستطيع أن يقتدى بها، غير أن هذا الأسلوب محفوف بالمحاذير التي منها:

١- غرور الداعي أو إعجابه بنفسه أو عمله:

إن إعجاب الإنسان بنفسه والنظر إليها بعين الكمال والفخر والتطاول على الناس بالعلم والصلاح أو الجاه أو المال خلق ذميم يجعل صاحبه ممتنعًا عن قبول الإصلاح من جهة، ويزرع العداوة والبغضاء بينه وبين الناس[2].

٢- ربط الناس بالأشخاص لا بالمبادئ.

٣- عدم تطابق ظاهر بعض الدعاة مع بواطنهم.

---

(١) طه جابر العلواني: الدعوة الإسلامية: الوسائل ـ الخطط ـ المداخل، ص ٧٨.
(٢) سيد سابق: دعوة الإسلام، ص ٢٠٤.

وقد عدّ العلماء هذه الأمور آفة الدين التي تصيب الناس بالشك لا في الدعاة، ولكن في الدعوات ذاتها[١]، ولكن لكي يتجنب الداعية هذه المحاذير لابد له من:

١- عمق الإيمان بالله وحسن الصلة به.

٢- دقة الفهم لعمله ودعوته.

٣- المداومة على العمل الصالح وحب الخير للناس.

٤- النصيحة بالوقت والجهد والمال في سبيل الدعوة.

٥- التواضع لله والاعتراف بالتقصير.

٦- حسن الخلق والتأسي برسول الله.

٧- مراقبة الله سبحانه وتعالى في كل عمل وقول.

٨- الاجتهاد لمصلحة المسلمين ودفع الضر عنهم[٢].

الوسيلة الرابعة: أسلوب الشرح والتفسير لأصول الدعوة، وأثره:

إن القرآن الكريم كله في مجمله شرح وتفسير وعرض لأصول الدعوة إلى الله وجميع الحقائق الدينية التي تتصل بذات الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر والحقائق التي تتصل بالشريعة والمنهج تحدث عنها القرآن إجمالا وتفصيلا، ومن خلال إثبات هذه الحقائق وذكر حججها وبراهينها؛ يكون عرضها وعرض مبادئها وآدابها، وهذه أمثلة لما ورد في القرآن من حوارات حول هذه القضايا لشرحها، وتفسيرها:

١- العقيدة في ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر. فقد ذكر تعالى في سورة طه في تفسير موسى وهارون لفرعون وشرحهم لمعنى كلمة الرب التي استغلقت عليه قال سبحانه ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٩].

---

(١) أحمد فائز: طريق الدعوة في ظلال القرآن، ج١، ص ٥٥.

(٢) علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة إلى الله، ج١، ص ص ٢٣٦ـ ٢٣٧.

٢- العبادة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وحج ونوافل وقربات. لقد ذكر تعالى الحوار حول القبلة وتحويلها فقال جل وعلا: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [[البقرة: ١٤٢].

٣- المعاملات الإسلامية من عقود كالزواج والطلاق والبيع والرهن والمواريث وغيرها، وهذه الأحكام قد بينها الله تعالى في القرآن لأن المسلمين كانوا يحتاجون إلى معرفتها، ليسألوا رسول الله ﷺ في أمر النساء قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٢٧].

وفي الإنفاق قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخْتٞ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

٤- الحدود والقصاص والحرابة وقتال أهل البغي والجهاد في سبيل الله. ومن الحوارات في هذه الموضوعات ما ورد في سؤالهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى في الزمان والمكان إنه شرح مفصل وتفسير لما استغلق عليهم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٥- كل ما يتصل بالفضائل ما فرض فيها وما ندب إليها مثل الصدق والوفاء والعفة

والأمانة وصلة الأرحام والبر والصبر والشجاعة وإكرام الضيف وغوث الملهوف وعون المحتاج والرضا.

كما بين تعالى بعض الصفات المذمومة التي يجب على الإنسان الابتعاد عنها، فمن الصفات التي ذكرها الله تعالى الرضا، ويشير القرآن الكريم في أكثر من موطن إلى أن الرضا المحمود الجميل الطيب الأثر هو الرضا بما يأتي به الله وبما يأمر به وبما عند الله أما ارتضاء غير هذا مما يخالف أمر الله وحكمه فهو رضا مذموم ومشؤوم، ولذلك جاء في سورة التوبة على سبيل التعريض والمؤاخذة(١). ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]. وجاء فيها أيضًا: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣]. ويوجه الله المنحرفين إلى طريق الرضا السليم فيقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩]. فأساليب العرض لم تخرج عن استخدام أحد الأساليب التالية:

١- الأسلوب القصصي للوصول إلى نتيجة معينة للعبرة أو التهديد أو النصح.

٢- أسلوب إثارة بالسؤال لشد انتباه المخاطبين.

٣- أسلوب التسلسل لمساعدة المخاطبين على فهم نقاط الموضوع والوصول إلى النتائج(٢).

الوسيلة الخامسة: أسلوب الرد على الشبهات والمفتريات:

جرت عادة الناس وغلب عليهم منذ أن جاءتهم الأنبياء والرسل بالدين السماوي أن يقف عدد كبير أغلبهم من أصحاب الجاه والسلطان موقف العناد والرفض والتكذيب للرسل متهمين الحق مفترين عليه، فما سلم نبي من تهمة توجه إليه أو إلى ما جاء به، وتظل

(١) أحمد الشرباصي: أخلاق القرآن، ص ٦٤.

(٢) راكان عبد الكريم حبيب: طرق الخطابة والألفاظ، ص ص ٩٧ - ١٠٠.

هذه الشبه والمفتريات حائلا بين بعض الناس، والدخول في صفوف الحق لذلك لابد من دفع هذه الأباطيل حتى يتمكن أصحاب الفكر السوي من رؤية الحق والتمسك به، وقد اتبع هذا الأسلوب القرآن الكريم في كثير من مواضعه، ورد على كثير من الأباطيل والمفتريات والشبه التي تثار؛ والتي قد تكون أحيانا:

١- ضد الله عَزَّوَجَلَّ وتأليف الأكاذيب من اليهود والنصارى قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران ١٨٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

٢- ضد القرآن الكريم نفسه في أنه من عند غير الله وأنه أساطير الأولين وأنه ملفق من الأديان التي سبقته وأنه مفترى قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣-١٤].

٣- ضد الرسول ﷺ من أنه اختلق القرآن، وطعنوا في الوحي، واعتبروه صرعًا وأن الذي علمه القرآن أحد الروم، وأنه بشر أو أنه لا بد أن يكون ملك.. إلى آخر ذلك. ومثال ذلك ما حكاه القرآن الكريم في هذه القضية قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ٩-١٠].

ونرى كيف رد عليهم القرآن أروع رد؛ لأنه، لو كان على هيئة ملك لم يستطيعوا رؤيته ولو كان على هيئة البشر ما صدقوه، فالنتيجة واحدة، وقد بين تعالى في مكان

آخر الرد عليهم حيث قال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

الوسيلة السادسة: أسلوب التعهد والتربية والإعداد وأثره:

يقوم هذا الأسلوب على تعهد المدعو وعقد صلة طيبة به وربطه بالدعوة ربطًا وثيقا وتربيته وفق منهج الإسلام تربية تستوعب كل جوانب شخصيته وتعهده بالنماء والاستقامة.

هذه التربية تعد المسلم للقيام بكل عمل يتطلبه منه الإسلام في أي مجال من مجالات العمل وبالرغم من أن طريقها أطول وأسلوبها أصعب إلا أنه الأسلوب الأمثل والأهدى والأقدر على الوصول إلى الهدف بأمان وسلام.

وقد تعهد الله سبحانه وتعالى أنبياءه عليهم السلام بتربيتهم والاعتناء بهم ويكفينا مثالا على ذلك تعهده لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منذ ولادته وأثناء دعوته قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٧-٤٠].

وقال سبحانه في سورة القصص: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]. وبلوغ الأشد الذي ورد في حق الأنبياء معناه أنهم بلغوا من تعهد الله لهم وتربيته، وإعداده الحد الذي جعلهم أهلا لتحمل أعباء الرسالة، وما يترتب على ذلك من مواجهة الناس، ومحاولة لنقلهم من الضلال إلى الهدى(١).

---

(١) علي عبد الحليم محمود: فقه الدعوة إلى الله، ج١، ص ٢٢٦.

وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤٠-٤١]. إنها عبارات تدل دلالة واضحة على رعاية الله المستمرة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى هذه المرحلة ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد حتى عند بعثه لفرعون وإحساس موسى بالخوف تجيء كلمات الله ورحمته؛ لتقوى موسى في هذه المواقف يقول تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٥-٤٦]. وتستمر العناية الإلهية ويبدو ذلك واضحا عند خوف موسى ساعة لقائه بالسحرة وتحديهم؛ ليجيء الاطمئنان لقلبه يقول تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٧-٦٨]. ولذلك كان موسى في غاية الثقة من معية الله يقول له قومه ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] فيقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهذه العناية الإلهية قد تولى الله بها سبحانه أنبياءه الكرام فها هو يحمي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من القتل ويمكّنه من خزائن الأرض، ويقر عين أبيه به، وهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يحميه فترة دعوته ويكون معه عند صناعة الفلك وينجيه، وهذا يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يربيه عند خطأه ويحفظه في بطن الحوت وينصره، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوة في الحجة وذكاء للنقاش وحماية من النار وطمأنينة في القلب وعناية مدة الحياة وحفظ له ولذريته.

وهذه رعاية دائمة في كل فترة من فترات الحياة مادامت الدعوة قائمة.

الوسيلة الثامنة: أسلوب الترهيب والتهديد وأثره:

الترهيب: كل ما يخوف المدعو ويحذره من الاستجابة للباطل وقبوله والبعد عنه بعد معرفته(١).

إن غرض الدعوة بهذا الأسلوب يجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن، فالنفس البشرية تؤثر السلامة على الخوف والخطر، والرجاء أعلى

---

(١) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٤٢١.

منزلة من الخوف، والعمل على الرجاء أفضل منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله أحبهم إليه.

ولكن من الناس من لا يستجيب إلا إذا خوّف، وهدد وسبحان الله في خلقه، وفيما فطرهم عليه، إن خوف الله ينبني على العلم بالله، ومعرفته وأخوف الناس لربهم أعرفهم بربه وبنفسه (فالمؤمن حقًّا هو الذي يخاف ربه ويرجو رحمته وعفوه). فالخوف من الله هو اللجام القامع عن المعاصي وسببه معرفة شدة عذاب الله ويسمى خشية ورهبة وتقوى، فالمؤمن يخاف من ذنوبه ويخشى الخاتمة(١).

وقد قال بعض السلف: (الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله، وإذا كان الإنسان لا سعادة له إلا في لقاء ربه والقرب منه ولا قرب من الله إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا محبة بغير معرفة ولا معرفة إلا بدوام الفكر ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا مواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع الشهوات ولا قطع للشهوات بشيء كالخوف فهو النار المحرقة للشهوات)(٢).

وللترهيب طرق عديدة فمن طرقه:

١- التخويف من غضب الله وعذابه في الدنيا وعند الموت، وفي الآخرة عند الحساب وبعده من النار، وما يصيب الإنسان في الدنيا من الخوف والجوع والفزع وبيان أحوال الأمم السابقة البائسة، وبالتحذير من عدم نيل الدرجات العالية في الجنة ومرافقة الأنبياء والشهداء والصالحين(٣).

فالخوف وسيلة للرجوع إلى الجادة وترك المعاصي لذلك استخدم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه هذا الأسلوب قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

---

(١) أحمد محمد طاحون: مرشد الدعاة إلى الله، ص ٣٤٧.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص ١٣٩ «بتصرف».

(٣) هشام يوسف محمد بنان: المنهج الدعوي في أصول المحاضرة الدعوية، ص ٢٤٩، وانظر أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان، ص ٤٢١ وما بعدها.

وبين الله تعالى عاقبة الذين ادعوا أن الله هو المسيح بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ترهيبًا لهم من مقالتهم وتهديدًا حتى يعودوا، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يبين حبه لأبيه وخوفه عليه ولعل هذه المشاعر تكون سببا في رجوعه إلى الله وخوفه من عذاب الله يقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٧].

٢- ومن أساليب الترهيب ذكر أهوال يوم القيامة وعذاب النار.

ومن ذلك ما ورد في حوار ابنى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٢٩].

إنها صورة مرسومة بمنتهى الدقة تنقلنا إلى موقع الأحداث كأننا نرى الأخوين وهما يتحادثان أحدهما تظهر عليه سمات الخير والصلاح ولا يملك إلا لسانه يتحدث به يستثير الخير في أخيه يخوفه بالله، والآخر يتطاير الشرر من عينيه والحقد من حركاته والحسد في لفتاته ويصر على موقفه، فتصف لنا الآيات ذلك: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠]. ولنا أن نتخيل طريقة القتل وأن نتخيل ندمه وحسرته وخسرانه بعد ما اقترفت يداه الإثم.

الوسيلة التاسعة: أسلوب الإقناع وأثره:

يعتبر الإقناع أحد الأساليب التي يستخدمها المحاور في حديثه للتأثير على المتحاورين و إقناعهم بالفكرة و إيجاد الحافز الذاتي للوصول إلى الغاية وتحقيق الهدف والحافز الذاتي هو: (القوة الداخلية للإنسان المحركة لعواطفه والموجهة لإرادته والدافعة له حتى يمارس سلوكًا معينًا داخليًا أو خارجيًا)[١].

وهناك أساليب أصلية تندرج تحتها كل الأساليب هي:

١- أسلوب الإقناع بالشخصية.

٢- أسلوب الإقناع بالعاطفة.

٣- أسلوب الإقناع بالمنطق.

وهذه الأساليب يتداخل بعضها مع بعض، وهي بمجموعها يكمل بعضها بعضا، ولا يدل ترتيبها على حسب الأهمية بل إن هناك بعض الأساليب يتحتم استخدامها، وهذه الأساليب هي:

الأسلوب الأول من أساليب الإقناع: التعبير:

التعبير هو الحديث الذي يتكلم به المحاور لفظًا ومعنى، وأساس هذا الأسلوب التحدث باللغة العربية الفصحى و(إذا استطاع المحاور أن يبسط حديثه بشكل يفهمه الناس فليفعل، و إن لم يستطع تكلم معهم باللهجة أو اللغة التي يفهمونها)[٢]. والمهم مراعاة عدم الإخلال في هذه الأمور حتى يكون اللفظ المنطوق على قدر المعنى المقصود والهدف المنشود دون زيادة أو نقصان، كما يراعى أن يكون اللفظ واضحًا قريب المعنى سهل الإدراك وألا يكون مبتذلا وألا يتكلف فيها حتى يكون أداؤه صادقا. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦].

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج١، ص ٢٠٢.
(٢) عبد الله علوان: مواقف الداعية التعبيرية، ص ٨.

وعلى المحاور أن يستفيد من تعبيره في ثلاثة أمور هي:

١- الخيال.

٢- السجع الجميل.

٣- الصورة.

فأما الخيال: فقد ضرب القرآن الكريم أروع المثل في إبداع التعبير؛ حيث يأتي ببعض الألفاظ ثم يترك للخيال أن يستكمل الصورة.

الأسلوب الثاني من أساليب الإقناع: التدرج التربوي وإيجاد الحلول:

يُعني هذا الأسلوب بتنمية الوجدان والضمير وهذا يحتاج إلى وقت ومثابرة وصبر وليس الأمر إلا لله إذا أراد شيئا قال له كن فيكون. ويتضمن هذا الأسلوب أيضًا إيجاد البديل عن كل ما ينهاهم عنه المحاور لكي يملأ الفراغ الذي أوجده في النفوس، ويكون بالحلول العملية لا المثالية التي ليس لها وجود على حيز الوجود وإن الآيات التي ذكرها الله تعالى عن نبيه لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه لتصف مشاعره وضيقه وتقديمه الحلول لهم وتحريك عقولهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٧-٧٨].

ويكفينا لتبين هذه الأسلوب أن نذهب بجولة مع مؤمن آل فرعون لنرى كيف يتدرج الإنكار على قومه درجة درجة حتى يفصح لهم في النهاية عن إيمانه الذي كان يكتمه كل هذا بأسلوب يمتلئ بالذكاء ودقة متناهية بالتدرج والإنكار[١]. فبعد قرار فرعون بقتل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [(غافر: ٢٦).

هنا قام رجل من آل فرعون يكتم إيمانه ليدافع عن موسى وليرد كيدهم عنه بأسلوب ذكي[٢] قام يلاين قومه ويرغبهم من ناحية ويخوفهم من عذاب الله من ناحية أخرى

(١) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ٨٤.
(٢) عبد الحميد البلالي: فقه الدعوة في إنكار المنكر، ص ٨٤.

بأسلوب عذب قوي[١] وبتدرج مدروس متقن في جولة مع أصحاب القرار بحوار قد قسمه إلى أقسام ودرجات وأخذهم معه درجة؛ كي يقروا ما يريد إنكاره عليهم.

لقد تفنن المؤمن في عرض حججه فساقها مرة في صورة استفهام ومرة في صورة الدليل العقلي، ويثبت لهم بالأدلة المنطقية أن الذي يدعونه لعبادته ليس له دعوة ولا يستطيع الاستجابة لمن دعاه ثم يعذر إليهم بقوله:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

الأسلوب الثالث من أساليب الإقناع: استخدام وسائل الإيضاح:

استخدام وسائل الإيضاح من أهم الأساليب لإفهام الآخرين فكرة معينة أو إثبات رأي على حسب قوة الوسيلة ودقة وبراعة المحاور في استخدامها وهي وسيلة لإقناع الطرف الآخر بإفهامه الجزئيات للوصول إلى قبوله للفكرة، وليست هناك وسائل خاصة بل إن الإنسان هو المحرك لجميع الوسائل، وفي هذا يقول عمارة نجيب:

(يُعد الإنسان أداة الدعوة الأولى ووسيلتها وهو كذلك لدى جميع الدعوات والمذاهب والاتجاهات، وقد يظن أن الوسائل الحديثة أصبحت أكثر تأثيرًا وفاعلية من الإنسان وهذا خطأ ظاهر لأن جميع الوسائل القديمة والحديثة المباشرة وغير المباشرة لو اجتمعت دون الإنسان لأصبحت فارغة المحتوى لا قيمة لها ولا أثر)[٢].

ووسائل الإيضاح قد تكون طبيعية من الكون حولنا، وقد تكون أجهزة أو تجارب علمية أو أدوات وقد تكون حسية أو معنوية.

وبالنسبة لأنبياء الله كانت وسائلهم الإيضاحية هي معجزاتهم لإظهار قدرة الله تعالى وإقناع المخاطبين بعبادته وتوحيده. ففرعون لم تقنعه هذه المعجزات واعتبرها سحرًا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ

(١) سيف الدين شاهين: أدب الحوار في الإسلام، ص ٨٨.
(٢) عمارة نجيب: فقه الدعوة والإسلام، ص ١٨٥.

يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٦-٥٩].

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يظهر وسيلته، ويتحدى فرعون، ويحدد الوقت، والطريقة التي تساعده على إظهار الحق.

وتظل الدعوة إلى الله هي الهدف الأسمى ويظل الحوار أروع وسيلة من وسائلها، ويظل تأثيرها قويا ما دام الحوار له هدف وغاية، وما دام المحاورون مخلصين في حوارهم، عندئذ يتعلم الناشئة كيف يتعلمون الحوار، وأدب الحوار، وتُنمى لدى التلاميذ في مراحل التعليم المختلفة القدرة على التفاهم والتحاور دونما جمود على رأي واحد أو فكرة ثابتة، إن الجانب التربوي يتحقق من خلال استخدام المعلم لطرق التدريس مثل الحوار والمناقشة والاكتشاف والتنقيب والعصف الذهني والتعلم الجماعي، وكلها تسهم في تدريب التلاميذ على استيعاب الأخر، والقدرة على الرد الصحيح الهادئ دونما انفعال أو تعصب أو اندفاع.

ومن ثمرات الحوار في التربية أن اعتياد الأبناء والناشئة الحوار يثبت الأفكار لديهم، ويجعلهم يقبلون على المناقشة بحب وشغف، وعندئذ يستمعون أكثر مما يتحدثون، ويتفاعلون بأدب ومراعاة لظروف الآخرين، ويتعلمون آداب الحوار التي عرضنا لها في الفصل الثالث، ويتعلمون كيفية الحوار مع الذات ومع الآخرين مما عرضنا له في الفصل الخامس، ويتعلمون مستقبل الحوار مع الحضارات الأخرى مما عرضنا له في الفصل السادس.

المبحث الثالث
ثمرات الحوار في مجال الثقافة والتعامل الحضاري مع الأمم الأخرى

أولا: الحوار وإسهاماته الثقافية في علاقة الإسلام بالغرب:

بداية لا بد أن ندرك: أن الثقافات العالمية بدأت تتلاقى؛ نتيجة ثورة وسائل الاتصال والانتقال. فالجهل المتبادل بالآخر على مستوى العالم لم يعد قائما.

كما أن الحواجز بين الشعوب والثقافات سقطت. وصار الناس في أجزاء مختلفة من العالم يتعرفون على بعضهم فيكتشفون أوجه الاختلاف والاتفاق.

كذلك هناك الإحساس المتبادل بين المجتمعات الإنسانية بوجود أخطار مشتركة على العالم كله تتجاوز حدود الثقافات والعقائد الدينية والقوميات. مثل أخطار العنف في العالم، ونفاد الموارد خصوصًا المياه، وتدمير البيئة نتيجة الإسراف في التصنيع(١).

وجاء في تمهيد كتاب: «الإسلام والمسيحية» لأليكسى جورافسكي: إن دوامة الحياة الإنسانية المعاصرة. تشكل في الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر.

فالنمو المتصاعد للنقل النوعي للبلدان النامية في الاقتصاد العالمي، وفي السياسة الدولية، ونهضتها الثقافية التجديدية سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها أو بتنشيط التراث الثقافي التقليدي لهذه البلدان وإحيائه مجددًا، والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية التقنية.

وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى، وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجماهيرى، والسياحة العامة على نطاق جماهيري. كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم، وغيرت رؤية الناس وإدراكهم لهذا العالم الجديد أيضًا.

---

(١) الدكتور أحمد كمال أبو المجد: الاتجاه إلى حوار إسلامي غربي، جريدة الحياة، الجمعة، ٢١ مارس ١٩٩٧، ص ١٨.

وبالإضافة إلى ذلك فإن تطور العلم الذي أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهامًا كبيرًا خاصة في ميادين: التاريخ، والإنثوغرافيا، والإنتروبولوجيا، وعلم النفس؛ أغنى كثيرا الرصد العقلي لإنسانية جمعاء؛ بحيث ساعد بدوره على تكوين نمط جديد من التفكير، وظهور أساليب وطرق متجددة مبدعة في دراسة الكون، ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية(١).

وقد لا يخفى على باحث أن: ابتعاث رسول الله ﷺ كان منعطفا تاريخيا في حياة الناس جميعا، وتحولا حضاريا متميزا في نهج حياتهم وتعاملهم. تحول الخطاب فيه من قومية الأديان ومحدودية مقاصدها، إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته وتكامل مقاصده، ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية وتعاون مجتمعاتها.

حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني فكرة المجتمع الإنساني الواحد (يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب).

كما سمعوا أيضًا لأول مرة فكرة التعايش السلمي بينهم من غير تمايز بينهم على اختلاف أقوامهم وأجناسهم وأعراقهم وأديانهم وأوطانهم(٢).

وكان النبي ﷺ يعمل على نشر الإخاء الإنساني الذي يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين. لذا نجد الرسول ﷺ يعقد مع اليهود حلفًا أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة، ودفع الأذى وحماية المدينة من كل اعتداء ومنع الظلم، وردع المجرمين العابثين بالأمن، وأكد النبي ﷺ ذلك بالمواثيق.

والإسلام الحنيف لا يكتفي بمحو أسباب التفرق والنزاع بين الناس؛ بل يدعو إلى التسامح العام لشأن التسامح داوى القلوب المكلومة، ويجتذب النفوس النافرة.

فالإسلام منهج للناس جميعا، ومقاصده لخيرهم وفلاحهم، وخطابه لهم على اختلاف أقوامهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأديانهم.

---

(١) أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م، ص ١٨.

(٢) د. حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد، ط: كتاب دعوة الحق رقم ١٤٦، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، صفر ١٤١٥هـ، ص ص ٦٧ - ٦٩.

فهو تحول حضاري شامل ينتقل بالناس من ضيق القوميات، والأعراق، والأجناس، إلى سعة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعاتها في إطار منهجية المجتمع الإنساني الواحد، وفي إطار منهج التعاون بين الناس جميعًا على أساس من قيم ربهم(١).

ولا شك أن للغرب وحضارته علاقات ولقاءات بالمسلمين وحضارتهم على مدى التاريخ. وقد يكون مفهوما لدى الباحثين أن المصالح الاقتصادية، والعلمية، والتقنية تتداخل لدرجة أن المصالح السياسية أحيانًا تبدو متشابكة بل ومشتركة في بعض الميادين.

ومما لا يخفى أن الإسلام قدم نظرة شاملة للكون والحياة والإنسان. وأن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر في كل زمان ومكان.

وهذه النظرة تشمل الأخلاق، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، ومن هذه المنطلقات قامت الحضارة الإسلامية على مبدأين مهمين: هما التغيير والاستشراف.

ولعل فواتح كتب الرسول ﷺ إلى إمبراطور الروم وكسرى الفرس توضح هذين المبدأين.

فقد جاء في رسائل الرسول ﷺ بعد المقدمة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ إسلامية في علاقات المسلمين بالغرب:

- مبدأ الاعتراف بالآخرين.
- مبدأ الحوار وأهميته.
- مبدأ احترام المشيئة الذاتية لدى الآخر.
- مبدأ استشراف المستقبل في ظل علاقات إنسانية سامية.

وفي تاريخ التفاعل المتبادل بين الشرق الإسلامي والغرب. لعبت العلاقات الإسلامية المسيحية دورًا خاصًا.

---

(١) د. حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ١٤٤.

فالمسيحيون والمسلمون على حد سواء كانوا يتصفون دائمًا بإدراكهم الرابطة الروحية المشتركة ـ وإن كانت محدودة الأبعاد ـ التي ترجع إلى التقليد الإبراهيمي الشرق أوسطي أو إلى الأرومة الإبراهيمية التوحيدية، وفي الوقت نفسه كانوا يدركون الاختلاف الجوهري بالنسبة لخبراتهم في المجال الثقافي الأيديولوجي.

وبدءًا من انتشار الإسلام ونشوء الخلافة الإسلامية ظهر التضاد الديني الأيديولوجي بين الغرب والمشرق العربي، ولكن عملية التواصل الثقافي بين الإسلام والغرب لم تنقطع كليًّا[١].

وإذا كان الإسلام يدعو إلى الحوار مع الغرب واللقاء بالغربيين؛ فقد كان هناك لقاء عملي تم بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي من خلال المؤسسات العلمية التي قامت في الأندلس.

حيث جاء أبناء الغرب من الجزر البريطانية، ومن فرنسا، وألمانيا، والأراضى المنخفضة وغيرها يأخذون عن المسلمين علومهم، وعادوا بها إلى بلادهم حيث استطاع الغرب بذلك أن يؤسس نهضة صناعية وزراعية.

وقد أرسل الملك جورج ملك بريطانيا وفدًا من بنات الأشراف الإنجليز؛ مكونًا من ثماني عشرة فتاة برئاسة ابنة أخيه الأميرة: «دوبونت».

ورافق الوفد أحد كبار موظفى القصر الملكي البريطاني هو النبيل سيف ديك، ومع الوفد هدية ثمينة للخليفة.

وجاء في رسالة الملك جورج إلى الخليفة الأموي بالأندلس بعد مقدمة ودية: « لقد سمعنا عن الرقى العظيم الذي تتمتع بفيضها الصادي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة. فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل؛ لتكون بداية في اقتفاء آثاركم لنشر أنوار العلم في بلادنا. وقد أرسلنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبونت) على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة،

---

(١) أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص ٢٧.

وعطف اللواتي سيتوفرن على تعليمهن. وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، وأرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص».

وعند وصول البعثة أمر الخليفة باستضافة جميع أعضائها والمرافقين في قصره و إحاطتهم بكامل الضيافة، وتخصيص نفقة مالية لكل منهم من بيت مال المسلمين. وبعث الخليفة هشام السادس آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس بخطاب جوابي إلى الملك البريطاني جاء فيه:

«لقد اطلعت على التماسكم فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقالة أبعث لكم بغالي الطنافس، وهي من صنع أبنائنا وهدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا، والسلام لله»(١).

والمتأمل - أعماقا وأبعادا - في علاقة الإسلام بالغرب. يجد أن المسلمين عندما شعروا بالتأخر الذي أصاب بلادهم بعد سقوط الخلافة العثمانية، وجدوا أن الفرصة مناسبة لتعلم علوم الغرب، ولذا كانت هناك محاولات تطويرية قامت في مصر على يد محمد علي، وامتدت بعد ذلك إلى كثير من بلاد المسلمين.

وقد سافر بعض الشباب المسلمين إلى إوربا، وأخيرا إلى أمريكا لطلب العلم؛ حيث استطاع كثيرون أن يكتسبوا علومًا، ونظما، وطرائق، في مجالات الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والطب والتربية، والإدارة، والعلوم الإنسانية، وعادوا إلى بلادهم يدعون إلى التقدم في مجالات الطب، والزراعة، والصناعة، والتعليم، والتنظيم الإداري(٢).

ومن المسلم به أن علاقة الإسلام بالغرب هي علاقة إنسانية تدفعها الرغبة في العيش الكريم، والسلام الشامل، بين جميع الناس. سيما وأن المسلمين يملكون حضارة هي في أساسها ومقوماتها حضارة إنسانية.

و إن وجود أقليات إسلامية في المجتمعات الأخرى، وفي الغرب بالذات. يساعد المسلمين على تحقيق حوار حضاري. وذلك بأن تكون الأقليات عنصرا فاعلا في النسيج الاجتماعي

(١) د. سعيد عطيه أبو عالي: الإسلام والغرب حوار لا صراع، ط: كتيب المجلة العربية، الرياض، العدد الأول محرم ١٤١٨ هـ، مايو ١٩٩٧، ص ص ١٣ - ١٥.
(٢) د. سعيد عطية أبو عالي: المرجع السابق، ص ١٥.

في كل بلد تعيش فيه هذه الأقليات. وذلك من خلال الإخلاص في العمل، والصدق في القول والوعد، والمبادرة إلى فعل الخير للآخرين، وإشباعه روح المودة في المجتمع الذي يعيشون فيه، واحترام عقائد الآخرين(١).

كذلك المراكز الثقافية الإسلامية تؤدي دورًا كبيرا في تقريب وجهات النظر.

ولابد أن نمد يد الصداقة لمؤسسات ومعاهد وجامعات في الغرب تعني بدراسة التراث الإسلامي وطريقة التفكير لدى المسلمين. مثل جامعة هارفارد، وجامعة بيل في أمريكا، وكامبردج، وأكسفورد، وجامعة لندن في بريطانيا، والسوربون ومعهد العالم العربي في فرنسا.

وقد ظهر عدد من القيادات الغربية يتحدثون عن الإسلام، ويحاولون أن يتحدثوا عنه بإنصاف، وفي مقدمتهم سمو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا.

ولهذا كان على أمتنا الإسلامية أن تنظر إلى الغرب من خلال فقه العلاقات الدولية، وفقه المصالح الإنسانية المشتركة، وفقه التعايش البشري، مع التنوع في الأديان والأعراق والأجناس. في إطار التدافع الإنساني لتحقيق المصالح، وصرف الفساد عن الأرض: وفق منهجية السياسات الشرعية لفقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه المصالح، وفقه الضرورات، وفقه الرخص والعزائم وغيرها(٢).

وإذا تم النظر إلى الغرب من خلال هذه المعالم أدركنا أن هناك عناصر اتفاق، وإحساسًا مشتركًا يكونان في النهاية بنية أخلاقية تحتية لحركة المجتمع الإنساني، وهذا يأخذنا إلى توضيح الفعال المثمر في تحقيق التفاعل الحضاري مع الأمم الأخرى من خلال التأكيد على الثمرات الثقافية للحوار مما سنعرض له فيما يلي:

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨ - ٣٠.
(٢) د. حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد، ص ٥٧.

ثانيا: الحوار ودوره الإعلامي والثقافي في التفاعل الحضاري مع الأمم الأخرى:

بوسعنا أن نورد هنا فاعلية الحوار ونتائجه وثمراته في مجال الإعلام عن ثقافة هذا الدين للآخرين، وأن الحوار فعال في تعريف غير المسلمين بالإسلام، ونقل الثقافة الإسلامية في صورتها النقية إليهم على نحو ما نفصله فيما يلي:

١- الحوار لأجل التقارب، وذلك بمسالك شتى منها:

أ- التنازل عن شيء من الدين أو أخذ شيء من دينهم لإتمام ديننا، يقول جمال الدين الأفغاني في خاطراته بعنوان نظرية الوحدة: (وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني، وعلى هذا لاح لي بارق كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها[١] وقد تبنى محمد عبده محاولة التقريب بين الإسلام والمسيحية وتفاوض مع القس الإنجليزى إسحاق تيلور، وقد أشار إلى ذلك رشيد رضا، ونشر رسالتين منها في الجزء الثاني من تاريخه، وبين اشتراك اليهود فيها[٢].

وقد ظهر هذا بشكل واضح في مؤتمر الحوار بلبنان عام ١٩٧٠ م إذ كتب مسيحي في التقارير في نهاية الحوار: (وفي الحوار يكشف الشخص المنتمى إلى عقيدة معينة وعلى الرغم من التزامه الديني أنه في احتياج إلى بعض النقاط التي تؤكد عليها بالأكثر عقيدة أخرى - وأوضح مسلم بعد ذلك - إن الإسلام وقد بدأ تاريخه من مركز قوة وانتصار يحتاج اليوم إلى الفكرة المسيحية عن الألم الذي هو طريق الانتصار)[٣] - فإنه إن عذر النصراني بقوله لتحريف دينه، فما عذر المسلم الذي أكمل الله له الدين، وأتم عليه النعمة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ

(١) مصطفى فوزى غزال: دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص ٢٤٧.
(٢) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م، ص ص٩٧-٩٨.
(٣) وليم سليمان: الحوار بين الأديان، تقديم عبد العزيز كامل، (د. ت)، ص. ص ٥٣-٥٤.

وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣]. فالإسلام ليس فيه نقصان يكمل من أي عقيدة أخرى، فقد أتمه الله وبلغه النبي ﷺ كما أوحى إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة ٦٧]. والزيادة والنقصان ليس لها ضابط ولا نهاية، فمن بدأ ولو بشيء يسير فقد اتبع منهجا آخر وترك الوحي المنزل: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، فلا يجوز سلوك هذا المسلك لأي مصلحة كانت حتى لو كان بها تأليف قلوب أهل الكتاب وكسبهم، لأن الدعوة إلى الله ليس هذا طريقها، ولا يبدأ بها بإثبات نقص الدين وحاجته إلى ما سواه، أو الميل إلى الكفار لأخذ ما عندهم، وإنما طريقها بإثبات كمال الدين وحسنه، ونقص ما عداه، وبالدعوة بالتي هي أحسن كما بينه الكتاب والسنة.

ب- ومن مسلك التقارب مشاركتهم فيما هم فيه من العبادات، وهذا ليس أمرا جديدًا، فقد عرض هذا النوع على النبي ﷺ كما روي ابن إسحاق أن الأسود بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي ـ وكانوا ذوي أسنان في قومهم ـ اعترضوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فقالوا: يا محمد هلم فنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، فأنزل الله فيهم: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٢-٦][1].

فلا تلاقي في منتصف الطريق حتى لو كان المسلمون في مرحلة ضعف لأن الدين يجب أن يكون في نقائه ووضوحه.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٠.

وفي مؤتمر الحوار الذي عقد بلبنان عام ١٩٧٠م وحضره ثلاثة من الهندوس وأربعة بوذيين وثلاثة مسلمين وثمانية وعشرون مسيحيًا، كانت هناك فترات للعبادة المشتركة بقيادة واحد من الحاضرين[١] فصلى المسلم خلف عبدة الأوثان كما يصلون وأقرهم على ما هم عليه، بل شاركهم فيها !! ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولا شك أن فعل شيء من ذلك يعد من الكفر الأكبر؛ لأن عبادة غير الله شرك أكبر باتفاق المسلمين بل إن إقرار الكفار على ما هم عليه من الكفر المخرج من الملة، فكيف بالمشاركة!.

ج- ومن مسالك التقارب إقرارهم على دينهم وتصحيحه لهم، أو مدحه باعتباره دينًا صحيحًا. أو مساواته بالإسلام. وكثير من المتفلسفة يقولون بهذا القول فيجعلون دين اليهود والنصارى كالإسلام، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن التتار: (وكذلك الأكابر من وزرائهم يجعلون الإسلام كدين اليهود والنصارى، وأن هذه كلها طرق إلى الله بمنزلة المذاهب الأربعة عند المسلمين، ثم منهم من يرجح دين اليهود أو دين النصارى، ومنهم من يرجح دين المسلمين، وهذا القول فاش غالب فيهم حتى في فقهائهم وعبادهم لاسيما الجهمية من الاتحادية الفرعونية ونحوهم، فإنه غلبت عليهم الفلسفة، وهذا مذهب كثير من المتفلسفة أو أكثرهم، وعلى هذا كثير من النصارى أو أكثرهم، وكثير من اليهود، وأيضا لو قال قائل: إن غالب خواص العلماء منهم والعباد على هذا المذهب لما أبعد).

ونجد أن بعض النصارى المعاصرين يقول بذلك، يقول نصري سلهب: (إن المسيحية والإسلام منزلان يدعوان إلى الله وإلى اليوم الآخر، وإذا كان هناك فوارق بينهما فلأن الله شاء ذلك، فالطرق إلى الله عديدة) ثم ساق الآيات التي توضح اعتراف القرآن بالنصارى ومدحه لهم[٢] ووافقه على ذلك بعض المسلمين فيقول الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق (إن أتباع الأديان الأخرى يمكن أن يكونوا صالحين بشرط إيمانهم بوحدانية الله، وعلى وعي بمسئوليتهم أمامه، وكذا سلوكهم العلمي مطابق، ويستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ

(١) وليم سليمان: الحوار مع الأديان، ٤٩.
(٢) نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٠م.

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].[1] ولا أدري ماذا يقصد بأن يكونوا أتباعا للأديان الأخرى، و يكونوا موحدين ثم يكون سلوكهم مطابقا. هل يقبل من أحد غير الإسلام الذي أنزل على محمد؟ ولا يقول بهذا القول و يستدل بهذه الآيات على أنها إقرار لأهل الكتاب إلا جاهل بالقرآن أو متجاهل، لأن القرآن فيه مدح للنصارى المؤمنين بالله قبل مبعث النبي ﷺ، أو ممن آمن بمحمد ﷺ وليس في القرآن ثناء على النصارى ممن أتى بعد محمد ﷺ ولم يؤمن به، وظهر ذلك في الآيات التي فيها مدح لهم، وهي:

١- ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣]. ويتضح من هذه الآيات أنها نزلت فيمن آمن بمحمد ﷺ وقد قال ابن عباس: إن هذه الآيات نزلت في النجاشي[2].

٢- ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٤[. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: إنها نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة ابن شعبة وغيرهم[3].

٣- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]. وهذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي من النصارى قبل مبعث لنبي ﷺ ولكنهم لم يدركوه[4].

---

(١) محمود حمدى زقزوق: الإسلام في الفكر الغربي، دار القلم، الكويت، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م، ص ١٢٤.
(٢) ابن كثير: (٢/١٨٥).
(٣) ابن كثير: (١/٣٧٩).
(٤) ابن كثير: (١/١٠٣).

٢- الحوار لتحقيق أهداف مشتركة مثل محاربة الشيوعية، أو لنشر الأديان السماوية الثلاثة، ومن أمثلة ذلك:

أ- ما تتزعمه السياسة الغربية من حوارات بين أبناء الأديان السماوية، وخاصة بين المسلمين والنصارى لمحاربة الشيوعية، وتضييق مجال عملها. وكثيرا ما نرى أن الشيوعية إذا نشطت في بلد إسلامي أوعزت الولايات المتحدة لحكومات هذا البلد بإعطاء المسلمين قدرا أكبر من الحرية ـ لا حبا لهم ولكن دفعا للشيوعية ـ كما حدث ذلك في مصر، فهذه حركة سياسية تستغل بها الحكومات الغربية المسلمين، وتستمر جهودهم لمصالحها، ولا حرج على المسلمين في محاربة الشيوعية أو استغلال الحريات المتاحة لهم لنشر دينهم، وإنما الحرج في الولاء مع المنصرين والحكومات الغربية وتحقيق أهدافهم[١].

ب- معهد حوار الحضارات والذي تولى رئاسته الفيلسوف الفرنسي المسلم روجيه جارودي، وقد أنشئ هذا المعهد بباريس عام ١٩٧٤ م تحت رعاية منظمة اليونسكو ومقره الآن في جنيف، وقد أسسه مسلمون ونصارى، والأغلبية فيه مسلمون، والأموال المبذولة في المشروع أغلبها أموال إسلامية، وقد ذكر جارودي أن الهدف من هذا المعهد هو (كشف النقاب عن وجه الإسلام الحق المشرق، وعن عقيدته وإسهاماته لتعزيز القيم الإنسانية في العالم)[٢]

ولجارودى نشاطات أخرى كمشروع إحياء روح جامعة قرطبة الإسلامية ومركز البحوث في قرطبة، والهدف من المركز الأخير إثبات قدرة الإيمان والثقافة الإسلامية على إخراج المجتمعات المعاصرة من ضلالتها أي من الفردية الرأسمالية ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ ومن الشمولية السوفيتية.

والنقد الموجه لمثل هذه الحوارات ما يلي:

أولا: أنها لا تحقق أهدافًا شرعية مقبولة، بل على العكس تحقق أهداف أهل الكتاب من جعل أديانهم المحرفة على قدم المساواة بالإسلام، أو على الأقل إقرار المحاور المسلم

---

(١) خالد بن عبد الله القاسم: مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق: ص ١٢٨.

بها يصاحب ذلك عدم اعترافهم بنبوة محمدﷺ على وجهها الصحيح من كونه رسولا للعالمين وشريعته ناسخة لما قبلها. وقد كشف المحاورون المسلمون أهداف هذه الدعوة إلى الحوار بأنها محاولة من الكنيسة للحصول على اعترافات صريحة بالنصرانية وبالسيد المسيح في غير مقابل مماثل، وأن هذه الاعترافات تقدم للنصارى والغربيين لإثنائهم عن دخول الإسلام بدعوى أنه لا توجد بين النصرانية والإسلام فوارق أساسية، وهذه خدعة شديدة الخطورة إذ أن مفهوم التوحيد الخاص الذي يتميز به الإسلام له آثاره البعيدة في النفس الإنسانية وفي الإيمان.

ومن المعلوم أن دين أهل الكتاب قد حرف عن أصله؛ فطرأت الانحرافات العديدة عندهم وأعظمها الشرك بالله، ومن هنا فإن قبول الحوار مع هذه الأديان دون تقدير الموقف الخاص لهذه الانحرافات يكون عملا غير عملي، خاصة وأن الجانب الآخر سيصر على موقفه ويطالب بقبول الأمر الواقع، فهل معنى هذا أن يعترف الإسلام بالأمر الواقع وبالأديان القائمة الآن على أنها هي الأديان المنزلة، وأن كتبها هي الكتب المنزلة؟

والحقيقة التي لا تقبل الجدل أن الإسلام جاء ليصحح أخطاء أتباع الأديان السابقة، ويكشف عن انحرافها عن الطريق الذي رسم لها، فليس هذا الحوار بهذه الصورة من طرق الإسلام، لذا عندما واجه علماء الأزهر جارودي رفضوا فكرته تماما كما أن كثيرا من علماء المسلمين في الملتقى الإسلامي بالجزائر عارضوا الفكرة ورفضوها(١).

ثانيا: أن المتزعم لمثل هذه الحوارات في الغالب لا ينبغي له أن يمثل الإسلام لعدم انطباق الشروط الواجب أن تتوفر في المحاور المسلم، فلا يجوز أن يمثل الإسلام إسماعيلي أو باطني أو قادياني. أما روجيه جارودي ـ وهو المخطط لمثل هذه الحوارات ـ فإنه وإن كان عالما بفلسفة الغرب إلا أنه ينقصه العلم بشريعة الإسلام، إضافة إلى أن له كتابات تدل على انحرافات فكرية ناشئة عن الجهل بالإسلام، ومنها على سبيل المثال: مدحه لابن عربي ونقله لكلامه المتضمن انحرافات خطيرة وإقرارها على صورة لا تصدر من عالم بالشريعة الإسلامية؛ فمثلا يقول:

(١) خالد بن عبد الله القاسم: مرجع سابق، ص ١٣٠.

إن هذا الانفتاح الشامل في الإسلام على كافة الديانات التي ليست كلها إلا لحظات من العطاء في الملحمة الإنسانية، وعملية خلق مستمر ينجزها الإنسان عن طريق الله الذي يسكن فيه، إن هذه الميزة في الإسلام جعلت منه أكبر قوة روحية قادرة على الاستيعاب والاحتواء)[١]. إن هذا الكلام لفي غاية الخطورة وخاصة لمن يحاور الأديان الأخرى باسم الإسلام، ولجارودي كتابات أخرى في مدح الفلاسفة مثل الفارابي وابن سينا والسهروردي وابن عربي تصفهم بأنهم أنقذوا الفلسفة الإسلامية الأصيلة من الاختناق الذي كانت تعاني منه، كما يصف من خالفهم وحاول بيان انحرافهم بعدم التفتح والتعصب فيقول: (أما العامل الداخلي في انحسار الفلسفة وسائر ألوان العلوم والثقافة الإسلامية فمرده إلى رفض كل تفتح خلاق، ويكفي أن نشير إلى ما أصاب الفلسفة من نكسات، إذ نفى ابن طفيل إلى مراكش، وحكم على السهروردي بالموت؛ متهما بالهرطقة، وسجن ابن عربي في القاهرة عام ١٢٠٦هـ بعد أن كشف خطره أحد الفقهاء المتعصبين، ولقد نجا من الموت بأعجوبة ولكن قراءات كتبه أصبحت محرمة بحجة الحفاظ على أصول الدين وقواعده وهكذا انطفأ مشعل الفلسفة الرؤيوية وحكم عليها بالشلل وهي في أوج ازدهارها وانطلاقها)[٢].

ثالثا: أن المركز الإسلامي ينبغي أن يكون قائما على أصول إسلامية فلا يكون خليطا من أهل الكتاب، لأن في ذلك نوعا من وحدة الهدف والتحالف معهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وقد ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أنه لما نوقش جارودي في القاهرة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وسئل عن تكوين المركز، ذكر أن المركز يتكون من أربعة أعضاء هو الرئيس، والأمين العام مسيحي أسباني وعضوان مسلمان أسبانيان ـ معروف أنهما ممن يتاجرون بالإسلام ـ وأخفى ذكر بعض الأعضاء اليهود الصهاينة الذين كانوا يعملون في تحقيق فكرة جامعة البحر الأبيض المتوسط[٣] وهذه الفكرة لتوحيد الأديان لم تنجح فلما فشلت الفكرة تحولا إلى مركز قرطبة ـ وكان الاجتماع برئاسة وزير

(١) روجية جارودي: مرجع سابق، ص ١٧٧.
(٢) روجيه جارودي: مرجع سابق، ص ١٧٧.
(٣) خالد عبد الله القاسم: مرجع سابق ص ١٣٢

الأوقاف المصري الأسبق الأحمدي أبو النور، فلما قال جارودي ذلك ذكر العلماء أنهم لا يقبلون مركزا إسلاميًا دون أن يكون مكونا من أصول إسلامية أما أن يكون بهذه الطريقة المشبوهة فذلك شيء لا يقبل[١].

والحق أن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهى عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم، وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة، فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له، وسذاجة أي سذاجة وغفلة أي غفلة أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين، وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد ـ بوصفنا جميعا أهل دين ـ ناسين تعاليم القرآن كله، وناسين تعاليم التاريخ كله، فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم دروعا ورداء، وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان.. في الحبشة والصومال وأرتيريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغوسلافيا والصين والتركستان والهند وفي كل مكان، ثم يظهر بيننا من يظن ـ في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة ـ أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية والإلحادية عن الدين)[٢].

(١) هذه الفكرة لتوحيد الأديان تبناها الرئيس الراحل محمد أنور السادات وأراد أن تكون في سيناء، ولكنها فشلت ولم تنجح.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢/ ٩١٠).

ويقول صاحب الظلال: «إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان كما يخطئون في فهم معنى التسامح، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي؛ إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام»(١).

ويقول يرحمه الله: «إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام لأنه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولكن هذا ليس معناه أن يتعرف بما هم عليه (دينا) ويراهم على (دين). ومن ثم فليس هناك جبهة دين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد هناك (دين) وهناك (لا دين) هو غير الإسلام.. ثم يكون هذا اللادين عقيدة أصلها سماوى ولكنها محرفة، أو عقيدة أصلها وثني على وثنيتها، أو إلحاد ينكر الأديان.. تختلف فيما بينها كلها، ولكنها تختلف كلها مع الإسلام، ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء»(٢).

أثر الحوار مع الآخرين في مجال إعلامهم بالإسلام:

وقبل أن نختم هذا الجزء من أركان الحوار نود أن نذكر بعض النماذج من علماء الإسلام الذين حاوروا أهل الكتاب وفق هذه المواضيع التي قررها القرآن، والتي تخدم الأهداف الشرعية، كما سأذكر نماذج أخرى لموضوعات لا تخدم الأهداف السالفة.

ومن الصعب الحصر لمن حاور أهل الكتاب من العلماء، بل يستحيل ذلك؛ وإنما سنضرب أمثلة توضيحية عبر أزمنة مختلفة. فمن هؤلاء(٣)

١- أبو الحسن العامري: وله كتاب الإعلام بمناقب الإسلام، قارن فيه بين الإسلام واليهودية والنصرانية وبعض الملل الأخرى، وبين من خلال ذلك فضائل الإسلام، المتنوعة، وفي نهاية الكتاب رد على شبهات أهل الأديان الأخرى تجاه الإسلام وأثبت فيها صحة القرآن، وبشارة الكتب السابقة بالنبي محمد ﷺ.

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق (٢/٩١٢).
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢/٩١٥).
(٣) خالد عبد الله القاسم: مرجع سابق، ١٧٤-١٧٦

٢- أبو حامد الغزالي، وله كتاب الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، وتناول في كتابه: طوائف النصارى وجهلهم، ثم الموضوع الرئيسي وهو الرد عليهم في دعواهم التثليث، واتخاذ عيسى إلها من دون الله.

٣- ابن حزم الأندلسي، وله كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، وقد أطال الكلام حول بيان تناقض كتب أهل الكتاب وما فيها من المنكرات، كما أثبت نبوة المسيح وكونه عبدًا لله.

٤- أبو الوليد الباجي، وله رسالة جميلة رد فيها على راهب فرنسا في وقته بعد أن بعث الراهب رسالة إلى ملك الأندلس يدعوه فيها إلى النصرانية، وقد تضمنت رسالة الباجي إبطال التثليث و إثبات نبوة محمد ﷺ.

٥- أبو المعالي الجويني، وله كتاب شفاء العليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، والموضوع الرئيسي للكتاب كما هو ظاهر من العنوان إثبات تحريف التوراة والإنجيل.

٦- أبو عبيدة الخزرجي، وله كتاب في الرد على النصارى ويركز فيه على بطلان ألوهية المسيح من أناجيلهم.

٧- أحمد القرافي، وله كتاب الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، يرد فيها على شبهات النصارى ويثبت فضل الإسلام وكماله.

٨- ابن تيمية، وله كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وهو من أفضل الكتب المصنفة في هذا الباب وأجمعها، رد فيها على شبهات النصارى وأثبت من خلاله فضل الإسلام، وعموم بعثة النبي ﷺ، وساق الدلائل المختلفة على صحة رسالته، كما أبطل التثليث، وبين تحريف الأناجيل.

٩- عبد العزيز بن معمر، وله كتاب منحة القريب المجيب في الرد على عُبَّاد الصليب، وهو رد على كتاب لنصراني في البحرين ملىء بالشبهات على الدين الإسلامي، فرد في كتابه على هذه الشبهات مبينًا فيها فضل الإسلام وكماله.

١٠- رحمت الله الهندي، وله مناظرات كثيرة في الهند مع النصارى هناك أشهرها المناظرة الكبرى مع القس فندر، وبحث فيها موضوعات النسخ والتحريف، ثم انسحب القس عن استكمال بقية الموضوعات، وهي إثبات بعثة النبي ﷺ، وصحة رسالته، وإبطال التثليث، كما أن له كتابه المشهور وهو من أحسن ما ألف في هذا الموضوع وهو إظهار الحق ويتناول خمسة موضوعات رئيسة وهي: التحريف، والنسخ، ورد فيهما على اليهود والنصارى وأثبت تحريف كتبهما ونسخهما. وإبطال التثليث، وإثبات كون القرآن كلام الله، وإثبات نبوة محمد من خلال البشارات في العهدين.

١١- أبو الأعلى المودودي، وله مكاتبات مع البابا بمناسبة اليوم العالمي للسلام أشار فيها إلى أن المسلمين يؤمنون بالتوراة والإنجيل، ولكنهم يقولون إنها محرفة، كما ذكر دور جمعيات التبشير في زعزعة السلام، وانتقد أساليبهم المنافية للأخلاق والدين، ودور النصارى في وجود إسرائيل(١).

١٢- أحمد ديدات، وله مناظرات كثيرة ومشهورة مع النصارى في العصر الراهن أشهرها مناظرته مع القس (سوجارت)، كما أن له كتبًا كثيرة مثل: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد؟ والمواضيع الأساسية التي يتناولها في كتبه ومناظراته إثبات رسالة محمد ﷺ من كتب النصارى، وإبطال التثليث من كتبهم، والرد على شبهاتهم المختلفة.

هذه نماذج مضيئة من العلماء القدامى والمعاصرين ممن التزموا بالموضوعات المحققة للأهداف المشروعية

فإن المسلم لا يمتنع عن الحوار إذا ترجحت مصلحته وإن لم تكتمل فيه الشروط، لأن المسلم مأمور بدعوة غيره إلى الهدى أيا كان، فيدعو بقدر علمه وإمكانه، أما إذا لم يتمكن منه أو خشي على نفسه الفتنة فإنه يمتنع عن الحوار.

---

(١) أبو الأعلى المودودي: طائفة من قضايا الأمة الإسلامية في القرن الحاضر، مكتبة الرشد بالرياض، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ص ٢٣٩ـ٢٤٤

و ليس معنى وجود الشروط في المحاور أن يحاور على أي ظرف كان، بل لا بد من النظر في المصلحة، فقد يكون الأفضل ترك الحوار أمام جمهور العامة لأنهم يقصرون عن فهم كثير من المعاني، وتلتبس عليهم المصطلحات، ولا فائدة لهم منه، وقد يفهمون الشبه و يعجزون عن فهم الرد عليها، فيكون في هذا الظرف ترك الحوار أولى. وربما يكون العكس صحيحًا فيكون الأولى حدوث الحوار أمام عامة الناس لحاجتهم إليه، لكونهم كفارًا أو مسلمين في بلاد الكفار، و يفهمون ما يقال فيكون الحوار دعوة للكفار، وتثبيتا للمؤمنين.

وعندئذ يجب الاهتمام بإعداد الدعاة لمثل هذه الحوارات لما فيها من فوائد جمة؛ مثل:

أ- إظهار الحق، ورد الباطل، ودعوة الآخرين لديننا.

ب- إنها تكسب المسلمين خبرة بالأديان الأخرى، وطبيعة تفكير أهلها، مما يساعد في دعوة من يرجى إسلامه منهم، ورد شبهات المتشككين.

ج- إن الحوار فن أصيل لا يكفي فيه التعلم النظري، بل لا بد معه من التمرس، وهذه الحوارات تكسب المسلمين خبرة عملية، وعلمًا لا يحصل بالقراءة.

ولا حرج على المسلمين أن يتحاوروا مع أهل الكتاب في أي موضوع يحقق لهم نفعًا دنيويًا مباحًا، ولكن يجب ألا يكون ذلك على حساب الحوار الديني الذي أمر الله به.

وهكذا فإن للحوار أثرا فعالا في تعريف الآخرين بالإسلام، ويكون للحوار أثر واضح في بيان عناصر التميز في الثقافة الإسلامية، و يأتي هذا من خلال محاورين دارسين، أعدو العدة لهذا، ولديهم دراية كاملة بالأديان الأخرى، وعندئذ يكون الانفتاح عليهم بابا للأخذ بأيديهم إلى نور الإسلام، وتأكيدا لذلك فإن ما فعله الداعية الإسلامي أحمد ديدات آتى ثمارا عظيمة في دخول الكثير منهم في الإسلام، ونأمل أن تتسع قاعدة الحوار مع غير المسلمين؛ لعل ذلك يكون من أبواب الهداية لهم، ولعل الهيئات والمؤسسات القائمة على الدعوة في بلاد المسلمين تُعد دعاة مثقفين بفكر الآخر ولغته؛ فضلًا عن تمكنهم من علوم الشريعة، وعلوم العصر، وتلك مهمة شرعية تحتاج من ينهضون لها لنشر هذا الدين العظيم.

الفصل الثامن

رؤية تحليلية في علاقة الإسلام بالغرب

- المبحث الأول: منطلقات الحوار مع الآخر في الإسلام.
- المبحث الثاني: الحث على معرفة الآخر وفهمه.
- المبحث الثالث: مفاهيم نقدية في التفاعل مع الآخرين.
- المبحث الرابع: من المنظور التاريخي إلى رصد الواقع.
- المبحث الخامس: ورغم هذا.. فلماذا العداء من الغرب للإسلام؟.
- المبحث السادس: تحديات في طريق التقارب بين الإسلام والغرب.
- المبحث السابع: رؤية تحليلية لبعض الكتابات التي تناولت علاقة الإسلام بالغرب.
- المبحث الثامن: المواجهة والتصادم التحديات إلى الحلول والتقارب.

رؤية تحليلية في علاقة الإسلام بالغرب

المبحث الأول

منطلقات الحوار في الإسلام

١- نحن المسلمين مطالبون بالسعي للحوار مع الناس بما يحقق وضوح الرؤية ويجمع الكلمة على المبادئ والقيم الربانية الخالدة. وهذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران آية: ٦٤].

٢- نحن نعتقد أن إيماننا لا يكون ولا يتحقق إلا بالكتب السماوية التي أنزلت على الأنبياء والرسل جميعا، وأن المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام نبي الله ورسوله، وروح منه وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول عليها السلام، وأن نبينا ورسولنا محمد بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام هو دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وبشارة سيدنا المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] فجاء عليه الصلاة والسلام مصدقا لما بين يديه من الكتاب حيث يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١-٤].

٣- عن الإسلام الذي نعتقده ونفهمه وفق النصوص الثابتة القاطعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، هو دين الله تعالى الذي أرسل به الرسل جميعا، منذ ابنا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحتى سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وفق مسميات ومعاني تناسب الزمان

والمكان لكل قوم مقتضى حالهم وحياتهم التي كانوا يعيشون، وأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعث لتختتم به دعوة الله تعالى ورسالاته، ولتكتمل بما جاء به دعوة الأنبياء والرسل من قبله، في ظروف من الزمان والمكان تحقق للناس بها من أسباب التعارف والتعايش، ما يصلح معها مخاطبتهم جميعا بتمام ما أراد لهم ربهم وخالقهم من مبادئ وقيم ومنطلقات، تستقيم معها حياتهم لهم بها الخير كل الخير وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٤- نحن أمة تحكم علاقاتنا وتحاوراتنا مع الآخرين قاعدة أساس تقوم بها وعلى أساسها صحة كل علاقة وسلامة كل حوار، وهي التزام مبادئ وقيم وتعاليم دين الله وهذا بين في قول الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾) [المائدة: ٤٩].

٥- إن منهجنا ونحن نعرض مبادئ وتعاليم الإسلام على الناس، تحكمه قيم وآداب لا ينبغي لنا تجاوزها ومخالفتها ولا يصح معها تجريح وسباب معتقدات الآخرين، وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

٦- نحن مطالبون وفق تعاليم إسلامنا وقيمة، بالتزام العدل وإنصاف الناس مع وجود الاختلاف في العقيدة وقيام الخصومة والشحناء معهم، حيث يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

٧- إن منهج القرآن يعلمنا ويؤكد علينا، أن البشرية مدعوة بأمر ربها جل شأنه، للتعارف والتعايش وفق القيم والمعايير الربانية، على أجناسهم وأعراقهم وأديانهم وأوانهم، وأن إتيان الحق ومجانبة الباطل هو أساس التنافس بينهم، وهو أساس معيار القرب والبعد من تقوى

الله ومرضاته، وهذا في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

٨- نحن أمة الإسلام يحدونا ونحن نتعامل مع غيرنا من الناس، تعاليم ربنا جل ثناؤه وتوجيهات رسولنا عليه الصلاة والسلام، التي تطالبنا وتؤكد علينا السعي في تحقيق مصالح العباد، وجلب النفع العام لهم، وأن ذلك السعي الصادق هو السبيل لنيل محبة الله تعالى والفوز بمرضاته حيث جاء في الأثر: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

٩- إن الإسلام يؤكد أن أساس دين الله تعالى، يقوم على إقامة العدل بين الناس، وشيوع قيم الإحسان بينهم، والعمل على مكافحة الفحشاء والمنكر ومحاربة البغي في حياتهم، وقد عظم فقهاء الإسلام قيم العدل، حتى جعلوه معيارا لنصره الله وتأييده لأي ملة تقيمه وتلتزمه حتى ولو كانت كافرة حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رحمة الله تعالى: «إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة» وهذا كله في ضوء فهمهم لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

١٠- نحن المسلمين نعتقد بمشروعية التدافع الإنساني، ونؤمن بأن منهجية التدافع بين الناس القائمة على أساس التنافس، في جلب المصالح ودرء المفاسد، كفيلة بتحقيق الحياة الأفضل لهم جميعا، وتوفير الأمن والاستقرار، وصرف الفساد عن الأرض، وهذا مؤكد في قول الله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].. ومن جهة أخرى فإن التدافع بين الناس لجدير بحماية حرية الناس في معتقداتهم وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]. ومن مفاخر الفقه السياسي في الإسلام، أن الشرائع جاءت لتحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

١١- نحن أمة ألزمنا ربنا جل شأنه بمنهج الوسطية وحملنا أمانة الشهود الحضاري على الناس ومسؤولية تبليغ الهدى الرباني للناس كافة، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

١٢- نحن المسلمين نعتقد ونؤمن بأننا شركاء مع غيرنا في منهج الاستخلاف لعمارة الأرض ولسنا محتكرين لهذا المنهج، وأن غياب المسلمين أو تغييبهم عن المشاركة في منهج الاستخلاف أو تجريد هذا المنهج من القيم الربانية، سيؤدي لا محالة إلى فساد الأرض ودمار حياة الناس عليها، وهذا مؤكد في قوله الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ٩-١٠].. أو ليس اندحار الشيوعية ومعسكرها الإلحادي الكبير دليلا قطعيًا على هذا الذي يؤكده القرآن[١].

١٣- نحن المسلمين يقوم فهمنا لمنهج الاستخلاف في عمارة الأرض، على خاصية التكامل الثقافي بين قيم الإسلام وأصوله ومقاصده الكلية في تحقيق مصالح العباد.. وهذا التكامل اعتقادا وفهما والتزاما، هو الذي يميزنا عن غيرنا في فهمنا لمنهج الاستخلاف في عمارة الأرض، وهذه الخاصية هي التي تبوئ منهج المسلمين موقع الوسطية بين مناهج الأمم، وهي التي تؤهلهم لمهمة الشهود الحضاري على الناس في مسيرة الاستخلاف.. وبشكل أدق فإن قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]. وثانيهما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. وأن عمق وشمولية فهمنا، وصدق التزامنا لمرتكز «فاعلم..» وكفاءة إتقاننا وجدية ممارستنا، وارتقاء مهاراتنا الإبداعية في إطار مرتكز «فامشوا..» في سياق من التكامل التام، هو الذي يستقيم به منهج الاستخلاف الأمثل لعمارة الأرض، والتكامل مقومات هذا المنهج أو تعطيل لأحد مرتكزاته

(١) حامد أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام والعالمي الجديد، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، العدد ١٤٦، صفر ١٤١٥هـ، ص ١٣١.

يكون سببا أساسيًا لتخلفهم، واندحار نتائج أفعالهم ومعطياتهم الحضارية، وتاريخ الأمم في ماضيها وحاضرها، يضرب أمثلة على ذلك ويؤيده، والقرآن الكريم يحدثنا بما يصدق ذلك ويؤكده حيث يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

١٤- عن مبادئ الإسلام وقيمة تعلمنا وتؤكد علينا، أن لا نبخس الناس أشياءهم، وألا نحتقر كدحهم وجهدهم في كل عمل بناء، يحقق الإعمار والإبداع الحضاري.. وتلزمنا تعاليم الإسلام احترام وتقدير كل عطاء خير في ميادين القيم والسلوكيات وفي ميادين الماديات والوسائل والمهارات، يلتقي مع قيم القرآن الكريم يعتبر احتقار سعى الناس وبخس مشيهم الإيجابي الفعال المثمر في الأرض، من العبث والإفساد الذي يمقته الإسلام، وينهى عنه وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

١٥- إن حرية الأديان والاعتقاد، مكفولة ومصانة في القوانين الدستورية، والقواعد التنظيمية القائمة على أساس ثوابت ومنطلقات منهج الإسلام في الحكم، وإن الشريعة الإسلامية لا تحتكر القرار السياسي في تحقيق المصالح، ودرء المفاسد لأتباعها دون غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، فالجميع أن ثوابت الشريعة لا تسمح بفرض المعتقدات الإسلامية على الآخرين بالإكراه والقوة، كما هو مقرر في قول الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. بل إن الأحكام السلطانية الإسلامية، أعطت في ظل سيادتها من الحقوق والاستقلالية الدينية لغير المسلمين ما لم تكفله لهم الأحكام، أو التنظيمات البشرية قط لا في ماضيها ولا في حاضرها المعاصر، وإن واقع التاريخ الإسلامي يصدق ذلك ويؤكده فقد حكم الإسلام الهند لقرون عديدة، ومع ذلك بقي المسلمون هم الأقلية، هذا وإن أداء الحقوق وإقامة العدل بين الناس كل الناس على اختلاف أديانهم، وأجناسهم

وقومياتهم وألوانهم وبرهم وفاجرهم، هو أساس مقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها العليا، وهذا بين مؤكد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

١٦- إن الأمة الإسلامية مثلما أنها تختزن في أرضها كما هائلا من الطاقة، تشكل مرتكزا أساسيا في توازن المصالح العالمية، وتنوعا جغرافيا واقتصاديا وكما بشريًا له دوره الفعال في الموازنات السياسية العالمية، فإنها تمتلك مخزونا أجل وأعظم أهمية، وأكثر نفعا للمسيرة الإنسانية، مخزونا فريدًا من القيم والمبادئ، وثروة ضخمة من الفقه التشريعي، يسهل على الإنسانية مهمتها، ويختصر جهدها في تحقيق آمالها في انبعاث مشروع حضاري إنساني معاصر، لذا فإن أي مشروع جاد لتحقيق نظام عالمي عادل، يبقى عاجزًا عن تحقيق غايته المتزنة المجدية، مع غياب أو تغيب مشاركة ومساهمة الفعاليات العربية والإسلامية قيميًا وماديًا.

١٧- إن المسؤولية الكبرى في إنقاذ هذه التركة الحضارية المادية العالمية، يقع على عاتق العقلاء والحكماء من الناس على أساس من المبادئ والقيم الربانية التي يقدم المنهج الإسلامي ثوابتها ومنطلقاتها ويوضح أدبياتها وأخلاقياتها.. وذلك قبل أن يحيق بهذه الحضارة العظيمة عبث الاغتراب القيمي والأخلاقي للقائمين على مقاليدها، فيلتهمها الدمار والخراب، كما التهم بعضا منها بالأمس في الاتحاد السوفيتي، لذا فعلينا جميعا، أن نبادر ونستعد للقيام بهذا الواجب قبل فوات الأوان، وإلا ستكون الخسارة الإنسانية عظيمة جدا، تصيب أهل الأرض جميعا، وهذا في قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].. بعد هذا القول في تقويمنا لحضارة المجتمع الإنساني لا بد من التأكيد على جملة من المعاني والمبادئ:

أولًا: لابد للمجتمع الدولي أن يفهم المسلمين على النحو التالي:

أ- إننا أمة لها تاريخ حضاري عريق أفرزته وصاغته مبادئ الإسلام وقيمه.

ب- إننا أمة حملت مبادئ وقيمًا لا نحتكرها ولا نحجبها عن غيرنا، فهي لخير الناس جميعا لأنها من لدن ربهم وخالقهم سبحانه، وهذا في قول الله تعالى على لسان

رسوله محمد ﷺ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ج- إننا أصحاب حضارة إنسانية متوازنة، كانت محضنا أمينا ومثريا لحضارات قديمة، ومرتكزا متينا لحضارات معاصرة.

د- إننا أمة تعتقد وتؤمن بكل موضوعية ـ أنها جزء من المجتمع الإنساني، لها إمكاناتها وقدراتها وقيمها التي يحتاجها المجتمع الدولي، لتصحيح وإثراء مقوماته الاجتماعية والأمنية والثقافية والسياسية والاقتصادية.

هـ- إننا نؤمن أن خير الناس لا يقوم إلا بالحوار الثقافي الجاد، والاستعداد المخلص لقبول الحق الذي لا يتصادم مع فطرة الإنسان ومتطلباته التكوينية الربانية.

و- إننا أمة يؤكد منهجها الرباني، أن الإنسان والاعتناء بإنسانيته وفق مكوناته الفطرية، وعبر منهجية تربوية متوازنة، هو الأساس والمنطلق السليم لحياة إنسانية آمنة مستقرة.

لأجل هذا بهذه الأمة مطالبة بالتخاطب مع الآخر وفهمه واستيعابه، مما سنبرزه فيما يلي:

المبحث الثاني
الحث على معرفة الآخر وفهمه

إن الحضور الميداني وممارسة الفعل الحضاري والمجاهدة والجهاد، بمفهومه الكبير وفضائه الواسع، هو سبيل الهداية للسنن والقوانين وشروط السقوط والنهوض، يقول تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فالنفرة لهذا الجهاد الكبير، ومعرفة الواقع بكل مكوناته، ومحاولة تحليله و إرجاعه إلى عوامل نشوئه، وأسباب علله وأمراضه أو نهوضه و إنجازه، هو من الفروض الحضارية التي تمنح الفقه والهداية والتبيين والموعظة والوقاية من الإصابة، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨]، ذلك أن النص هنا يدعو صراحة لعدم الانكفاء على الذات والاقتصار على التجربة الذاتية، على الرغم من أنها مسددة بحراسة الوحي، و إنما يطلب التوغل في التجربة البشرية ودراستها، بأمر الوحي نفسه، لأن هذا السير الذي يعتبر مصدر معرفة حضارية هو من عطاء الوحي أيضًا.

وهذا السير، حتى يحقق عبرته ووقايته سلبًا أو إيجابًا، لا بد له من معيار دقيق وسليم، فإذا فقد المعيار أو شابته شائبة كان الارتماء، و إذا قصرت الرؤية لعطاء الوحي وخلوده كان الانكفاء، و إذا استصحب الوحي كما ينبغي كان التبادل المعرفي، و إغناء التجربة الذاتية من خلال القضاء الحضاري.

وتزداد أهمية التبادل المعرفي، لأنه يبصر بـ (الآخر) بعقيدته وثقافته وتاريخه وحضارته، و يشكل دليل العمل والتعامل معه من منطلق شرعي، وهو أن رسالة الإسلام رسالة عالمية إنسانية، ولا خيار للمسلم في وجوب إبلاغها (للآخر)، وكيف يتحقق هذا الإبلاغ إذ لم نعرف (الآخر) تمامًا[1].

(١) بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، قطر، كتاب الأمة، العدد ٧٣، رمضان ١٤٢٠ هـ، ص١٥.

ذلك أن أي نهوض بناء حضاري يتجاهل (الآخر) أو يتجاوزه، فلا يفيد من إيجابياته لينميها ويعتبر بسلبياته فيتجنبها، هو نهوض معزول عن الرؤية الإنسانية، ميدان الرسالة الإسلامية الطبيعي، ومنقوص منهجيًّا، وعلى الأخص في هذه العصر، الذي بلغ شأوا مذهلا في الاتصال والتواصل، فالذي لا يذهب إلى العالم يجيء العالم إليه، والذي لا يعد العدة للتعامل مع العالم لا يمكن أن ينجو بنفسه وإنما سوف يسقط من التاريخ والحاضر والمستقبل، والذي لا يحسن الإفادة من العطاء يحرم الكثير، والذي لا يعتبر بالتجارب العالمية ويبدأ من حيث انتهى (الآخر)، ينتهي إلى الانقراض والتآكل ويكون عبره لغيره، فالعاقل من يعتبر بغيره، والأحمق من يصير عبرة لغيره، والرسالة الإسلامية لم تكن بدعًا من الرسالات، ولا الرسول ﷺ كان بدعاً من الرسل، وإنما هو امتداد لتاريخ النبوة مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

لقد جاء الإسلام لبنة في بناء النبوة فأكسبه الاكتمال ووسمه بالكمال، والدين الذي أكمله الله بالإسلام ليس الصورة الأخيرة وإنما هو الدين التاريخي للنبوة الذي انتهى بكل عطائه وعبره إلى الرسالة الخاتمة، ذلك أن الخاتمية تعني من بعض الوجوه استيعاب (الآخر) وتقويم تجربته واستقرارها في النبوة الخاتمة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، على مدى تاريخ النبوة، والرسول ﷺ يقول: «الأنبياء أبناء علات» (أخرجه مسلم)، ويقول: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنه من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا ختم النبيين» (أخرجه البخاري).

لذلك نقول: إن معرفة (الآخر) والإحاطة به عقيدة وتاريخًا وواقعًا يعتبر من اللبنات الأولى للدعوة إلى الله، وبدون ذلك قد تصبح الدعوة نوعًا من الخبط الأعشى أو خبط عشواء؛ كما يقال.

ولو استعرضنا الكثير من سور القرآن الكريم لوجدنا أن الحديث عن (الآخر) بعقائده وعباداته وعلاقاته الاجتماعية وممارساته اليومية ومواقفه من النبوة وعواقب تصرفاته تشكل مساحة تعبيرية، بل مساحات تعبيرية كبيرة وكبير جدًّا تكاد تفوق الحديث عن

العقيدة الإسلامية والدعوة والعبادة والسيرة الذاتية لمحمد عليه الصلاة والسلام ومسيرة لأمة الرسالة الخاتمة، التي لا بد لها لتقوم برسالتها بشكل سليم من استيعاب تاريخ الأمم السابقة.

لذلك نقول: إن استحضار الحضارات والثقافات وتاريخ الأمم السابقة وتاريخ النبوة وعدم القطيعة معها هو دين من الدين، يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

هذا الاستحضار أو هذا الشهود الحضاري، هو الذي يحقق المناعة والوقاية الحضارية، أو بعبارة أخرى: إن هذا الهضم الحضاري الذي يتحقق للمسلم المستهدى بمعرفة الوحي هو الذي يمكنه من التقوى بالعناصر المفيدة ليقوى وينمو على مختلف الأصعدة، ويؤهله للوارثة الحضارية، كما يمكنه من طرح الفضلات الحضارية ومحاصرة امتدادها وآثارها والتطهر منها، وعلى ذلك فلا يمكن اعتبار معرفة (الآخر) والتحاور معه والإفادة منه عدول عن منهج الإسلام، وإنما هو عين المنهج الإسلامي، أو هو المنهج القرآني[1].

(١) بدران بن مسعود بن الحسن: المرجع السابق، ص١٩.

المبحث الثالث
مفاهيم نقدية في التفاعل مع الآخر

أولًا: من نقد الآخر إلى نقد الذات:

من الملاحظ أن الكثيرين في عالمنا الإسلامي يميلون إلى تعليق كل مشكلات المسلمين على شماعة الغير الذي نعتقد ـ صوابًا أو خطأ ـ أنه يتربص بنا، ويخطط لمحونا كمسلمين، من خريطة العالم. ويسترسل بنا التفكير ويمتد بنا الخيال للحديث عن تفاصيل التخطيط الخبيث من جانب الآخرين لنهب خيرات العالم الإسلامي، وتدمير اقتصاده وتجويعه، ومحاولات فرض القيم والمعايير الغربية على الشعوب الإسلامية... إلخ.

ولا ينسى الكثيرون - في هذا الصدد - الحديث عن مثالب المجتمعات الغربية وتدهورها الأخلاقي، وانحلالها الاجتماعي، وتخلفها الروحي. وفي المقابل يحلو لنا الحديث عما لدينا من قيم روحية وأخلاقية سامية تقينا من شرور هذه المجتمعات وتجعلنا أكثر رقيًا في هذا فنحن أكثر تقدما ورقيًا على المستوى الروحي والأخلاقي من الغرب المتبجح بصناعاته وابتكاراته المادية. إننا في مجتمعاتنا الإسلامية بخير والحمد لله. وعلى هذا النحو نتعامل في الأعم الأغلب مع مشكلة التخلف في العالم الإسلامي دون أن نقدم حلولًا عملية ناجعة لحل هذه المشكلة المتعددة الجوانب.

وفي خضم تحمسنا لنقد الآخر وفضح عيوبه وانحرافاته وظلمه وقهره للشعوب وتفسخه على المستوى الاجتماعي وتحلله على المستوى الأخلاقي والديني؛ ننسى أننا بذلك لا نسيء إلى الآخر، بل نسيء إلى أنفسنا، لأننا بذلك نتجاهل عيوبنا ونتغاضى عن نقد أنفسنا فسهام النقد التي في جعبتنا قد تم توجيهها إلى الآخر، ولم يعد لدينا سهم واحد في هذه الجعبة يمكن أن نوجهه إلى أنفسنا. وبذلك تتراكم مشكلاتنا يومًا بعد يوم دون أن نبذل الجهد المناسب لإيجاد الحلول الملائمة لها. فالغرب لنا بالمرصاد يجهض كل محاولاتنا ويمسك بيده كل خيوط اللعبة المحكمة الماكرة.

وهذا النمط من التفكير يريح الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية. فقد أدينا بذلك واجبنا في تعرية الآخر وكشف مؤامراته. وبالتالي فإن تخلفنا - إذا كان هناك تخلف - سببه

الآخر. وجماهير الأمة من كثرة تعودهم على سماع ذلك قانعون راضون يصفقون طويلًا لمن يضرب على هذا الوتر ويخاطب عواطفهم وانفعالاتهم.

أما النقد الذاتي، أما نصيبنا أو إسهامنا في التخلف القائم، أما قعودنا عن فعل أي شيء إيجابي لتغير الأوضاع المتخلفة في العالم الإسلامي، فإن هذه أمور غير واردة في الحسبان. فنحن بخير والحمد لله. وهكذا نقوم بإرادتنا - دون أن يرغمنا أحد على ذلك - بتغييب وعى الجماهير.

إن النقد الذاتي هو الخطوة الأولى نحو الوعي بعيوبنا وأدوائنا وما نتحمله من مسئولية لما يعانيه هذا العالم الإسلامي من التخلف.. الوعي بأننا نتحدث كثيرًا ولا نفعل شيئًا إلا أقل القليل.. الوعي بأن هناك واقعًا متخلفًا في عالمنا الإسلامي يجب أن نتغير.. الوعي بأننا - نحن المسلمين - نسهم بشكل أو بآخر - بقصد أو بغير قصد، بحسن نية أو بسوء نية - في تخلف مجتمعاتنا الإسلامية(١).

إن الآخر ينقد نفسه باستمرار، وكثير من نقدنا له صادر في الأساس عنه. فنحن مثلًا حين ننقد العولمة ننسى أن الكثير من هذا النقد صادر من مجتمعات العولمة ذاتها. فكتاب «فخ العولمة» - على سبيل المثال - صادر عن مؤلفين غربيين نستعير منهما نقدهما للعولمة.

ونقد دعوى صراع الحضارات ونهاية التاريخ صادر أيضًا من الغرب وبخاصة من أوروبا التي لها في الأعم الأغلب موقف رافض لهذه الدعاوى الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية.

إننا في عالمنا الإسلامي في أشد الحاجة إلى تعديل مواقفنا، وتطوير أسلوب تفكيرنا، وتغير سلوكنا، والتعرف على الحقائق بطريقة موضوعية بعيدة عن أي ميول عاطفية أو انفعالات وقتية. وهذه كلها أمور تتطلب المزيد من النقد الذاتي، وفتح عيون مواطنينا على نقاط الضعف لدينا والوعي بعيوبنا.

ومن جانب آخر نحن في أشد الحاجة أيضًا إلى غرس القيم الدافعة إلى تقدم المجتمع في نفوس أبنائنا. وهذا أمر يقتضي تغيير المفاهيم وتغيير العقليات حتى تكون قارة على

---

(١) محمود حمدي زقزوق: هموم الأمة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م، ص٢١٥

تحمل تبعات النقد الذاتي الذي سيكشف عن الكثير من المساوئ والأخطاء. وكفانا تضييعًا للوقت وتبديدًا للجهد وتشتيتًا للفكر في صرف الانتباه عن عيوبنا وتخاذلنا وتقصيرنا وتعليق ذلك كله على إحدى الشماعات التي تريحنا.

ثانيًا: مرحلة حاسمة:

إن المرحلة التي يعيشها عالمنا الإسلامي المعاصر لم تعد تحتمل هذا العبث بمقدرات الأمة. فهذه المرحلة تعد من أخطر المراحل الحاسمة في تاريخ أمتنا الإسلامية، إن لم تكن أخطرها على الإطلاق. ذلك لأن الظروف التي يمر بها العالم المعاصر تختلف اختلافًا أساسيًا عن كل ظروف سابقة. فبعد الثورة الصناعية والحروب الساخنة والباردة تعيش عالمنا المعاصر ثورات من نوع مختلف تتمثل في ثورة المعلومات وثورة الاتصالات والثورة التكنولوجية. وكلها ثورات حدثت خارج نطاق العالم الإسلامي. وفي الوقت الذي يعيش فيه العالم المتقدم هذه الثورات ويقطف ثمارها، ويحتاج بتيار العولمة بقاع الأرض، نجد عالمنا الإسلامي لا يزال يرزح في معظمة تحت وطأة التخلف والأمية، ويندرج في عداد فيه كالسوس، وتعطل نموه الكيفي وتعوق تنميته وتستنزف طاقاته وإمكاناته.

وإذا كان العالم المتقدم لمحو الأمية التكنولوجية في بلاده، فإننا في عالمنا الإسلامي لا زلنا - في الأعم الأغلب - نعانى من مشكلة الأمية الأبجدية التي لا تقل نسبتها في المتوسط عن أربعين في المائة، مع أن رسولنا العظيم عليه الصلاة والسلام قد قدم لنا منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان أبلغ الدروس في الاهتمام بمحو الأمية بين المسلمين حين كان يفرج عن الأسرى في غزوة بدر إذا قام الواحد منهم بمحو أمية عشرة من أبناء المسلمين بتعليمهم القراءة والكتابة.

إن العالم من حولنا يجري بسرعة مذهلة، والفجوة بين العالم المتقدم والعالم الإسلامي تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم. وهذا يعني أن العالم الإسلامي - إلى يقف الآن في مفترق طرق - يواجه قضايا مصيرية وتحديات كبرى، وليس هناك مفر أمامه من التحرك السريع لمواجهة هذه القضايا، والتصدي لهذه التحديدات، والعمل بسرعة لتغيير هذا الوضع المتخلف، ولن يسعفنا في ذلك أو يساعدنا على الخروج من هذا المأزق لخطير قوة خارجية أو حتى غيبية،

وإنما التغير يجب أن يكون ذاتيًا، منبعثًا من إرادة إسلامية. فزمن المعجزات قد انتهى، والقانون القرآني في التغيير يحدد لنا معالم الطريق حين يقول: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾) [الرعد: ١١].

ولا يجوز للمسلمين في عالم اليوم أن يكونوا مجرد متقبلين أو مستهلكين لمنتجات العصر وأفكاره. فدينهم العظيم يفرض عليهم أن يكونوا مشاركين بفاعلية في كل التطورات العلمية والإنجازات التكنولوجية التي تخدم الإنسانية.

وقد نهض علماء المسلمين في السابق بواجبهم وتحملوا مسئولياتهم. وبذلك أسهموا في بناء صرح حضارة إسلامية شامخة قدمت عطاءها الغزير للإنسانية كلها، وكانت من أطول الحضارات عمرًا في التاريخ. ولكن عندما أصيب همم المسلمين بالفتور، وضعفت عزائمهم، وخارت قواتهم، تراجعوا إلى مؤخرة الصفوف وتوقف عطاؤهم الحضاري.

وإذا كان تيار العولمة يجتاح عالمنا في جميع الجهات فإن علينا أن نميز في هذا التيار بين ما هو إيجابي وما هو سلبي وأن نغتنم ما يأتي به من فوائد، وفي الوقت نفسه نحصن أنفسنا ضد ما يجلبه من مخاطر أو سلبيات. وفي كلا الحالين فإننا مطالبون بعمل إيجابي. ومن هنا فإن العالم الإسلامي ينبغي أن يرتفع إلى مستوى التحديات وأن يواجهها بشجاعة وإلا ينحنى أمامها ضعفًا أو استخذاء.

إن الأمر جد لا هزل فيه، وعالمنا لا يرحم الضعفاء ولا يحترم غير الأقوياء. ونحن المسلمين لسنا دعاة استعلاء، وإنما نحن دعاة عدل وسلام. ولكن لن يسمع لنا صوت مادمنا ضعفاء. فالعدل والسلام يحتاج إلى عنصر القوة. وقوة عالمنا المعاصر لن تعد في قوة السلاح فحسب، وإنما في قوة العلم والمعرفة. فمن يملك العلم يملك القوة، ومن يملك القوة يحظى بالاحترام ويكون قادرًا على تصحيح المسار من أجل خير وسلام البشرية.

ثالثًا: مواجهة التحديات:

ونحن المسلمين في أشد الحاجة إلى التعاون والتنسيق والتكامل على جميع المستويات لمواجهة التحديات المعاصرة. وإذا كان العالم المتقدم يقوم بتكوين تكتلات اقتصادية

كبرى يستطيع من خلالها فرض إرادته وتجارته وسلعه وخدماته فإن الكيانات الاقتصادية الضعيفة لن يكون لها مكان ولن تقوى على البقاء في ظل التنافس الاقتصادي القائم في عالم اليوم.

ويتلفت المسلم حوله فلا يجد تكتلًا اقتصاديًّا واحدًا له أهميته في نطاق عالمنا العربي الإسلامي. وهذا وضع جعل حجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامي يصل إلى أقل من ١٠٪ من مجمل معاملاته التجارية مع بقية دول العالم خارج نطاق العالم الإسلامي.

وعلى الرغم من كل السحب الكثيفة التي تغطى سماء عالمنا الإسلامي فإننا لا نريد أن نكون متشائمين، ولا يجوز لنا بأي حال من الأحوال أن نفقد الأمل في مستقبل أفضل للمسلمين. فاليأس والإحباط ليسا من سمات الشخصية الإسلامية: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

وعندما يتطلع المسلمون إلى غد أفضل فإنهم في حقيقة الأمر لا ينطلقون من فرغ. فهم أغنياء بما يشتمل عليه دينهم من قيم دافعة إلى التقدم المادي والمعنوي، وبما لديهم من رصيد حضاري عظيم، وبما حباهم الله به من ثروات طبيعية كثيرة، وبما يمتازون به من مواقع جغرافية مهمة تشكل سلسلة متصلة الحلقات لها أهميتها الإستراتيجية الكبرى.

ولكن تحقيق الأهداف المرجوة لا يكون بالتمني، وإنما يتطلب إرادة فاعلة، وعزمًا أكيدًا، وعقلية واعية، وهمة عالية وسعيًا متوصلا من أجل ترجمة الأمنيات إلى حقائق على أرض الواقع.

المبحث الرابع

من المنظور التاريخي إلى رصد الواقع

هناك ذكريات تاريخية وعدة ملابسات تدور في ذاكرتنا في البداية:

١- أولها ما جرى في أيام الإسلام الأولى من صراع بين الدعاة المسلمين والمبشرين المسيحيين، وهو صراع أو تنافس يفسر كلًا من الإسلام والمسيحية لهما طابع إنساني وعالمى (خلافا لليهودية)، وأن هذه العالمية من شأنها أن تخلق مناطق تنازع على التأثير والنفوذ.

٢- أما الذكرى الثانية فهي ذكرى الحروب الصليبية التي يتفق أكثر المؤرخين في شأنها على أن الجيوش الأوربية الغازية وإن رفعت الصليب وارتدت المسوح الدينية المسيحية، فإنها لم تكن في حقيقتها إلا حروب فتح وتوسع وأطماع سياسية واقتصادية.

٣- وأما الثالثة فهي وقوع أكثر أجزاء العالمين العربي والإسلامي تحت السيطرة الأوربية من خلال الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي والهولندي والبرتغالي، وهو استعمال لا تزال بعض مظاهره باقية على أرض العرب والمسلمين، ولا تزال بعض آثاره السلبية قائمة في العقل والوجدان على جانبي العلاقة، فلا ينال الغرب في زاوية من زوايا العقل العربي والمسلم، وهو ذلك العدو القديم الذي لم يريح بهيمنته واستعلانه واستغلاله إلا مضطرا، ولازال العرب والمسلمون في زاوية من زوايا العقل الغربي هم أولئك المتخلفون الذين هزمتهم وحكمتنهم أوروبا المتحضرة، ولم ترحل عن بلادهم وخبراتهم إلا مضطرة.

ويلفت النظر في خصوص «الظاهرة الاستعمارية» أن زوالها الفعلى برحيل الجيوش والسلطات الأجنبية لم ينه تماما آثارها الثقافية والعقلية، إذ لا تزال في العقل العربي والمسلم حالة احتراس وحذر شديدين تجاه كل فكر وكل مظهر حضاري قادم من الغرب، مخافة أن يكون قبول هذا التفكير وذلك المظهر امتدادا لحالة «الهزيمة تجاه الغرب» وهذا الأثر الباقى هو الذي يفسر تحفظ العقل الجماعي العربي والمسلم تجاه بعض ظواهر الحداثة والتقدم نظرا لمجيئها من أرض عربية هي أرض المستعمر القديم الذي رحل منذ ما لا يزيد على نصف قرن من جميع بلاد العرب والمسلمين.

ولأن الولايات المتحدة لم تمارس استعمارا بالمعنى التقليدي على العالمين العربي والإسلامي، فقد كان في إمكانها أن تظل بعيدة عن الاستقطاب غير الودى في العلاقة بين العرب والمسلمين من ناحية وبين الغرب من ناحية أخرى، وهي ميزة ظلت متحققة لها حتى وقت قريب، وهو الوقت الذي تحولت فيه إلى قوة كبرى وارثة للدور الأوربي في السياسة والاقتصاد وفي القوة العسكرية، ومتدخلة في أكثر المنازعات العالمية ـ والعرب والمسلمون طرف فيها ـ بقواتها العسكرية أحيانا وبأجهزة مخابراتها العديدة أحيانا وبقوتها الاقتصادية الهائلة تارة ثالثة أخرى، وبهذا التدخل فقدت الولايات المتحدة الميزة التي كانت لها وصارت هي ـ بدلا من أوربا ـ رمز التأثير الغربي الذي تستقر له مشاعر التحفظ والتخوف في العقل العربي والوجدانى المسلم.

٤- وأما آخر الملابسات التي ساهمت في تعقيد العلاقة بين العرب والمسلمين وبين الغرب بمفهومه السياسي والجغرافى فهو إقامة الدولة الصهيونية ذات التوجهات التوسعية وذات الطابع العسكري، والاستعداد ـ بغير حدود ـ لفرض الأمر الواقع على جيرانها من العرب والمسلمين عن طريق القوة العسكرية التي لا تبالى بأن يتم تحقيق أهدافها عبر بحار من دماء وأشلاء أولئك الجيران[١].

وليس من السهل أن يمحو العرب والمسلمون من ذاكرتهم وقائع المذابح التي جرت في دير ياسين، وصبرا وشاتيلا، وقانا، والمسجد الأقصى، فضلا عن أن تغيب عن وجدانهم صور مئات الضحايا الذين يسقطون تحت قنابل وصواريخ ورصاص الترسانة الإسرائيلية التي تشن حربا تشبه الإبادة على الشعب الفلسطيني، بعد أن تنكرت الحكومة الإسرائيلية التي يرأسها شارون لجميع التعهدات والالتزامات التي وقع عليها رؤساء الوزراء السابقون.

وإذا كانت مشاعر الغضب قد اتجهت أول الأمر إلى بريطانيا التي قدمت ـ تاريخيا ـ السند السياسي لإقامة الدولة الصهيونية، وذلك بوعد بلفور المشئوم عام ١٩١٧، فإذا تلك المشاعر قد تحول أكثرها إلى الولايات المتحدة بعد أن تولت مسئولية الدفاع عن إسرائيل، لا عن وجودها وأمنها فحسب ـ وهو أمر كان من الممكن ـ طول الوقت ـ قبوله، ولكن الذي لا يمكن فهمه فضلا هو قبوله عن إحساس أهل الشارع العربي والشارع الإسلامي بأن هذا

(١) أحمد كمال أبو المجد: الإسلام وأمريكا، مجلة تحديات ثقافية، الإسكندرية، صيف ٢٠٠٢، ص ٩٠.

الموقف السياسي المحير لحكومة الولايات المتحدة ليس نتيجة لموقف عدائى وقطيعة للدول العربية والإسلامية، وإنما هو سبب يفسر تماما ويبرر تماما مشاعر الغضب والإحساس بالظلم، وهي المشاعر التي يشكو منها وينتقدها كثير من المسئولين في الولايات المتحدة.

علاقة الإرهاب بالإسلام:

هناك أمور ثلاثة ينبغي توضيحها:

الأمر الأول: أن الدين وإن كان مكونا أساسيا من مكونات الثقافات والحضارات المختلفة، فإنه ليس المصدر الوحيد الذي يمكن على أساسه تفسير السلوك الفردى والجماعى لاتباع تلك الحضارات، فالمسلمون ـ مثلا ـ لا يعيشون بالإسلام وحده، وأن ظل الإسلام موجهًا هامًّا من موجهات سلوكهم وأساليبهم في العيش، إذ هم ـ من قبل ومن بعد ـ ناس من الناس يتلقون الرسالة السماوية، فيطيعونها ويتمثلون مبادئها، ويسعون إلى التخلق بمنظومتها الأخلاقية، ولكنهم لا يحققون تلك الغايات تحقيقا كاملا تندمج له أحوالهم وصورتهم في جوهر تلك الرسالات وصورتها، وإنما يظل جانب كبير من حياتهم، محكوما بسائر القوانين الاجتماعية التي تحكم سلوك الأفراد والجماعات، ومتأثرا بجميع ما تتأثر به حياة الناس ـ على اختلاف دياناتهم ـ من مؤثرات سياسية واقتصادية وثقافية.

ومن هنا لا يكون صحيحا ولا جائزًا علميًّا، أن يفسر سلوك العرب والمسلمين المعاصرين تفسيرا أحادى المحور، ويرد جميع جزئيات ذلك السلوك إلى الإسلام الذي يدينون به وينتسبون إليه، وما يقال في ذلك عن أبناء الحضارة العربية والإسلامية، يقال مثله عن أبناء الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات.

الأمر الثاني: أن في داخل كل حضارة تيارات عديدة يتوسطها تيار أساسي عريض يعبر عن قيمها الكبرى وتصوراتها الأساسية للعالم والإنسان والطبيعة، وهذا التيار يضم ـ عادة ـ الأغلبية العديدة الكبرى من أبناء الحضارة، وإليه تنسب الحضارة كلها، وعلى أساسه يكون فهمها والحكم عليها. وإلى جانب هذا التيار توجد ـ عادة كذلك ـ تيارات هامشية فرعية متعددة يطلق عليها اسم الثقافات الفرعية SUBCULTURES، وهي مع انتسابها للحضارة

واشتراكها في ذلك مع التيار الأساسي لتلك الحضارة، فإنها تتجاوز بعض معالم الحضارة التي تنتسب إليها، تجاوز قد يصل إلى حد التناقض معها، وكلها تيارات تساهم في خلقها ظروف وملابسات خاصة تختلف باختلاف المراحل التاريخية واختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال.

وتاريخ المسلمين في هذا الشأن جزء من تاريخ الحضارات كلها، وقد عرف ألوفا شتى من هذه الثقافات الفرعية التي تفسر الإطار المرجعي للثقافة الإسلامية تفسيرا خاصا تنفرد به دون أن يكون هذا التفسير حجة على غيرها، ودون أن يسأل عنه التيار الأساسي العريض main stream للحضارة الإسلامية، وأول هذه التفسيرات الخاصة لمصادر المعرفة الإسلامية والتشريع الإسلامي ما كان على عهد الخوارج الذين رفعوا المصاحف على أسنة الرماح والسيوف، وتلوا قول الله تعالى: «إن الحكم إلا لله»، «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ليقولوا بتفسيق على رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتفسيق معاوية، ليبرروا خروجهم على الدولة «اللهم وال من وله».

وإذا كانت مشاعر الغضب والإحباط قد أدت ببعض المسلمين المعاصرين إلى الفرار من مرارة الواقع والإشفاق من صورة المستقبل المجهول إلى ذكريات الماضي التي حملت أمجاد الحضارة الإسلامية وانتصاراتها، وإلى الانحياز عن مجتمعاتهم الحقيقة إلى مجتمعات مغلقة صنعوها لأنفسهم وانعزلوا بها عن المجتمع، وإذا كانت هذه العزلة قد صنعت لهم فقها خاصا بهم أوصلهم إلى الدخول في حرب لا تنتهي مع مجتمعاتهم أولا ثم مع الدنيا كلها، وإذا كانوا قد تجاوزوا ذلك كله إلى الاستهانة بحرمة دماء الناس كلهم، يفعلون ذلك وهم يظنون أنه الجهاد الذي شرعه الله للمسلمين، وأن طريقهم إلى الجنة، إذا كان ذلك كله قد وقع فإنه لا ينسب إلى الإسلام، ولا يجوز أن يحاسب سائر المسلمين كما لو كانوا شركاء فيه، ذلك أنه «لا تزر وازرة وزر أخرى» «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»، وفي الحضارة الغربية والشرائع الغربية مبدأ مقرر ومتفق عليه مؤداة أنه لا إدانة لمجرد الانتساب no guilt by association فلماذا تنسى اليوم هذه الحقائق كلها، ولماذا ينسى مبدأ شخصية الجرم وشخصية العقوبة، وكيف يدان ملايين العرب والمسلمين، لأن أفرادها من العرب والمسلمين ارتكبوا أعمالا لم يستشيروا فيها أحدا، ولم يقرها عليهم أحد، ثم وكيف ينسى التاريخ القريب الموصول من التعايش والتعاون بين أبناء الحضارة العربية الإسلامية وبين

أبناء الحضارة المسيحية التي تضم إلى جانب مصدرها العقلي اليوناني الأصل مصدرًا دينيًّا هو العقيدة المسيحية التي يجلها المسلمون ويجلون معها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما يجلون أمه العذراء البتول التي سميت باسمها سورة كاملة من سور القرآن الكريم الذي يصلون به ويتعبدون، ويتلونه أناء الليل وأطراف النهار.

الأمر الثالث: أن الحضارات ليست ولم تكن يوما ما في حالة تجمد وثبات وسكون، وإنما هي في حركة دائمة، وتطور متصل الحلقات، والحضارات المعاصرة تعيش كلها أزمة حقيقية حين تمر بمرحلة انتقال سريع صنعتها الثورات العلمية والصناعية التي تتابعت خلال الخمسين سنة الأخيرة، والتي تضاعفت سرعتها خلال هذه العقود الخمسة، خصوصا في ميادين الانتقال والاتصال والمعلومات، وقد أدرك أهل الفكر في الحضارات المعاصرة مدى تأثير تلك الثورات على أحوال الفرد، وأحوال الأسرة، وأحوال الجماعة كلها، وأن هذا التأثير الذي لا فكاك منه، يقتضي منهم وقفة جديدة يراجعون بها تراثهم وتقاليدهم وكثيرا من أفكارهم، ويحققون من خلالها التوازن الذي لا غنى عنه بين ثوابت الفكر والاعتقاد التي تحقق السكينة الداخلية للإنسان الفرد، كما تحقق التواصل بين أجيال الناس وبين ضرورات التطور لملاقاة التغيرات الجذرية التي أحدثتها الصورة العلمية بتجلياتها المختلفة، وتداعياتها العملية التي لا نهاية لها. ومن المحقق أن عقلاء الأمة وحكماءها ومثقفيها يدركون ذلك كله، وهم منذ سنوات عديدة يمارسون عملية مراجعة وتأمل ونقد ذاتى لأحوالهم وأنماط سلوكهم، ويديرون من أجل ذلك حوارًا جادًّا به أجيالهم المقبلة من إدمان أنظر إلى الماضى والانشغال به عن المستقبل، ويحققون به لأنفسهم شروط النهضة والتقدم، متوالسين ـ في ذلك كله ـ مع شعوب الدنيا ومستفيدين من تجاربها، وفاتحين عقولهم وصدورهم لكل جديد نافع، ومن المؤسف أن هذه الملحمة الثقافية التي تعيشها اليوم شعوبنا العربية والإسلامية لا تزال خافية عن أعين الساسة في الغرب ـ بصفة عامة ـ وفي الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة، وهذا الخفاء هو الذي يفسر الأحكام السطحية المتعجلة التي نرى صداها في تصريحات أولئك الساسة وهم يتحدثون عن الإرهاب الإسلامي، أو عن الجهاد الإسلامي ضد الولايات المتحدة، أو عن حتمية الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

ولا شك أن جزءًا كبيرا من المسئولية عن استمرار هذا الخفاء يعق على عاتقنا نحن العرب والمسلمين، على ساستنا ومثقفينا وجميع المشتغلين بالإعلام في عالمنا العربي والإسلامي، وذلك حين قصروا كذلك في نقد صور عديدة من صور الفكر الديني المعوج، وبيان مدى مخالفتها لجوهر الإسلام وتصوراته الأساسية، ومدى ما تلحقه من ضرر بالأمة كلها، في خاصة أمرها، وفي علاقتها بسائر الأمم والشعوب.

وفي مجال البحث عن أول طريق المستقبل بين الحضارات، فإن الأمر يستهدف إعادة الثقة والاطمئنان، يحول دون المواجهة والصدام، ويفتح الباب واسعا للتعاون في محاربة جميع صور الإرهاب، ولإقامة نظام سياسى وثقافى عالمي جديد يقوم على العدل وعلى مشاركة الجميع دون هيمنة أو استبعاد أو إقصاء على النحو المؤسف الذي طبع العلاقات الدولية طوال القرن الماضى، جرت محاولات عديدة لاكتشاف القيم المشتركة بين الحضارتين، كان من بينها الأمور الآتية التي يتلقي عندها التياران العريضان الواسعان المعبران عن روح الحضارتين.

إن الحضارتين إيمانيتان، تؤمنان بإله واحد، وإن تعددت واختلفت بينهما تفاصيل هذا الإيمان، وبأن الناس جميعا موقوفون - يوما ما - بين يديه ليحاسبهم على ما قدموه وما أخروه، وهذا الإيمان هو المدخل الأكبر لمراقبة النفس، وللالتزام الأخلاقي والسلوكي لدى الأفراد والجماعات.

إن الحضارتين تؤمنان بالإنسان، مخلوقًا مكرمًا ومفضلا من خالقه على أكثر مخلوقاته، وهو المعنى الذي تقرره الآية «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» سورة الإسراء، ومن هذا التكريم والتفضيل تتفرع حقوق الإنسان وحرياته الشخصية والمدنية والسياسية.

إن الحضارتين تقران الشورى في الأمور العامة، أو الديمقراطية على ما عرفتها الحضارة الغربية باعتبارها أفضل الصيغ لإدارة شئون الجماعة، وبها تتحقق مشاركة الجميع في كلما تعود آثاره على الجميع، وعن طريقها يتحقق - كذلك - معنى الانتماء والولاء للجماعة.

إن للحضارتين منظومة قيم مشتركة في مقدمتها القاعدة المسماة بالقاعدة الذهبية، والتي يلخصها الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وهذه بعض شهادات المنصفين من الغرب حول الإسلام:

يقول الكاتب: ت كولر يونج T. C. YOUNG:

إن الدين الثقافي العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين داخل هذه الألف سنة، نسافر إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم، وفلسفة الحياة الإنسانية، يجب التذكير به دائما، في حب واعتراف بالجميل(١).

«لقد قامت الثقافة العربية الإسلامية بدورها الطليعي خير قيام في بناء النهضة العلمية العالمية، وقد نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الإغريقي وغيره من ألوف التراث العلمي الذي تقدم عليهم في التاريخ نقلوه إلى اللغة العربية، التي كانت لغة علم وثقافة، وأثر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوربية، وكان طابع الثقافة العربية الإسلامية غالبا وواضحًا ومؤثرًا في عديد من المجالات العلمية والفكرية والثقافية، مثل ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشرى، ونظرية التطور قبل «داروين» بمئات السنين، والدورة الدموية الصغرى قبل «هارفى» بأربعة قرون، والجاذبية والعلاقة بين الثقل والسرعة والمسافة قبل نيوتن بقرون متطاولة، وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا الانعكاس الانكسار، وتقدير محيط الأرض، وتحديد أبعاد الإجرام السماوية، وابتكار الآلات الفلكية، واكتشاف أعالى البحار، ووضع أسس علم الكيمياء.

ويمكن القول إجمالا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوربية. فالفكر العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، سلسلة متصلة الحلقات، امتدت من الحضارات القديمة، من مصرية، وآشورية، وبابلية، وصينية، إلى حضارة الإغريق والإسكندرية، إلى العصر الإسلامي الذي قرأوا أعمال العلماء العرف في كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوربية».

يذكر د/ سيمون الحايك:(٢)

«لقد حافظت الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية من الضياع، إذ لولا

(١) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ص ٥ نشر الشعبة القومية المصرية للتربية والعلوم الثقافية القاهرة ١٩٨٧.

(٢) في كتاب «نقل الحضارة العربية إلى الغرب»، ص ١٣ - ١٥ المطبعة البولسية ببيروت ١٩٨٧م.

المثقفون والعلماء العرب، ملا وصلت إلى أيدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربية، ولقد ظل الغرب يشتغل على الثقافة العربية حتى بعد أن تقلص ظلها في الأندلس بجيلين أو أكثر حتى وصل إلى العصور الحديثة، وظلت الثقافة العربية الإسلامية تستهوى الكثيرين من أبناء العالم الغربي، إذ لم تتوقف الترجمة عن العربية في عصر النهضة وما بعد عصر النهضة، رغم الاتصال المباشر بالعالم اليوناني والحضارة اليونانية اعتبارا من منتصف القرن الثالث عشر للميلاد عندما بدأت الكتب اليونانية تنقل رأسا إلى اللاتينية من دون الاستعانة بالترجمات العربية. فالثقافة العربية لها قيمتها وشخصيتها، فقد انتجت الكثير مما لم تستطع الثقافة اليونانية إنتاجه في الحقول كافة: إضافات وتعليقات وابتكارات واكتشافات عربية لم يعرفها اليونان.

إن حركة النقل من الثقافات العربية الإسلامية التي خرجت بها أوربا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، لم تقتصر على نقل المعارف القديمة من يونانية وهندية وبابلية ومصرية، من كتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فحسب. إن أوربا المسيحية قد نقلت أيضًا معارف عربية خالصة، كما نقلت أنماطا من الحضارة الإسلامية ومن الإيمان الإسلامي إلى حياتها العامة وحياتها الخاصة».

العالم الحديث

يذكر د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى:[١]

أن العالم الغربي درس الثقافة العربية الإسلامية، واعتبرها تراثا عظيما يستحق الدراسة والتحليل، ولقد كان العرب والمسلمون يمثلون العلم الحديث بكل معنى الكلمة؛ كانوا روادًا في المناهج العلمية الحديثة، وقد اكتسب المثقفون العلماء في أوربا من الثقافة العربية الإسلامية أكثر من مجرد المعلومات، إنهم اكتسبوا العقلية العلمية ذاتها بكل طابعها التجريبى والاستقرائى، بحيث وجد الأوربيون في التراث العربي الإسلامي وفي الثقافة العربية الإسلامية ضالّتهم المنشودة، فعكفوا على نشره.

(١) في كتابه «الحضارة الإسلامية وتحديات القرن الحادى والعشرين» ص ٥٣ مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩٥م.

المبحث الخامس

ورغم هذا: فلماذا العداء من الغرب للإسلام؟

مارس الغرب العدوان على «الآخر الحضاري» وبالذات «الآخر الإسلامي» - ذلك الميراث المشوه والعدائي الذي حفلت به ثقافته المدنية تاريخيًّا، على اختلاف حقولها وميادينها، إزاء الإسلام ومقدساته وأمته وحضارته.. وهو الميراث الذي لا يزال فاعلًا في الإعلام الغربي.. والتعليم الغربي.. ودوائر الفكر والدراسات.. وعند صناع القرار حتى كتابة هذه الصفحات!..

ففي الثقافة الشعبية الغربية تتعلم الجماهير من «ملحمة رولاند» - حوالي سنة ١٠٠٠م - أن المسلمين يعبدون الثالوث:

١- أبوللين Apollin.

٢- وتير فاجانت Tervagant.

٣- ومحمد Mohamed.

وأن المسلمين يعظمون يوم الجمعة، لأنه يوم إلهة الحب «فينوس» Venus بينما المسيحيون يعظمون يوم الأحد لأنه يوم الرب!.

ولقد لعبت هذه الصورة التي شاعت في الثقافة الشعبية الأوربية - دورها في تجييش أحقاد العامة والدهماء في الحملات الصليبية ضد الإسلام وأمته وعالمه وحضارته فتحدثت هذه الملحمة «ملحمة رولاند» عن المسلمين فقالت لهؤلاء الدهماء: «انظروا إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد لا علاقة له بالله وسوف يمحي اسمه من فوق الأرض الزاخرة بالحياة لأنه يعبد الأصنام. لا يمكن أن يكون له خلاص، لقد حُكم عليه فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم باسم الله!..» ثم تبدأ ملامح القتال الصليبي بعد تلاوة هذا الذي جاء في «ملحمة رولاند»[١].

---

(١) صورة الإسلام في التراث الغربي - ص ٢٥، ٢٦، ٤٣.

والشاعر الإيطالي «دانتي» (١٢٩٥-١٣٢١م) والذي مثل مرجعية كبرى في الثقافة الغربية - يضع رسول الإسلام ﷺ وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات جهنم لأنهم بنظره التنويري - من أهل الشجار والنفاق الذين تقطعت أجسادهم في سعير «الكوميديا الإلهية».[١]

أما جوته - الألماني - (١٧٤٩-١٨٣٢م) فإن رسول الإسلام - عنده - «قد نصب حول العرب غلافًا دينيًا كئيبًا، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل في أي تقدم حقيقي!...»[٢]

ولهذا التشويه الذي حفلت به الثقافة المدنية العلمانية الغربية - تشويه الآخر الإسلامي.. والدعوة إلى إنكاره واستئصاله ولتزامل هذا الموقف الثقافي المدني مع الموقف الثقافي اللاهوتي - في الحضارة الغربية - رأينا امتدادات هذا الموقف تسود في الرؤية الغربية المعاصرة للإسلام وأمته وعالمه وحضارته.. وتصبح لها تأثيراتها على صانع القرار في المشروع الغربي المتحالف مع المشروع الصهيوني ضد نهضة الشرق الإسلامي وحق تقرير المصير للشعوب المسلمة وإسلامية النموذج الحضاري في عالم الإسلام.

فالرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» وهو من رجالات الإستراتيجية يقول - عن صورة الإسلام والمسلمين - في العقل الأمريكي المعاصر: «إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ودمويين وغير منطقيين وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون - بالصدفة - على بعض الأماكن التي تحوي ثلثي النفط الموجود في العالم وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة حتى بالنسبة إلى الصين الشيوعية في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي.

ويُحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة، وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي..

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٧.

ويُزيد هذا الرأي: أن الإسلام والغرب متضادان وإن نظرة الإسلام لعالم تقسمه إلى قسمين: «دار الإسلام» و«دار الحرب» حيث يجب أنت تتغلب الأولى على الثانية وأن المسلمين يوحدون صفوفهم لقيام بثورة ضد الغرب وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفيتي ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة..»[1]

وإذا كان «نيكسون» قد شهد بأن الإسلام والمسلمين هم أسوأ الصور في ثقافة أغلبية الأمريكيين.. الأمر الذي جعلهم يدعون إلى تحالف الأعداء - الليبرالية الرأسمالية والشمولية الشيوعية - أي كل الغرب - ضد الآخر الإسلامي.. فلقد سألت مجلة «النيوز ويك» الأمريكية رئيس المجلس الوزاري الأوربي السياسي الإيطالي البارز «جياني ديميكليس»:

ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي (الناتو) بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكيًّا؟

فأجاب رئيس المجلس الوزاري الأوربي:

«صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي».

فلما عاد مراسل «النيوز ويك» ليسأل:

«وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة».

لم يتردد «جياني ديميكليس» في أن يُعلن أن الشرط هو تعميم النموذج الحضاري الغربي، وقبول المسلمين له أي «إلغاء الآخر الحضاري الإسلامي».. فقال:

«ينبغي أن تحل أوربا مشاكلها ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولًا من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكانًا في منتهى الخطورة»[2].

---

(١) ريتشارد نيكسون (الفرصة السانحة) ص ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ - ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة دار الهلال القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(٢) الأهرام عدد ١٧ يوليه سنة ١٩٩٠م - من مقال: فهمي هويدي «من يُعادي من؟» وهو ينقل عن عدد «نيوز ويك» الصادر في يوليو سنة ١٩٩٣م.

فالمطلب الغربي هو «إلغاء الآخر الحضاري الإسلامي» سلمًا بقبول المسلمين للنموذج الحضاري الغربي أو حربًا بواسطة آلة الحرب الأطلنطية إذا هم لم يتنازلوا عن نموذجهم الحضاري الخاص.

أما مجلة «شئون دولية» International Affairs التي يُصدرها المعهد الملكي للشئون الدولية بجامعة «كامبردج» البريطانية فإنها تقدم التفسير الثقافي والحضاري لإعلان كثير من مؤسسات المشروع الغربي أن الإسلام هو العدو الذي حل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية» فإذا بجوهر أسباب هذا الإعلان لهذا العداء هو رفض الإسلام وعالمه التخلي عن النموذج الثقافي والحضاري المتميز واستعصاء الإسلام على الذوبان في النموذج العلماني الغربي!.. فلهذا السبب أصبح الإسلام «من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة».

لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول.

إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي (الغربي) الذي يميز بين ما لله وما لقيصر وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها في ديمقراطية علمانية؟

إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع والتي تقول: «إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني صالحة على العموم.. لقد تناقص التأثير السياسي والسيكولوجي للدين عمليًا في كل المجتمعات وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدًا من هذا! فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعًا ما والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا في ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية فهو صحيح في ظل نظم راديكالية

(ثورية) اجتماعيًّا وهو صحيح أيضًا في ظل النظم التقليدية وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التي تقف بين النوعين.

إن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرقت مجتمعات أخرى «غير متطورة» أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ومحاكاته لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتي باسم الإيمان المحلي وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة.

إن الإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللاإرادية وفتور الهمة واللامبالاة وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا فضلًا عن هلاكها المعنوي..[١]

فامتلاك الإسلام مقومات التجدد الذاتي ومعالم المشروع النهضوي المؤمن هو الذي جعله مستعصيًا على العلمنة واستثناء من بين ثقافات الجنوب في رفض التغريب والذوبان في النموذج العلماني الغربي الذي ربط الديمقراطية بالعلمنة التي تفصل بين ما لله وما لقيصر!.. ولذلك كان إعلان الغرب «أن الإسلام هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية»[٢].

والتهديد بتوجيه آلة الحرب الأطلنطية إلى العالم الإسلامي الرافض لنزعة المركزية الحضارية الغربية التي لا تريد في العالم سوى نموذجها الحضاري وبعبارة «جياني ديميلكس»: «أن يصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولًا من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكانًا في منتهى الخطورة».

---

(١) مجلة « شئون دولية « لندن - عدد يناير سنة ١٩٩١م - ففي هذا العدد «ملف» عن الإسلام فيه دراسة عن «المسيحية والإسلام» لإدوارد مورتيمر، والثانية عن «الإسلام والماركسية» لأرنست جيلنر.

(٢) هذه العبارة نص تصريح «ويلي كلايس» الأمين العام لحلف الأطلنطي في منتصف تسعينات القرن العشرين.

فإما تغريب العالم وإلغاء «الآخر الحضاري» وإما المواجهة على اختلاف آلياتها وميادينها.[١]

ولهذه الحقائق التي تعلنها النصوص الغربية ومن قبلها جسدتها وتجسدها «الممارسات الغربية» والرافضة للآخر «الديني» و«الحضاري» كانت قراءتي مختلفة لما كتبه «صامويل ب. هانتنجتون» عن «صدام الحضارات» فالرجل كمفكر إستراتيجي - يهودي الديانة - أمريكي الجنسية قريب من دوائر صنع القرار - لم يكن داعيًا ومبشرًا بصدام الحضارات وإنما كان كاشفًا عن موقف الغرب الذي يُمارس تاريخيًا وحاليًا صدام الحضارات.

وإذا كنا في التاريخ الحي والفاعل قد تعرضنا لاستعمار الغرب غزوًا عسكريًّا وقهرًا حضاريًّا ونهبًا اقتصاديًّا وتغريبًا ثقافيًا لأكثر من أربعة عشر قرنًا عشرة منها بدأت بالإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٤ق.م) واستمرت حتى التحرير الإسلامي الذي أزال بالفتوحات الإسلامية امتدادات غزوة الإسكندر الأكبر وقرنان من هذا الغزو الغربي عشناهما في ظل حروب الفرنجة «الحملات الصليبية» ودولها وكيانها الاستيطانية (٤٨٩-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م) وأكثر من قرنين ما زلنا نعالج آثار الغزوة الغربية فيهما منذ حملة بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م) على مصر وحتى كتابة هذه السطور (١٢١٣-١٤٢١هـ/١٧٩٨-٢٠٠١م) بل إن عمر هذه الموجات الاستعمارية الغربية ضد الشرق يمكن أن يبلغ ستة عشر قرنًا لا أربعة عشر إذا نحن أضفنا مرحلة الالتفاف حول العالم الإسلامي واستعمار شرقي آسيا والتي بدأت عقب سقوط غرناطة (٨٩٧هـ-٤٩٢م) وحتى غزو بونابرت لقلب العالم العربي.

إذا كانت هذه هي «الممارسة الغربية» ضد «الآخر الإسلامي» فإن «هانتنجتون» ليس بمخترع لهذا الذي مارسه الغرب عبر هذا التاريخ الطويل.. وإنما الرجل كان في الحقيقة «كاشفًا» عن هذه النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام وعالمه وهذا هو معنى عبارته «إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام».

لكن لأن «هانتنجتون» ملتزم بمصالح الغرب وابن لليهودية التي تمثل مع التراث المسيحي البعد الروحي للحضارة الغربية فلقد حاول تمييع الموقف عندما جعل هذا

(١) محمد عمارة (الإسلام والآخر من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟) القاهرة - مكتبة الشروق - ٢٠٠١م - ص ١٤٢

الصراع موقفًا مشتركًا وفعلًا متبادلًا بيننا وبين الغرب على حين كنا نحن الضحايا لهذه النزعة المركزية الحضارية الغربية ولهذه الفلسفة الصراعية - التي مثلت ولا تزال - جزءًا من البنية العضوية والروح السارية في الحضارة الغربية وهو «هانتنجتون» بهذا الموقف لا يُزيف الحقيقة فقط وإنما يتجاهل موقف الإسلام وأمته وحضارته إزاء «الآخر» بل ويتجاهل رفض الإسلام للفلسفة الصراعية وتبنيه بدلًا منها لفلسفة «التدافع» الذي هو حراك سياسي وديني وفكري واجتماعي يصحح مواقف الظلم والجور والخلل ليعيد علاقات الفرقاء المتمايزين والمختلفين إلى نقطة العدل والتوازن دون أن يذهب بالصراع إلى صرع الآخر وإلغائه وأيضًا دون أن يتبنى موقف السكون والسلبية الذي يدع العالم ومجتمعاته غابة يفترس الأقوياء فيها الضعفاء فالإسلام رافض لمذهب الصراع وفلسفته ومنحاز إلى التدافع الحضاري وفلسفته لأن التعددية والتمايز والاختلاف والتنوع - بنظر الإسلام - سنة من سنن الله الكونية والتكوينية في مختلف ميادين الوجود والحياة فالأُحدية فقط هي للذات الإلهية وما عدا الذات الإلهية قائم على سنة وفلسفة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف وإذا كان الصراع هو مقبرة التعددية: -

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧-٨].

فإن فلسفة الإسلام مع التدافع ولا يمكن أن تكون مع الصراع وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]

وأخيرًا.. فإن «هانتنجتون» كمستشار مؤتمن لصانع القرار الغربي قد أشار على «قومه» بترتيب الأولويات في معارك صراع الغرب مع الآخرين فدعاهم إلى البدء بكسر شوكة الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية (الصينية) مع تحييد الحضارات الأخرى حتى يفرغ الغرب من الإسلام والصين وبعد ذلك يستدير الغرب للصدام مع الحضارات التي حيدها والتي أبت تبني النموذج الغربي والذوبان في التغريب.[1]

---

(١) محمد عمارة (الحضارات العالمية: تدافع أم صراع؟) سلسلة في التنوير الإسلامي - طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٨م.

المبحث السادس

تحديات في طريق التقارب بين الإسلام والغرب

أولًا: الفهم الخاطئ للإسلام:

والإسلام بين الاعتدال والوسطية يكوه التطرف والغلو في الدين ويدعو إلى التيسير على الناس والرحمة بهم ورغم تعاليم الإسلام الواضحة في هذا الشأن إلا أن هناك اتجاهات تفسير الإسلام على هواها وتريد أن تشده ناحية اليمين أو ناحية اليسار بتفسيرات خاطئة تجعل منه إما دينًا جامدًا منغلقًا لا يقوى على مسايرة الزمن ولا يراعي متغيرات الحياة وبذلك يشدونه إلى فهمهم السقيم ويُضيقون رحمة الله الواسعة وإما أن يجعل منه فريق آخر دينًا دمويًا عدوانيًا متعطشًا لسفك الدماء وكلا الاتجاهين لا مكان له من الحقيقة ولا يُعبر إلا عن الرؤى المريضة لمن يتحدثون بها.

فالإسلام إذ يرفض الجمود والانغلاق والتقوقع فإنه من ناحية أخرى يرفض رفضًا قاطعًا كل شكل من أشكال العنف أو العدوان أو القتل والتخريب ويسمي القرآن ذلك بأنه إفساد في الأرض يعاقب مرتكبوه بأشد العقاب في الدنيا ثم في الآخرة: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

والفهم الخاطئ للإسلام يرجع إما إلى جهل أصحابه بجوهر تعاليم الدين كما هو الحال لدى الفريق الأول أو خداع الجماهير برفع شعارات دينية لتحقيق أغراض دنيوية كما هو الحال لدى الفريق الثاني.

والأمر يحتاج إلى كشف زيف هذه التفسيرات الباطلة في كلتا الحالتين وإبراز قيم الإسلام السمحة التي تحض على الرحمة والتراحم والعدل حتى مع الأعداء.

وربما يكون الفريق الأول حسن النية في مقابل سوء نية الفريق الثاني ولكن حسن النية قد يؤدي إلى عواقب وخيمة لا تُحمد عقباها فالصديق الجاهل قد يكون أشد خطرًا - دون أن يدري - من العدو العاقل على الأقل لأن العدو يسفر عن عداوته وبالتالي يمكن

أخذ الحذر منه والاستعداد لمواجهته أما الصديق الجاهل المحسوب على الإسلام والذي يُبدي أشد الحرص على حمايته بأسلوبه المتخلف فإنه بذلك يمثل عقبة في طريق التقدم ولا يستطيع أن يفهم ما يدور حوله من تطورات فضلًا عن فهم جوهر الإسلام وروحه بوصفه دينًا حضاريًا إنسانيًا بكل معنى الكلمة.

وحتى يستطيع الإسلام أن يتجه بخُطى ثابتة وحيثية نحو المستقبل فلابد لأتباعه من التخلص من هذا المرض المزدوج وذلك عن طريق الفهم المستنير للإسلام وتعاليمه والكشف عن الوجه الحضاري لهذا الدين الذي تتماشى تعاليمه مع كل زمان ومكان وبيان قدرته على التطور ومواجهة متغيرات الحياة وقدرته الذاتية في الصمود أمام كل التحديات وتاريخ الإسلام شاهد على ذلك.

وإذا اتضح لجماهير المسلمين أن الإسلام بريء من جهل أصدقائه ومن شذوذ من يدعون أنهم يقتلون دفاعًا عنه فإن ذلك يمهد السبيل للتغلب على الصعاب والتحديات الأخرى الخارجية والتي تتخذ من الفهم الخاطئ للإسلام من جانب هذين الفريقين ذريعة لوصم الإسلام بكل الرذائل.

ثانيًا: الخوف من الإسلام في الغرب:

أثناء الحرب الباردة كان الغرب ما يزال في حاجة ماسة إلى المعاونة من جانب الإسلام في صراعه مع الشيوعية أو لنكن أكثر واقعية ونقول: كان في حاجة إلى مهادنة الإسلام فالغرب يعلم علم اليقين أن الإسلام والشيوعية لا يجتمعان ومن هنا فقد كان من المفيد للغرب أن يتعاون مع الإسلام في هذا الصدد ولكن بعد أن انتهت الحرب الباردة وسقطت الشيوعية بسقوط الاتحاد السوفيتي السابق في بداية التسعينات لم يعد الغرب في حاجة إلى الإسلام فانتهت سياسة التعاون والمهادنة.

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل راح الغرب يبحث عن عدو بديل للشيوعية ولم يجد إلا الإسلام ليكون هو العدو البديل إذ يبدو أن الغرب لا يستطيع أن يعيش دون أن يكون له عدو فإذا لم يكن هناك عدو حقيقي فليتصور عدوًا وكان العدو المتصور هو الإسلام.

وانتشرت في الإعلام الغربي فكرة الخوف من الإسلام أو ما يُطلق عليه «إسلاموفوبيا» ولم يستطع كبار المسئولين في الغرب أن يُخفوا هذا التصور فورد ذلك على لسان الأمين العام السابق لحلف الأطلنطي وكان ما يزال في منصبه المهم كما ورد على لسان أحد الرؤساء في الغرب.

وبدأ الحديث في الغرب عن الأصولية الإسلامية والإرهاب الإسلامي والخطر الذي يتهدد الحضارة الغربية من هذا الشر المدمر والذي هو الإسلام في زعمهم واختلطت الأوراق وتاهت الحقائق وسط التدفق الإعلامي الغربي في هذا التيار الجارف.

وقد ساعد على شيوع هذا التصور تزايد موجات العنف في بعض البلاد الإسلامية ومن المفارقات الغريبة أن الغرب نفسه بدأ يوفر الملجأ والملاذ وحرية الحركة لرؤوس الإرهاب في العالم الإسلامي.

وهذا التوجه الغربي يُعني عدم السماح بتطوير قدرات العالم الإسلامي العسكرية بل وحتى الاقتصادية والعلمية رغم ما يُغدقه الغرب من إمكانات هائلة على إسرائيل التي زرعها الغرب شوكة في ظهر العرب لتعوق أي طموحات في تطوير قدراتهم وتنمية بلادهم ويعني أيضًا عدم السماح للعالم الإسلامي بأي نصيب من المشاركة في رسم سياسة العالم عن طريق تمثيل العالم الإسلامي بمقعد دائم في مجلس الأمن.

وأذكر أنني شاركت عام ١٩٩٣م في مؤتمر دولي بالعاصمة النمساوية فينا حول موضوع «السلام من أجل الإنسانية» وتقدمت باقتراح يقضي بضرورة أن يكون للعالم الإسلامي الذي يمثل أكثر من خمس سكان العالم مقعد دائم في مجلس الأمن وقلت آنذاك: «لكي تتاح الفرصة أمام المسلمين للإسهام بفاعلية في سلام العالم اقترح أن يحصلوا على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي وينبغي أن يكونوا ممثلين في هذا المجلس بدولة يختارونها من بين الأعضاء الممثلين في منظمة المؤتمر الإسلامي. فالمسلمون يؤلفون خُمس سكان العالم ومن أجل ذلك فإن من حقهم أن يكون لهم صوت مسموع».

ولكن عز على بعض المشاركين أن يكون للمسلمين مثل هذا الدور فعارضوا الاقتراح بحجة تنم عن مغالطة مكشوفة إذ زعم البعض أن ذلك يعني أن يكون هناك أيضًا تمثيل في مجلس الأمن للفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي.. إلخ وأن يصبح المجلس مكونًا من

مشايخ وقساوسة وهذا كلام يُعد من قبيل الهزل في وقت الجد. فالأمر يتعلق بتمثيل شعوب يبلغ تعداد سكانها خُمس سكان العالم ولا علاقة له بتمثيل الدين كدين وفضلًا عن ذلك فإن الشعوب المسيحية في أوربا ممثلة بأربعة من الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.[1]

ثالثًا: صراع الحضارات:

ويرتبط بقضية الخوف من الإسلام الترويج في الغرب لنظرية صراع الحضارات وأن هذا الصراع أمر حتمي وبطبيعة الحال يوضع في الحسبان في هذا التفكير - بالدرجة الأولى - صراع الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ويستعيد البعض ذكريات الماضي القريب والبعيد لهذا الصراع.

والهدف في النهاية هو ضرورة هزيمة الحضارة الإسلامية حتى تتمكن حضارة واحدة وهي الحضارة الغربية بأن تكون لها اليد الطولى والسيطرة على العالم كله وتتأكد بصورة قاطعة فكرة العولمة التي سنتحدث عنها فيما بعد ولعل ذلك كله يُشكل مقولة نهاية التاريخ التي يتم الترويح لها أيضًا.

وقد سبق للفيلسوف الألماني المعروف «هيجل» الذي توفى عام ١٨٣١م أن أشار في كتابه المعروف «فلسفة التاريخ» إلى أن الإسلام قد اختفى منذ زمن طويل من أرض التاريخ العالمي أي: لم يعد له تأثير في توجيه أحداث التاريخ بعد أن ركن إلى الاسترخاء واستسلم إلى السكون الشرقي. وهنا كما يحدث أيضًا في الكتابات الغربية المعاصرة عن الإسلام: يتم الخلط بين الدين الإسلامي وبين الواقع الحضاري المتخلف الذي الأمة الإسلامية. وهذا الواقع يمثل مرحلة عارضة في تاريخ المسلمين، وليس حكمًا أبديًا بالجمود والتحجر على خمس سكان العالم.

وحقيقة الأمر أنه إذا كان البعض يتبنى في الغرب نظرية حتمية صراع الحضارات فإن الإسلام كدين لا يرى ذلك أمرًا حتميًا لا مفر منه لأن الصراع القائم بين البشر لا يقتصر

(١) محمود حمدي زقزوق - هموم الأمة الإسلامية - مرجع سابق - ص: ٤٢

على الصراع بين الحضارات فهناك أيضًا صراعات تقع بين البشر داخل الحضارة الواحدة وما أكثر مثل هذه الصراعات في عالمنا الذي نعيش فيه.

ولكن موقف الإسلام المبدئي الثابت يتلخص في أن تعددية الأجناس في المجتمعات البشرية أو بمعنى آخر تعددية الحضارات واختلافها لا يجوز أن تكون مدخلًا للنزاع والشقاق وأن تمثل عائقًا أمام توحيد جهود الناس وتآلفهم فيما بينهم فالتعددية ينبغي أن تفتح الطريق أمام التعارف والتعاون والتوحد. وهنا تكمن المهمة الإنسانية التي ينبغي على الإنسان حيثما كان موقعه أو معتقده أن يتحمل مسئوليتها. ويُشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهنا جعل القرآن الاختلافات بين البشر مدخلًا للتعارف والتآلف والتعاون لا مقدمة للنزاع والشقاق والصراع. فنظرية الصراع الحتمي للحضارات مرفوضة أساسًا من الإسلام الذي يقرر أن الناس جميعًا قد خُلقوا من نفس واحدة وأن العدوان على نفس واحدة يُعد عدوانًا على البشرية كلها وليس على طائفة معينة أو حضارة بعينها. ومن هنا فإن التصور الإسلامي أوسع دائرة وأرحب أفقًا وأعمق في إنسانيته من تلك التصورات العنصرية التي تسعى إلى إعلاء شأن حضارة ما على غيرها من الحضارات والثقافات.

رابعًا: العولمة:

ومنذ سنوات مضت ظهر الحديث عما يُسمى بالنظام العالمي الجديد، وبخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق وأصبح الحديث عن «العولمة Globalization» أمرًا مطروحًا.

وعلى الرغم من أن ملامح هذا النظام العالمي الجديد أو العولمة لم تتضح بصورة قاطعة فإن الهدف من هذا النظام الجديد أو العولمة - أو الكوكبية أو الكونية كما يحلو للبعض أن يُسميه - لم يعد يخفى على أحد فالمقصود هو أن هناك حضارة غربية قائمة لها قيم ولها معايير معينة وعلى الجميع في العالم أن يتواءم معها وأن يعتنق مبادئها ونظمها إذا أراد لنفسه مكانًا في مسيرة العالم.

وهذا يُعني أن تسود حضارة واحدة بقيمها ومثلها وأن يترسخ مفهوم العولمة أو القطب الواحد في الأذهان. وبذلك يختفي مفهوم التعددية الحضارية المتعارف عليه منذ فجر التاريخ. ومن ثم يصبح الخضوع لنظام العولمة أمرًا لا مفر منه ولا فكاك لأي دولة في العالم من أن تنضوي تحت لوائه وإلا فإن الزمن والأحداث سوف تتجاوزها.

ويُعد نظام العولمة - بالمفهوم المشار إليه - من التحديات الكبرى التي تواجه العالم الإسلامي في القرن القادم فهل يمكن إخضاع الإسلام والمسلمين لهذا النظام حيث تختفي الحواجز الحضارية والثقافية في العالم الجديد؟

إن حقائق الدين الإسلامي وطبيعته ووقائع التاريخ تبين أن الإسلام لا يمكن أن يذوب في أي نظام آخر، فله ذاتيته المستقلة وكيانه الخاص. ولكن هذا التصور الإسلامي لا يتناقض مع أية كيانات أخرى لأن التعددية الدينية والحضارية قد كفلها الإسلام منذ قامت للإسلام دولة وترسخت في دستور المدينة الذي أعلنه محمد ﷺ.

وقد كانت الحضارات في البلاد التي دخلها الإسلام روافد أثرت الحضارة الإسلامية. فالإسلام يعتبر الحضارات إنجازًا إنسانيًا وإضافات للتراث الإنساني الذي هو بطبيعته أخذ وعطاء. ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث. وإذا كان الأمر كذلك فإن هدف نظام العولمة يُعد مناقضًا لطبيعة الأمور فلا يمكن أن تذوب السمات الحضارية الأساسية للشعوب وبخاصة الشعوب العريقة التي لها بصمات حضارية لا تُمحى في سجل التاريخ.

والإسلام إذ يقر التعددية الدينية والحضارية فإنه من ناحية أخرى يُقر في الوقت نفسه بأن هناك قواسم مشتركة بين كل الحضارات. وهذه القواسم المشتركة تُعد المدخل الحقيقي للتعاون بين الحضارات وليس الصراع فيما بينها. ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم على أن الاختلافات بين الشعوب لا يجوز أن تكون عائقًا أمام التعارف والتآلف والتعاون بين الأمم والحضارات، كما سبقت إليه في الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]

ومن ذلك يتضح أن الإسلام سيقف صامدًا أمام كل محاولة لتذويبه في أية حضارة أخرى أو أي نظام عالمي يسعى إلى خير الإنسان وتقدمه وازدهاره.

المبحث السابع
رؤية تحليلية للكتابات التي تناولت علاقة الإسلام بالغرب

١- كتاب صراع الحضارات لهينتجون:

منذ بدأت حوادث الأزمة العالمية الراهنة في الحادي عشر من سبتمبر الماضي بتدمير مركز التجارة العالمي في نيو يورك، ربما لم يتم استخدام تعبير بين الساسة والصحفيين والكُتاب قدر «صراع الحضارات» وربما لم يتم استدعاء مؤلف إلى ذاكرة الحديث مثل ذلك المقال الشهير الذي نشره عالم السياسة الأمريكي «صمويل هنتنجتون» في مجلة «فورين أفيرز» أو الشئون الخارجية في عددها الصادر في صيف ١٩٩٣م وكان عنوانه «صدام الحضارات». وجاءت هذه الشهرة الجديدة للمقال من قبل جماعات متفرقة متناقضة كان منها من تحمس لها في البداية من اليمين الغربي بألوانه المتنوعة وظل على حماسه لها حتى النهاية. أنها تعزل الغرب عن باقي الحضارات الأخرى وتجعله فريدًا لم تعرف البشرية له مثيلًا من قبل. كما كان منها اليمين الغربي الذي رآها تعبيرًا عن نوايا الغرب «الحقيقية» وتصديقًا لرؤى تبناها منذ وقت طويل وهي أن الحروب الصليبية لم تنته بعد ولا تزال باقية معنا في القرن الواحد والعشرين. وكان منها أخيرًا مجموعة من الاعتذاريين - من بينهم عدد لا بأس به من الإسرائيليين - الذين استنكروا النظرية منذ البداية ثم رأوا أن الأحداث أثبتت صحتها سواء في نيو يورك أو كابول أو فلسطين أن الحضارة اليهودية المسيحية تقف في جانب بينما تقف الحضارة الإسلامية على الجانب الآخر.

هذا البعث الجديد لنظرية صراع الحضارات بعد أن ساد الظن أنه تم التخلص منها بسبب «العولمة» الاقتصادية والاتصالية، وانتشار الدعوى إلى «حوار الحضارات» يستدعي زيارة أخرى لها، ليس فقط للتعرف عليها من جديد وسط النقاش الصاخب عن عالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر، وإنما أيضًا لأن قدرا هائلا من الالتباس قد أحاط بها، وبداية، وبغض النظر الآن عن المضمون، فإن مقال هنتجتون يعبر عن منظومة فكرية

من المقولات التي تسعى إلى تفسير الواقع وفهمه، ففي وسط الفوضى الضاربة في العلاقات الدولية، ووجود الآلاف من الأحداث اليومية الهامة، وغير الهامة، والعنيفة، وغير العنيفة، فإن المرء يحتاج إلى «نظرية» أو «منظومة فكرية» تصنف ذلك كله، وتجعله قابلا للقراءة، وربما النصح بالسياسة الواجب اتباعها إزاءها.

وفي أعقاب انتهاء الحرب الباردة، وزوال الاتحاد السوفيتى، تسارعت أحداث كثيرة في العالم، وبات مهما للغاية فهمها وتنظيمها في أنساق قابلة للمراجعة والتساؤل. فقد كانت نظرية «القطبية الثنائية» للعالم تفسر أمورا كثيرة أو بمعنى أدق، تطرح تفسيرا لهذه الأمور، فيبدو وجود معسكرين كبيرين في العالم أحدهما اشتراكى والآخر رأسمالى، وأحدهما تقوده الولايات المتحدة والآخر الاتحاد السوفيتى، وأحدهما يلتفت حول الأطلنطى والثاني حول حلق وارسو، وكأنه يفسر أوضاعا أخرى لا تمت مباشرة للمعسكرين في الشرق الأوسط ووسط آسيا وإفريقيا وحتى أمريكا اللاتينية. وبعد انتهاء أحد قطبى القطبية الثنائية بات ضروريا البحث عن نظرية أخرى تشرح العالم وتقود إلى فهم وقائعه. وكانت أولى النظريات أو أولى المنظومات الفكرية هي ما جاء به فرانسيس فوكاياما وأسماه «نهاية التاريخ» والتي قال فيها ليس بانتهاء الوقائع أو الأحداث وإنما بانتهاء الجدل والواقع داخلها بين المنظومة الرأسمالية الليبرالية والمنظومة الاشتراكية بعد سقوط الأخيرة وانفراد الأولى بالعالم. ومن هذه النظرية أو المنظومة الفكرية، بات ممكنا فهم الكثير مما تعلق بعملية العولمة والاندماج الاقتصادي والفكري العالمي حول اقتصاد السوق والديمقراطية وحقوق الإنسان.

ورغم أن الشائع لدينا هو وضع نظرية «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» في صف واحد، إلا أن الحقيقة هي أن الثانية جاءت ردا على الأولى ونفيا لها، بالرفض القاطع أولا لفكرة انتهاء الجدل في التاريخ الإنساني بانتصار الرأسمالية والليبرالية، بطرح جدل آخر يقوم على العلاقة والتناقض بين الحضارات. ثم بالرفض القاطع ثانيا لفكرة حضارة واحدة مهيمنة على العالم، فالعالم يوجد في الحضارات الغربية والكونفوشية واليابانية والإسلامية والهندية والسلافية والأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية، ومن المحتمل الأفريقية كذلك، كل ذلك ولازلنا في إطار النظريات أو المنظومات الفكرية التي تساعد على فهم الواقع، أو فهم الجزء الأكبر من الواقع. وحسب ما قال به هنتجتون نفسه، أنه ليس مطلوبا من

النظرية أن تفسر كل الوقائع وإنما فقط الغالبية العظمى منها. فلم تكن نظرية الحرب الباردة والقطبية الثنائية تفسر مثلا الصراع الصينى السوفيتى، بقدر ما استطاعت تفسير أحدثا وتفاعلات أخرى في العلاقات الدولية. وبهذا المعنى فإن النظرية ليست دعوة أو أيديولوجية أو حتى سياسية يمكن القول إنها خاطئة أو مصيبة، وإنما تكمن مصداقيتها في كونها مفيدة أو غير مفيدة للتفسير. وفي العادة، فإن ذلك يتم عندما يصير ممكنا طرح نظرية أخرى تكون أكثر قدرة على الشرح والتفسير لوقائع وأحداث كثيرة تجري في العلاقات الدولية والتفاعلات بين الأمم. ولذا فإن هنتجتون كان مصيبا تماما حينما كتب مقالا آخر يرد فيه على منقديه بعنوان «إذا لم تكن الحضارة، فماذا؟»، وبهذه الطريقة فإنه من الناحية العلمية كان يلقي قفازه في وجه النقادين له، فالقضية لم تكن أنه يدعو إلى الحضارات، بينما يرى آخرون بالحوار بينهما، وإنما القضية هي قدرة منظومة معينة من الأفكار على تفسير وقائع بعينها أكثر من قدرة منظومة أخرى. وقد كان رأي عالم السياسة الشهير أن صراع الحضارات يفسر أكثر وقائع ما بعد انتهاء الحرب الباردة، بأكثر مما تتمكن نظرية القومية أو نظيرة نهاية التاريخ من تفسيرها.

ولا يقل أهمية عن ذلك أن نظرية «صراع الحضارات» في نظر كاتبها لا تتضمن نوعا من سيادة الغرب الحضارية؛ بل على العكس فإنها تعلى من قدر الحضارات الأخرى في السياسة العالمية؛ بل وتحولها من موضوع للسياسة، إلى فاعل رئيسى فيها. وكان ذلك على العكس تماما من النظرية القومية التي جعلت أوربا مركزا للكون في القرن التاسع عشر، ونظرية «القطبية الثنائية» التي جعلت الغرب كله بشقيه الليبرالى والاشتراكى مركزا للعالم، ونظرية «نهاية التاريخ» التي أعطت للغرب المنتصر مكان الجوهر في النظام العالمي ليس الآن وإنما إلى الأبد، وفي كل هذه الحالات كانت «الحضارات الأخرى» واقفة على الهامس في التفاعلات الدولية بينما الغرب يقف في مركزها تماما، يمتلك عناصر القوة المتفوقة، ويضع للعالم «الأجندة» العالمية، ويدير علاقات القوى والتحالفات، ويحدد المرجعية الفلسفية والأخلاقية.(١)

---

(١) عبد المنعم سعيد: صراع الحضارات أو العلولمة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة الأسرة، ٢٠٠٢م، ص ١٩.

ومن هنا، فإن أهم صراعات المستقبل اعتبارا من تاريخ صدور المقال في صيف ١٩٩٣ سوف تكون على تلك الخطوط الفاصلة بين الحضارات المختلفة، ويعود ذلك من وجهة نظر هنتنجتون إلى ستة أسباب أولها أن الاختلاف بين الحضارات حقيقية وأساسية وغير قابلة للانقسام أو التعددية. وثانيها أن العالم وقد صار مكانا أصغر بحكم الثورات التكنولوجية باتت فيه احتمالات الصدام والاحتكاك بين الحضارات أعلى، وثالثها أن عملية التحديث الاقتصادي والتغير الاجتماعي قد فصلت الناس عن هوياتهم المحلية وجعلتهم يلتصقون بهويتهم الحضارية. ورابعها نمو الوعي بكل حضارة على حدة بسبب رغبة النخب في منافسة ومقارعة الحضارة الغربية وهي في أوج قوتها والحصول لحضارتها على مكان في عملية إدارة العالم. وخامسها أن الاختلافات الحضارية من الصعب تجاوزها مقارنة بالجنسية أو الهوية الفكرية التي يمكن تغييرها أو الجمع بينهما مع أخرى. وآخرها أن هناك ازديادا في الإقليمية الاقتصادية القائمة على أسس حضارية، فقد قامت في قارات العالم جميعها تجمعات قائمة على حضارات بعينها ترغب في تعضيد ليس فقط هويتها الثقافية بل أيضًا سوقها الاقتصادي.

ولحسن الحظ أننا منذ بدأنا الحديث عن «صراع الحضارات» إزاء نظرية أو منظومة من الأفكار التي تدعى تفسير الواقع بأكثر مما تستطيع نظريات أو منظومات فكرية أخرى تفسيره. وقد قدم صاحبها قائمة طويلة من الأحداث والوقائع التي تشير إلى أن احتدام الصراع بين البشر يتزايد بسبب الحساسية المتزايدة لحضارات العالم إزاء بعضها البعض، بل وحساسيتها الزائدة تجاه الحضارة الغربية على وجه التحديد نظرًا لقوتها المتصاعدة. ويبدو ذلك حاضرًا بقوة بين الحضارة الغربية من جانب والسلافية الأثوذكسية من جانب آخر، وبين الأولى والحضارة الإسلامية التي تتصادم بدورها مع الثانية ومع الحضارة الهندوسية والكرنفوشية التي تحتك وتوتر علاقاتها مع الحضارة الغربية أيضًا. والأمثلة الواقعة على ذلك متعددة من أول الخلافات الروسية الأمريكية وحتى حرب الخليج الثانية، وحرب البوسنة، والصراع الهندى الباكستانى حول كشمير، والغربي الصينى حول حقوق الإنسان وكان بوسع هنتنجتون ومناصرته من الأمريكيين والعرب والإسرائيليين أن يمدوا النظرية على استقامتها لكي تستوعب أحداثًا تالية منها ضرب العراق المتكرر، وصراع حزب الله مع إسرائيل في لبنان

وحماس والجهاد الإسلامي مع إسرائيل في فلسطين، وحرب كوسوفو، ومقدونيا والاختبارات النووية الهندية والباكستانية، والعوائق التي وضعت أمام الصين للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، وتلك التي وضعت أمام تركيا ومنعتها من الانضمام إلى الجماعة الأوروبية.

وقدمت الأحداث التي تفجرت منذ تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك وما تلاه من تفاعلات الحرب ضد الإرهاب في أفغانستان، دليلًا إضافيًا على مدى قدرة النظرية وفائدتها التفسيرية.؟ فالمشهد الافتتاحى كان معبرًا عن الصراع في أنقى صوره. وعندما خرجت تصريحات غربية تشير إلى الحروب الصليبية وتخلف الحضارة الإسلامية، كان هناك في العالم الإسلامي من تلقفها فورًا غير قابل لأى اعتذار أو تراجع فيها باعتبارها المعبر «الحقيقي» عن النوايا الغربية. وعندما خرج أسامة بن لادن على العالم بشرائطه عن طريق قناة الجزيرة التليفزيونية أو عن طريق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مؤخرًا، كانت الرسالة واحدة عن عالم منقسم إلى معسكرين أحدهما إسلامي والآخر غربي. وربما لم يكن بن لادن يحتاج كثيرًا إلى صمويل هنتنجتون ونظريته ومقولاته الفكرية لكي يروج لصراع الحضارات فقد كان وراءه تراث عربي وإسلامى طويل حول هذه النظرية القابلة للنقاش والبرهنة والتحقق وتحويلها إلى حالة من المقولات المقدسة التي يستعذب أتباعها الموت في سبيلها.

ومع ما يبدو على السطح كما لو كان إعلانًا لفوز النظرية بفضيلة القدرة على تفسير وفهم الأحداث بأكثر من غيرها، إلا أن التمعن في أحداث ووقائع العالم لا يعطي هذه النتيجة على الإطلاق. وربما كانت الولايات المتحدة ذاتها تقدم أول مفارقة مع نظرية صراع الحضارات، فبعد الأحداث البشعة في نيويورك أجرت مؤسستا رويتر وزغبى استطلاعًا للرأي نشر يوم ١٧ سبتمبر - أي بعد ستة أيام فقط من التفجيرات. وجاء فيه أن المستجيبين للاستطلاع يميزون جيدًا بين الإرهابيين وأية جماعة عرقية أو دينية.

فقد قال ٨٤٪ من الأمريكيين أنهم يعتبرون الولايات المتحدة في حالة حرب مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين «ربما يكونوا مسلمين» مقابل ٨٪ اعتقدوا أن أمريكا في حالة حرب مع الإسلام وعندما سئلوا عما إذا كان الإسلام دينًا يشجع على العصب فإن ٤٢٪ اختلفوا مع هذه المقولة ووافق عليها ٣٨٪ وردًا على السؤال عما إذا كانوا يفضلون أو لا يفضلون

العرب الأمريكيين جاءت الإجابة بالتفضيل وقدرها ٦٢٪ وعكسه ١٢٪ فقط، وحتى عندما امتد السؤال للعرب ككل، جاءت الإجابة بالتفصيل قدرها ٤٥٪ وعكسه ٣٣٪ وبالنسبة للمسلمين الأمريكيين كانت نسبة التفضيل ٥٦٪ وعدم التفضيل ١٩٪ أما بالنسبة للمسلمين على عمومهم فقد كان التفضيل ٤٥٪ وعدم التفضيل ٣٠٪.

معنى ذلك أنه حتى في ساعة السخونة الكبرى للحدث لم نجد حالة نقية من العداء «الحضاري» مع العرب والمسلمين في الولايات المتحدة حتى في اللحظة التي اندفع فيها اليمين المسيحي لكي يستعيد ويزيد في مقولات تاريخية عن صراعات أبدية لا يفتر لها لهب أو حماس. وما تشير إليه استطلاعات الرأي العام هو حالة من التفضيلات والاختبارات الموزعة بين موطني الدولة، ولها أن تتغير وأن تتعدل بتغير الظروف والأحوال والمصالح والأهواء، بل إنه على الرجح كانت وراء التعديل الذي جرى في خطاب السياسيين نحو الاعتدال ورفض ومقاومة العبارات المتطرفة الأولى. وبالمثل كان الحال في العالم العربي والإسلامي، ورغم عدم وجود استطلاعات مماثلة للرأي العام، فإن هناك الكثير من الشواهد التي تدل على أن الشعوب لم تتحمس كثيرًا للنظرية التي تحولت إلى أيدلوجية، وعلى أقل تقدير لم يحدث لديها إجماع أو حتى توافق اجتماعي وسياسى على الصدام مع الغرب.

فخلال الأسابيع التي تلت أحداث الحادى عشر من سبتمبر كانت الصيحة هي أن العرب والمسلمين لن يتركوا أفغانستان تقف وحدها في المعركة، وأن عملية الاستقطاب الحضاري سوف تأخذ مداها بين المسلمين والغرب. ولكن ذلك لم يحدث، وبعد مجموعة من المظاهرات الأولية لتأييد أفغانستان في عدد من العواصم الإسلامية، فإن الظاهرة برمتها تلاشت سواء في الجماعات أو أثناء صلوات الجمعة، رغم الجهود الدءوبة من جماعات الصدام الحضاري والفضائيات التليفزيونية العربية التي لم تكف لحظة عن حث الجميع على الانتفاض والمواجهة.

وكان المشهد في باكستان بالذات موحيًا للغاية. فقد قيل: إن الشريعة الباكستانية تستند في الأساس إلى هذا النوع من الصراع الحضاري، كما قيل أن الجماعات السياسية الإسلامية مهيمنة ومسيطرة على الشارع السياسي، وقيل: كذلك إن القضية في إسلام أباد ليست فقط هوية وحضارة، وإنما مصالح إستراتيجية في الفناء الخلفى للدولة، ومع ذلك

فقد تصرفت باكستان كدولة قومية من الدرجة الأولى، وبناء على ذلك وقفت إلى جانب الولايات المتحدة كما لم تقف دولة أخرى في العالم، وعندما دعا أنصار الصراع الحضاري إلى مظاهرة من مليون شخص، لم يصل إلى ساحة التظاهر سوى خمسين ألفًا ومن بعدها اختفت التظاهرات كلها، اللهم إلا من مسيرات سلمية مؤيدة للحكومة الباكستانية التي ذهب رئيسها برويز مشرف إلى الولايات المتحدة للقاء مع الرئيس جورج بوش المنتمى إلى حضارة الجانب الآخر التي يفترض أنه معاد.

إلا أن أبلغ المشاهد المناقضة لنظرية صراع الحضارات قد جاء من داخل أفغانستان نفسها، ولم تكن القضية أن الأفغان أنفسهم من داخل الحضارة الإسلامية كانوا يتعاركون مع بعضهم حتى قبل بدء الأحداث، وإنما كيف سارت الوقائع بعد المشهد الافتتاحى فالحقيقة هي أن التحالف الشمالى، وكثرته من المجاهدين لم تقبل بفكرة الصراع الحضاري، ومن ثم تكوين جبهة مع طالبان وجرى بدلًا من ذلك تكوين جبهة مع الولايات المتحدة ومن معها من الغرب. وبعد أن أدركت طالبان أن ذلك لن يحدث، كانت هي التي تركت المدن، ومن بين الجماعات العرقية المختلفة، كانت جماعة البشتون هي التي أشرفت على تصفية آخر معاقلها في قندهار لكن المدهش أن الجميع اصطفوا وراء فكرة مطاردة وقتل وتمثيل بجثث أخوة الحضارة من العرب المسلمين الذين لم يرعوا حرمة الحضارة من قبل. ولم يكن في ذلك جديد، فقد كانت العداءات داخل الحضارات نفسها طوال التسعينيات، سواء كانت الإسلامية في الخليج، أو المسيحية في البلقان وأيرلندا في أوروبا هي الأكثر ظهورًا على الصراع بين الحضارات ولا يزال للحديث بقية.

وهذا الكتاب بعنوان: «اللقاءات التاريخية بين الإسلام والغرب» لمؤلفه الدكتور محمد إبراهيم الفيومى، هو جهد رائع لمؤلف أمسك بناصية مادته وسار بنا في دروب التاريخ الإسلامي العظيم ليحملنا في رحلة شيقة ومثيرة حول تلك اللقاءات المثيرة للجدل بين الإسلام والغرب.

الكتاب من إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ضمن سلسلة قضايا إسلامية ويقع في ١٤٢ صفحة من القطع الصغيرة يبدأ الكاتب حديثه بإدانة صريحة أشبه بالعتاب للعقل الغربي فيقول:

إن الفكر الغربي ليس له عذر يعتذر به عما قدمه من تشويه للإسلام وللرسول ﷺ وكيف يعذر عما قدمه؟ وهو الذي أحكم دراسة التاريخ وأحداثه، علمًا ومنهجًا، فبنى له علمًا له نظامًا وفلسفته وهو ما عرف بـ «علم التاريخ وفلسفته» وهناك مبادئ أحكمها الغرب في هذا العلم لتعينه على تحرى الموضوعية الفكرية وتوخى النزاهة مناهجه التي عرفت لديه منذ أوائل عصر النهضة بمناهج البحث العلمي التي تساعده على تحرى «الحقيقة التاريخية» أو «الحقيقة العلمية» ... لذلك نلنا العجب حين رأينا الغرب يسلك سبل البحث العلمي في فهم مسائل الشعوب التي أطلق عليها هو نفسه «دول العالم الثالث» وجعلها موضوع تجارية ليقيم قواعدها وفق مناهج أخرى غير علمية تدخل في نطاق «الرؤية الاستعمارية».

الطابع المميز للحضارة الإسلامية

يرى الكاتب أن التطور الفكري الذي أحدثه الإسلام في الغرب كان نتيجة لعاملين!

أحدهما: ديني أخلاقي تمثل في الدعوة إلى الإسلام.

والآخر: اجتماعي وتمثل في التغريب.

أما الدعوة للإسلام فقد حملها هؤلاء الفاتحون تحت راية الإسلام مزودين بقوة روحية لم تتح لهم في أي هجرة سابقة ولم يستطع شيء أن يقف في طريقها وانهار النظام القديم للحضارات الواهية ذات الأصول المتعددة: اليونانية الآرامية في بلاد الشام والساسانية في العراق، واليونانية القبطية في مصر... وفُسِحَ المجال للعقيدة الجديدة.

وأما التعريب فكان له مظهران: التعريب اللغوي وهو يتمثل في سعى أصل البلاد المفتوحة إلى تعلم العربية حتى حلت محل لغتهم الأصلية، والتعريب العراقى عن طريق امتزاج العرب بأهل تلك البلاد وتزاوجهم.

الشرق والغرب في القرون الوسطى

يرى المؤلف أن العصور الوسطى - ابتداء من بناء القسطنطينية في القرن الرابع حتى اتساع نطاق الحروب الصليبية، منذ القرن الحادى عشر الميلادى - تعتبر هذه العصور فترة شرقية في التاريخ، ويؤكد على ذلك بما قاله لويس لومبار بأن المراكز المواجهة للحياة الاقتصادية والثقافية في العالم في تلك الفترة كانت كلها تقع في الشرق الإسلامي وأما الغرب المسيحي فلم يكن سوى فراغ.

نتائج الفتوحات الإسلامية

ويعرج بنا المؤلف سريعًا على نتائج الفتح الإسلامي ليبرهن كيف كان الفتح الإسلامي فاتحة خير على هذا العالم ... فمن الناحية الدينية، نشر الدين الذي يقوم على القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ.

ومن الناحية اللغوية: «أي إلى اتساع انتشار اللغة العربية ومن الناحية الاقتصادية: نجم عنه اتحاد أراضي مختلفة » في تكتل اقتصادي كبير.

وقد امتد سلطان الإسلام من أسبانيا ومراكش إلى أواسط آسيا وظل مستقرًا هنالك قرنين ونصف قرن من الزمان أمكن فيهما تركيز حضارة وثقافة مستمدين من أصل الإسلام والبيئة التي نشأ منذ أول مرة فيها ثم امتد سلطان الإسلام بعد ذلك إلى غرب أفريقيا وفي آسيا الصغرى والوسطى وفي شمال الهند.

ثم البلقان وروسيا وسيبيريا وإلى بقية الهند وأندونيسيا وفي كل فقرة من تلك القفزات كانت الحضارة الإسلامية تزداد نماءً وقوة بما تفصل به من حضارات جديدة تؤثر الحضارة الإسلامية فيها وتخضعها لسلطانها وتتأثر في نفس الوقت وتتغذى بما قد يكون من صالح فيها ويحدد الكاتب الأسباب التي تمت بها الفتوحات الإسلامية بسرعة وسهولة على يد عدد صغير من الفاتحين.

فقد كانت لدى الغرب جميع الفرص التي تتيح لهم حسن استقبال الشعوب القديمة، وكانت هذه الشعوب في حالة ثورة دائمة ضد إدارة القسطنطينية، وكانت ثورتهم كما

هي حال الثورات في الشرق دائمًا، ذات طابع ديني في الظاهر ولكنها ثورات اجتماعية في الصميم، وقد اهتز عرش بيزنطة بالبدع ومخالفة المألوف.

وفي مقابل ذلك نجد أن اتجاه الرسالة الإسلامية نحو الديمقراطية والمساواة وابتعادها عن النظرية الوطنية العنيفة، فكان يستجيب للحركات الثورية الاجتماعية والدينية في البلاد المفتوحة كذلك كان استتباب الأمن واستقرار السلام من العوامل التي دفعت سكان هذه البلاد إلى الانطواء تحت لواء الفاتحين والملاحظة الجديدة بالذكر والتي يقررها الكاتب أن الفتوحات الإسلامية لم ينجم عنها شيء من التخريب والتدمير ومن هذا النحو الحضري تمكن الغرب من الاتصال بالحضارات الشرقية وعن طريقها بالحركات التجارية والثقافية العالمية بفضل الفتوحات الإسلامية.

وكان من نتائج قيام الإمبراطورية الإسلامية نمو مدهش لهذا الغرب المسيحي، فقد كانت الفتوحات الإسلامية نقطة انطلاق عظيم في طريق النمو والتقدم والازدهار موازنة تاريخية بين علاقات الإسلام بالغرب يقرر الكاتب أننا نريد أن نسلك بالحديث عن لقاءات الإسلام التاريخية بالغرب، والغرب بالإسلام - سبيل الحوار الفكري تصحيح بينهما، ونتخذ منه أسلوبًا باعتباره وسيلة علمية للسمو بالخصومة الأدبية من مزالق التهم.

ويقول الكاتب: إن الحضارة الإسلامية تعد أهم ما عرفه التاريخ من أشكال الدولة الإلهية، لذلك كان الإسلام هو الصيغة المناسبة والمثلى في تحرير التاريخ من وطأة إمبراطوريتين - الرومانية والفارسية فقد استطاع الإسلام أن يعصف بهما معًا، وبقي الإسلام بعدهما حقيقة تاريخية مفردة على الساحة العالمية دون منازع.

ومن الواضح أن المسلمون لا يحملون أفكارًا مطبوعة ومشوهة عن الغرب بقدر ما يحمل الغربيون منها عن الإسلام.

وهناك - كما يطرح الكاتب لرأى مارسيل جوازار - أسباب رئيسية جعلت الغرب يحمل أفكارًا مشوهة عن الإسلام والمسلمين وهي أسباب دينية ونفسية وتاريخية وثقافية وسياسية والآن أيضًا اجتماعيًا واقتصاديًا.

الصراع الغربي مع الإسلام

تجاذبت الإسلام منذ قرنين من الزمان كما يقول الكاتب - قوتان كبيرتان هما بريطانيا وروسيا، واستطاعت الأولى بعد القضاء على ملوك الهند أن توجه أنظارها إلى الآستانة ومن خلال مصداقيتها لسلاطين العثمانيين استطاعت أن توطد مكانتها وتوسع من دائرة نفوذها في آسيا، ثم صارت بريطانيا بعد سقوط نابليون صاحبة السيادة في العالم الإسلامي لا ينازعها منازع في منزلتها فيه.

أما قياصرة الروس فكانوا ينتهجون نهجًا آخر فإنهم ما فتئوا يشهرون الحروب لتوطيد سيادتهم على الشعوب المختلفة المقيمة في إمبراطوريتها الواسعة الأرجاء وكان شعارهم العنف لخدمة الدين حسب زعمهم.

ويرجع الدكتور الفيومى الأسباب الحقيقية لتراجع الأمة الإسلامية إلى حالة السبات العميق التي أصابتنا وإغماضنا أعيننا عن تمرغ كبريائنا في حمأة السفاسف والخسائس وإهمالنا تصفح القرآن الكريم بحيث أصبحنا لا نفهم معنى هذا الكتاب العجيب الذي هو مجموع العلم والنور.

ويمضى المؤلف في سرد العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب مؤكدًا أنه رغم حالة الحقد والعداء التي يكنها ويحملها الغرب للإسلام فإن هناك فريقًا يسير على الصراط المستقيم، صراط المحبة وجودة القلب والقرآن يمدح مثل هؤلاء ويوصينا بهم، أما الآخرون الذين لا مطمع لهم إلا بحشد الفضة والذهب فإن مصحفنا الكريم يحذرنا منهم. والقرآن يوصي بحماية جميع الأجناس والشعوب والطوائف المستكنة والمذاهب الدينية المسالة.

كتابات متبادلة

نشير بداية إلى أن نظرة الغرب نحو الإسلام والمسلمين تشكلت عبر مراحل زمنية طويلة تعددت خلالها رؤى رجال الدين والسياسة والمستشرقين واتفقت في النهاية على جملة من التصورات التي تمخض عنها الوعي الذي منح من خلاله الغرب نفسه مواقع «الحقيقة»

و«المركز» و«العقل» و«المدينة» مقابل إبقاء الآخر في مواقع «الضلال» و«الهامش» و«الأسطورة » و«التخلف».

وحين أوشك عقد السبعينات على الانفراط صحا الغرب على هدير الثورة الإسلامية في إيران، ووقف يتابع بحذر ذلك النمو المتسارع لظاهرة الإسلام السياسي فيما كانت الجاليات العربية والإسلامية تتزايد باطراد مستنبته رموزها الدينية والمادية وناشرة صيغتها الاجتماعية والقفاية بين ظهرانية، الأمر الذي أخذ يثير فيه القلق و يبث السخونة في مشاعره ورؤاه ولم تكن قضايا فلسطين والبترول وبعض حوادث العنف والتطرف التي تجري هنا وهناك وتنسب إلى هذا الطرف العربي أو المسلم أو ذاك إلا في القلب من هذا الخصم.

في موازاة ذلك كانت تتنامى في الشارع الغربي الحركات العنصرية وتعود إلى بعض فروعه الأناشيد الهلترية والفاشية، بل أخذت تسترجع منعطفاته الحادة في المصنفات الأكاديمية وعبر مقولات تتحدث عن الصراع المقبل بين الحضارتين الإسلامية والغربية عكف على ترويجها - فيما الخصم الشيوعى ينحسر وحتى قبل ذلك - منظرون وإستراتيجيون وساسة وصحفيون بدءًا بالرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون والوزير هنرى كيسنجر، ومـرورًا بـ «صمويل هنتنجتون» و«أوليفر بادريون» و«ايموس بيرلوتز» و«جوناثان باريس» وغيرهم وانتهاء بردود الأفعال الهستيرية التي أعقبت مأساة الثلاثاء الدامى في نيويورك وواشنطن والتي أفرزت عديدًا من الأصوات التي تؤكد حتمية الصراع.

غير أن هذا المنحى واجهته وظلت تواجهه في الإطار الغربي نفسه أطروحات مغايرة رفضت مقولات المواجهة وأكدت على الحوار، فمنذ «مارشال هدجسون» الذي دعا منذ الخمسينيات إلى تصحيح الصور الذهنية الخاطئة التي ظل يحملها الغربيون عن الإسلام وذلك في كتابه «مغامرة الإسلام» و«أنا مارى شمل» التي وصفت بأنها مثال لمثقف الحوار في مقابل مثقف الصراع، إلى المنظر السياسي الأمريكى «شارلس بتروث» والمستشار الاقتصادي العالمي «جيمس نوفاك» والصحفيين «جون ب.. اتلى» و«جوزف سوبران» إلى المؤرخين «رالف ريكو» و«لينواغدليغبو» كذلك المرشح الرئاسى «باتريك جيمس

بوكنان» وغير هؤلاء من نماذج التعاطف مع حركة النهوض الإسلامي المعاصرة، وحتى المفكر السويدى «كينيث ريتزن» مؤلف كتاب «الإسلام وأوربا مواجهة أم تعايش» ناهيك عن «روجيه غارودى » الذي كتب «من أجل الحوار بين الحضارات» إلى غير هؤلاء ممن نادى بالتفاهم ونبذ مقولات الصدام.

كلك ليست أسماء «فرانسوا بوغارت» و«جون اسبوزيتو» و«ليونتى هايدر» و«جيل ليبلى» و»بول كيندى» و«رالف بريبالتى» إلا أمثلة أخرى لهذا الوعي الذي عبر عنه أخيرًا الرئيس الأمانى «رومان هيرتسوج» في كتاب صدر له عام ١٩٩٩ تحت عنوان «الحيلولة دون صدام الحضارات: إستراتيجية السلام للقرن الحادى والعشرين».

منتدى الحوار

والندوات في هذا الاتجاه قد شمل بريطانيا وفرنسا و إيطاليا والسويد وهولندا وغيرها من البلدان الغربية وقد كان لبعض رجال الدين المسيحي إسهامهم على هذا الصعيد والذي ينشط عادة تحت عنوان «الحوار المسيحي - الإسلامي» فـ «ميشيل ليلونج» عضو جمعية الحوار الإسلامي التي أنشئت في باريس في العام ١٩٩٢ ألف كتابًا تحت عنوان «ما أنزل الله» دعا فيه إلى تغيير النظرة المغلوطة عن الإسلام وأكد ضرورة إعادة قراءته بشكل موضوعى. حاثًا الغربيين على احترام المسلمين وتبجيل عقيدتهم.

ويندرج في السياق نفسه موقف رئيس أساقفة مدينة «ليون» الفرنسية «لورى مارى بييه» حيث تحدث عند باب الجامع الكبير لهذه المدينة عشية السابع عشر من سبتمبر من العام ١٩٩٨ وهو يقول «رغبت في أن أزوركم في بداية حضورى إلى ليون لكي أعبر عن تحياتى الأخوة لكم ولكل الجالية الإسلامية. إنها ليست زيادة بروتوكولية. وإنما جئت أقدم احترامى لكل المؤمنين بالإسلام، وآمل بأن يكون من أوليات عملنا هو التعاون فيما بيننا».

كما يندرج ضمن ذلك مت شرعت به الجامعة الكاثوليكية في مدينة «ليل» من تنظيم لدروس في التاريخ والعلوم الاجتماعية الإسلامية منذ سبتمبر من ذلك العام، فضلًا عن المحاضرات التي شهدتها أروقة تلك الجامعة وهي تطرح روية الكنيسة إزاء الحوار مع

الإسلام. وقد استمر هذا الطرح ولم يتوقف حتى بعد الأحداث الأخيرة كما سنشير إلى ذلك بعد حين.

أما على الجانب الإسلامي فليس ثمة شك بأن الإسلام وهو يقرأ ابتداء بحقيقة الاختلاف بين الناس والمعتقدات يؤكد قيمة الشراكة وأهمية التعايش واعتبار التعارف غاية من الغايات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والإنسان أخو الإنسان احب أم أكره، لهذا ظل العدوان في شريعته محرمًا ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] كما اعتبر السلم في منهاجه أصلًا من أصول العلاقات ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

وعلى الرغم مما تميز به الإسلام من نزوع أممي يتحمل خلاله المكلفون مسئولية التبليغ والتطلع نحو إشاعة المشروع الحضاري الإسلامي على الصعيد العالمي فإنه ربط ذلك بمبدأ الحوار الذي تظل في إطاره اختبارات الآخرين منوطة بحريتهم أيًا كانت طبيعة تلكم الاختيارات إذ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما يظل الحاكم في جدل العلاقات - أيًا كان مال الجدل - قوله تعالى ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٤]، و﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وهذا ما تجسد فعلًا في ظل الحضارة الإسلامية التي تعايشت في مناطق نفوذها مختلف الأديان والثقافات.

من هنا لم يكن بدعًا من الأمر أن يقترح الرئيس الإيراني د. محمد خاتمي على الجمعية العامة للأمم المتحدة بجعل ٢٠٠١ عامًا لحوار الحضارات. وان يبادر قبل ذلك وبعده عديد من المراكز والمؤسسات الإسلامية في الشرق والغرب إلى عقد المؤتمرات من أجل هذا المشروع. ولعل ما شهدته بلدان المغرب وتونس ومصر والأردن وبعض دول الخليج وأماكن تجمع الملمين في الخارج من أنشطة في إطار السنة الدولية للحوار ليمثل تواصلًا مع الفكرة الإسلامية في هذا الخصوص التي ستعبر عنها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم «ايسيسكو» بكتاب أبيض بعد حين.

إذن وعطفًا على ما تقدم فليس صحيحًا أن ينظر إلى الحضارة الإسلامية نظرة تخوف عبر ما تثيره بعض الأصوات المنتسبة إليها ممن تستقبح الآخر كليًا وترفض ثقافة الحوار وتصر على محاربة «دار الكفر» في كل الأحوال. ولعلنا نستطيع أن نلحظ مع «سكوت هيبارد» مسئول برنامج الأديان والأخلاق وحقوق الإنسان في معهد الولايات المتحدة للسلام ذلك الخطأ الأساسي لمقولة الصراع بين الحضارات التي ابتنيت على أن الحضارات كيانات صلبة ومنغلقة على ذاتها فيما الواقع يشير إلى غير ذلك.

من ناحية أخرى لا بد أن نلفت النظر إلى أن الإسلام إذ يوصي بالحوار من أجل الحضور وتبليغ ما يحمله من رسالة إلى العالم، يحث عليه أيضًا من منطلق الإسهام في حل المشكلات والتعاون مع الجميع على البر والخيرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] وهذا يعني أن الحوار في منظوره الإسلامي لا يقتصر على ناحية دون أخرى، بل يمتد إلى مختلف النواحي الفكرية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية مثل قضايا: السلام والبيئة والفقر ونزع أسلحة الدمار الشامل والصحة وحقوق الإنسان والديون والهجرة والمخدرات والجرائم الدولية ونحوها من القضايا الجديرة بالطرح على موائد الحوار والتي تستأهل التعاون بشأنها بغية الوصول إلى صيغ أو حلول عادلة أو مقبولة. ولعل في هذا المنحى تحقيق - من الوجهة الإسلامية لمعنى الوسطية والشهادة على الناس وتكريس لمبدأ الإنقاذ الإنساني ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وبهذا يتشكل الموقف الإسلامي من حوار الحضارات، ولا شك أن عدوان الحادى عشر من سبتمبر ووقوف نفر من المسلمين وراء ارتكابه على ما يبدو - قد أحدث بلبلة وخللًا في إمكانات الحوار وعرض مقولة التفاهم - المشكوك بها أصلًا - إلى امتحان عسير.

فالمشهد قد اشتعل بالدم وبرزت خلاله صورة المسلم الإرهابي التي عمقت ظاهرة (الإسلاموفبيا) IsIamophobia، فيما أخذ جو العلاقة يتسمم بغيوم من الكراهية والاشمئزاز أشبع عبرها العرب والمسلمون بمزيد من الضغوطات التي أخذت تمتد إلى مختلف المستويات الأمر الذي أشعر الكثير من حاملي فكرة الحوار بالشلل وكاد البعض منهم ينعى لنا مشروع الحوار لولا بقية من أصوات شجاعة انبرت ومنذ اللحظة الأولى تقول للغرب المصدوم شيئًا آخر.

ولعل صورة جمعية «سانت ايجيدوا» الإيطالية المسيحية مثال ساطع على ذلك وهي تدعو إلى عقد قمة إسلامية مسيحية على الفور لمواجهة ذلك الموقف الملتهب. كما لم يمض وقت حتى أخذ بعض الزعماء والسادة يتراجعون عما صدر عنهم من ودود أفعال مضادة أثارت جدلًا في الغرب نفسه، فالرئيس الأمريكي «بوش» صوب دلالة استخدامه لمصطلح الحرب الصليبية Crusade ساعة إعلانه مشروع الرد على الإرهاب وتراجع «بيرلسكوني» رئيس الوزراء الإيطالي عما صدر عنه من هجاء للحضارة الإسلامية، وكان لخطاب باب الفاتيكان دوره المهدئ وهو ينوه بأخلاقيات الإسلام وسماحته ويؤكد خيار الحوار، ناهيك بزيارات المسئولين الغربيين وعلى أرفع المستويات المساجد والمراكز الإسلامية وتطمينهم أبناء الجالية الإسلامية.

وإذا كان صحيحًا أن كل تلك التصريحات والتطمينات الرسمية لم تستطع أن تبدد مشاعر القلق والتوجس التي سرت في نفوس المسلمين في داخل الغرب وفي خارجه، سيما والضغوط إزاءهم أخذت تقنن صيغها القمعية وتتوسع في إجراءاتها المؤذية على نحو غير مسبوق فيما الحرب مسلطة على رقاب الكثير من دولهم وشعوبهم فإنه - وعلى الرغم من كل ذلك - ثمة ظواهر أخرى قد احتواها المشهد قد ترجح - بنظر البعض - كفة التوجه ولو مستقبلًا نحو الحوار.

المبحث الثامن

أولاً: الوجود الإسلامي في الغرب من المشكلات والتحديات إلى الحلول والتقارب لا المواجهة:

إن الدول الغربية لم تفكر في بداية الأمر في قضية الوجود الإسلامي في الغرب. فقد كانت هذه البلاد - بعد الحرب العالمية الثانية - في أشد الحاجة إلى الأيدى العاملة لتبنى نفسها بعد الدمار الذي خلفته الحرب.

ومن هنا كانت قضية إعادة البناء هي الشغل الشاغل للدولة الأوربية - وبوجه خاص لكل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا - ولم يكن يدور في الأذهان أن المهاجرين إلى الغرب - من أبناء الأمة الإسلامية والعربية - سيستقرون في البلاد التي هاجروا إليها فالمفروض أن إقامتهم كانت مؤقتة، وكما يقول أحد القساوسة الألمان:

«لقد كان ينبغي عليهم في واقع المر أن يعتبروا أنفسهم ضيوفًا مؤقتين وأن يتصرفوا على هذا الأساس، وأن يعودوا بعد ذلك إلى أوطانهم وهم محتفظون بآرائهم التي يعتنقونها»[1].

ولكن المهاجرين قد استقر بهم المقام في بلاد الغرب، وعندئذ بدأ المجتمع الغربي يدرك مدى الكم الهائل من المشكلات التي ترتبت على ذلك ومنها على سبيل المثال لا الحصر: قضايا الحفاظ على الهوية الإسلامية، وتعليم الدين الإسلامي، ومشاكل التكيف مع الحضارة الغربية، والاندماج في مجتمع مسيحي علمانى، والاغتراب المكانى والروحى، الأمر الذي جعل المسلمين في كثير من البلاد الغربية يعيشون في ظل ظروف تتمثل في انتزاعهم من جذورهم، وفي الإحساس بالظلم والاستغلال الاجتماعي والتفرقة في المعاملة بطريقة خفية أو مكشوفة. وسوء ظن الغربيين تجاه المسلمين الذين يعايشونهم لدرجة أن أحد علماء الطبيعة الألمان - الذي كان من المعارضين لإنشاء مركز إسلامي في العاصمة الألمانية بون - عبر عن مقدار سوء الظن بالمسلمين قائلًا إنه أحب لديه إن يبنى «مفاعل ذرى» أمام باب منزله من أن يبنى مركز إسلامي معللًا ذلك بأن المفاعل الذرى

(١) محمود حمدى زقزوق: الإسلام ومشكلات المسلمين في ألمانيا، مكتبة وهبة بالقاهرة، ١٩٨١م، ص ٣٠.

يمكن أن يحسب حسابه، أما المسلمون فلا يستطيع المرء أن يتنبأ بالأخطار التي ترد من جانبهم.(١)

وقد أصبح وجود تلميذة مسلمة تغطى رأسها في مدارس الغرب أمرًا يشغل الرأي العام الغربي كله بوصف ذلك أمرًا يتعارض مع التقاليد والحضارة الغربية ولأنه في الوقت نفسه يذكر الناس هناك بالإسلام. وهذا في حد ذاته أمر غير مرغوب فيه.

والأمر الذي لا شك فيه هو أن الوجود الإسلامي في الغرب يتعرض لتحديات خطيرة تهدد كيانه، وهي تحديات تفرضها البيئة المحيطة بأبناء المسلمين في الغرب دينيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا. فكل سلبيات المجتمع الغربي ينعكس أثرها السلبى على الشباب المسلم في الغرب سواء في مجال التحلل من الدين أو القيم أو السلوك.

فالحياة الاجتماعية في الغرب تثير الشكوك في عقول الشباب حول كثير من الأمور المتعلقة بالعقيدة والحياة الإسلامية.

وفي هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى جهود المبشرين التي تهدف إلى إبعاد المسلمين عن إسلامهم. و إذا لم تنجح جهودهم في تنصيرهم فعلى الأقل تشكيكهم في دينهم.

وهكذا يواجه المسلمون في الغرب مشكلات دينية ونفسية واجتماعية وحضارية وسلوكية، وينتهز أعداء الإسلام في الغرب حقيقة ضعف المسلمين في العالم الإسلامي وتخلفهم بإرجاع ذلك التخلف إلى الإسلام ذاته، وفي المقابل إرجاع تقدم المجتمعات المسيحية إلى المسيحية ذاتها، في حين أن الإسلام - كدين لا صلة له بتخلف المسلمين، كما أن المسيحية كدين لا صلة لها بتقدم المجتمعات الغربية.

ورحم الله مالك بن نبي الذي كان يقول: «إن التخلف الذي يعاني منه العالم الإسلامي ليس سببه تمسك المسلمين بالإسلام وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين».

ويريد الساسة الغربيون أن يتكيف الإسلام في الغرب مع التقاليد الغربية ولذلك

---

(١) الإسلام ومشكلات المسلمين في ألمانيا، ص ٨.

وجدنا وزير الداخلية الفرنسي الذي رفض أن تمنح فرنسا تأشيرات دخول للقراء والوعاظ المصريين في شهر رمضان من عام (١٤١٣هـ) كما كان ذلك سائدًا في الأعوام الماضية - يبرر هذا الرفض بأن فرنسا تريد «تنمية الإسلام في فرنسا على الطريقة الفرنسية».

وقد أصبح الوجود الإسلامي في الغرب يتعرض اليوم لأبشع الحملات الإعلامية وموجات الكراهية والتخويف من جانب الجماعات المتطرفة من النازيين الجدد في ألمانيا واليمينيين المتطرفين في فرنسا وغيرهم من جماعات متطرفة في بلاد غربية أخرى. وهي حملات ليست موجهة ضد المسلمين كأشخاص فحسب بل ضد الإسلام بوصفه دينًا غير مرغوب فيه.

وما احتضان الغرب لسلمان رشدى والدفاع عنه إلا حلقة من حلقات هذا المخطط الإعلامي ضد الإسلام، ولكن لماذا يتعرض الإسلام وحده من بين كل الأديان في العالم لهذه المعاملة الظالمة؟

ثانيًا: سوء فهم الإسلام في الغرب وأسبابه:

إن سوء فهم الإسلام في الغرب بصفة عامة يرجع أساسًا إلى تشويه متعمد للإسلام منذ قرون طويلة. فالحملات الضارية ضد الإسلام اليوم ليست وليدة ظروف جديدة طارئة، وإنما هي نتيجة ترسبات قديمة ترسخت في العقلية الغربية منذ الحروب الصليبية، بل حتى قبل الحروب الصليبية حينما فتح المسلمون الأندلس، وحينما فتح العثمانيون - فيما بعد - القسطنطينية وحاصروا العاصمة النمساوية فيينا.

وقد شهدت العصور الوسطى في أوربا الكثير من الافتراءات ضد الإسلام والمسلمين، وراح اللاهوتيون النصارى في ذلك الوقت المبكر ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ.

وهناك في هذا الصدد الكثير من الأساطير في وصف الإسلام، وهي أساطير مغرقة في الخيال وفي الضلال اخترعها الكتاب في ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين عباد أصنام[1] وتدمغهم بأحط الأوصاف. ولم ينجح من نشر

(١) محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار بالقاهرة، ١٩٨٩م،=

مثل هذا الضلال أعلام الأدباء في الغرب مثل دانتى وفولتير وغيرهما. وقد ترسخ في العقلية الغربية أن الإسلام دين عدوانى متعصب شهوانى تواكلى... إلخ، وما زال حتى يومنا هذا تدرس للأطفال في المدارس الغربية معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا الحملات الإعلامية ضد الإسلام والمسلمين في الغرب تنشط بين الحين والحين. فهي حملات تعبر عن مدى سوء فهم الغربيين للإسلام، ومدى تأصل ما ورثوه في هذا الصدد من أوهام ترسخت في أذهانهم.

ويعجب المرء عندما يجد أن الأديان الأخرى وبخاصة الأديان البشرية تعامل من جانب الغرب معاملة منصفة، والإسلام وحده من بين كل الديانات في العالم هو الذي يهاجم ويساء إليه، وهو وحده الذي يرمى بكل النقائض.

وترتعد فرائص الغربيين حينما يسمعون عما يسمى بالصحوة الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية، وينظر الغرب اليوم إلى الإسلام على أنه هو العدو البديل بعد انهيار العدو التقليدي المتمثل في الشيوعية، ولم يخف المسئولون في الغرب ذلك؛ بل أعلنه العديد منهم في صراحة ووضوح.

ويتضح موقف الغرب من المسلمين في وقوفه موقف المتفرج لأكثر من عامين من مأساة البوسنة والهرسك، فقد أعلن الصرب في وضوح أنهم يقومون بمهمة تاريخية وهي حماية أوربا من الإسلام، وأن أوربا إذا قالت شيئا غير ذلك فهو من قبيل النفاق. وقد ظلت أوربا بالفعل تنافق طوال هذه المدة وتكتفي بإصدار بيانات الشجب والاستنكار إلى أن يحقق الصرب أهدافهم. ويريد الصرب أن يكرروا في البوسنة والهرسك ما فعله الأسبان قبل خمسمائة عام من طرد المسلمين من الأندلس والفتك بهم. ولو نجح الصرب في ذلك سيأتي الدور على بقية المسلمين في بلاد غربية أخرى.

=وكذلك: نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، لساذرن، ترجمة على فهمى خشيم، دار الفكر بطرابلس، ليبيا: ١٩٩١م، ص ٢٩ وما بعدها.

ركائز المستقبل الإسلامي في الغرب:

إن مستقبل الإسلام في الغرب يتوقف بصفة أساسية على عدة عوامل: أولها يتعلق بالعالم الإسلامي، وثانيها يتعلق بالمسلمين الذين يعيشون في الغرب، وثالثها يتعلق بالموقف الغربي نفسه.

فهناك ـ إذن ـ أبعاد ثلاثة: بعد على مستوى العالم الإسلامي، وبعد على مستوى المسلمين في الغرب، وبعد غربي.

وهذه العوامل أو الأبعاد الثلاثة غير منفصلة عن بعضها، بل هي متداخلة ومتشابكة؛ ومن هنا فلا يجوز بحث مستقبل الإسلام في الغرب دون النظر إليه من خلال هذا التداخل؛ نظرا لأن كل عامل منها له تأثير متبادل مع العوامل الأخرى. وفيما يلي نعرض وجهة نظرنا في هذا الصدد.

أولا: البعد المتعلق بالعالم الإسلامي:

أما البعد الأول وهو البعد الذي يتعلق بالعالم الإسلامي فإننا نود في البداية أن نؤكد على حقيقة ثابتة في أن مستقبل الإسلام في الغرب يتوقف بالدرجة الأولى على مستقبل الإسلام في العالم الإسلامي. فالمسلمون أمة واحدة، كما أراد الله لها أن تكون ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ومن هنا فإن عزة الإسلام وقوة المسلمين في العالم الإسلامي وازدياد تأثيرهم في مجال السياسة العالمية من شأنه أن يدعم الأقليات الإسلامية في الغرب ويرفع من معنوياتها، ويزيدها التصاقًا بدينها وتراثها وحضارتها، وتعطيها الأمل في مستقبل مشرق.

ومن هنا تأتي ضرورة استمرار ربط الجسور مع المسلمين في الغرب، ومعاونتهم في تصحيح صورة الإسلام في أذهان الغربيين بكل الوسائل العلمية والعملية التي تعرض الإسلام عرضا سليما يصحح المفاهيم المغلوطة ويزيل الشبهات ويبدد الأوهام ويقضي على الأباطيل المنتشرة بين الغربيين سواء في وسائل الإعلام أو في بحوث المستشرقين أو في المناهج الدراسية. وهذا كله من شأنه أن يحمى أبناء المسلمين في الغرب من أخطار التنصير وألاعيب الملاحدة.

وفي هذا الصدد نقترح الوسائل التالية:

١- إصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأجنبية تعرض الإسلام عرضًا علميًّا وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة، وترد في الوقت نفسه على المزاعم التي تثار ضد الإسلام، وتحل هذه الموسوعة ـ بالنسبة للمسلمين في الغرب ـ محل دائرة المعارف الإسلامية التي أخرجها المستشرقون وما يزالون يقومون بإخراج الطبعة الثانية منها، كما تكون هذه الموسوعة أيضًا بجوار موسوعة المستشرقين بالنسبة لغير المسلمين ممن يريدون أن يتعرفوا على وجهات النظر الإسلامية من مصادرها الأصلية.

فالباحثون لدينا في العالم الإسلامي وفي العالم الغربي أيضًا يعتمدون على دائرة المعارف الاستشراقية وهم معذورون في ذلك نظرا لعدم وجود البديل؛ فكل فراغ فكري لدينا لا نتبعه بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية ـ وربما معادية ـ لأفكارنا، فلا نلومن حينئذ إلا أنفسنا.

٢- إصدار موسوعة فقهية مختصرة باللغات الأجنبية تشتمل على كل ما يهم المسلم معرفته في حياته التمهيدية والعملية.

٣- إصدار موسوعة حديثية مختصرة ومبوبة باللغات الأجنبية تشتمل أيضًا على كل ما يهم المسلم معرفته من أمور دينه.

٤- إصدار ترجمة معتمدة لمعانى القرآن الكريم بعدد من اللغات الأجنبية لخدمة المسلمين في الغرب وخدمة الراغبين في الاطلاع على الإسلام من غير المسلمين.[1]

٥- مد المسلمين في الغرب بالعلماء المستنيرين الفاهمين لحقائق الدين والدنيا، وتزويدهم بالمراجع الإسلامية الأصلية والبرامج الدينية الهادفة التي تستفيد في نشر الدعوى الإسلامية من كل منجزات العصر إذاعة وتليفزيون وسينما وفيديو وحاسوب، وفي هذا الصدد ينبغي التفكير في إنشاء قناة تليفزيونية إسلامية لخدمة أبناء المسلمين في الغرب.

(١) محمود حمدى زقزوق: قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، ٢٢٩ وما بعدها، دار المنار بالقاهرة، ١٩٨٨، ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢٩.

٦- إصدار سلسلة من الكتيبات باللغات الأجنبية تعالج العديد من القضايا المثارة على الساحة الفكرية والدينية من منظور إسلامي، وتعرف المسلمين بتاريخهم وحضارتهم وما قدمته هذه الحضارة من عموم ومعارف وإنجازات رائعة كانت فاتحة خير للبشرية جمعاء.

٧- مساعدة المسلمين في الغرب على اغتنام الفرص المتاحة ـ حسبما تسمح بذلك قوانين البلاد التي تعين فيها جاليات إسلامية كبيرة ـ لإنشاء نظام تعليمي إسلامي يبدأ من رياض الأطفال وينتهي بالجامعة ويعتمد هذا النظام على الجمع بين الدراسات المدنية المعتمدة بالإضافة إلى برنامج إسلامي ـ ويندرج ذلك كله في إطار فلسفة واضحة المعالم محددة الأهداف تنطلق من المفهوم الإسلامي للعالم الشامل لعلوم الدين والدنيا معا.

ومن الطبيعي أن يقوم هذا النظام التعليمي الإسلامي بالتنسيق مع المؤسسات التعليمية في الدول المضيفة حتى يمكن الاعتراف بالشهادات التي تمنحها المؤسسات التعليمية الإسلامية.

وهناك بالإضافة إلى هذه المساعدات العلمية الإسلامية ـ التي هي ضرورية بالنسبة للمسلمين في الغرب ـ أمور أخرى ينبغي أن يضعها العالم الإسلامي في اعتباره لما لها من أهمية بالغة في مساعدة المسلمين في الغرب، ومن ذلك على سبيل المثال:

أ- جعل قضية الأقليات الإسلامية في الغرب ضمن قائمة الأمور التي تكون موضوع مباحثات بين الجانب الإسلامي والجانب الغربي، مثلما يفعل الغرب ذلك ويضع في رأس قائمة موضوعاته الاهتمام بالأقليات المسيحية في العالم الإسلامي.

ب- التركيز من جانب العالم الإسلامي على العناصر الإيجابية في العلاقات التاريخية مع الغرب على المستوى الحضاري وعلى ما قدمته الحضارة الإسلامية من إنجازات باهرة كانت حافزًا للغرب على شق طريقه نحو التقدم والازدهار، وكذلك التركيز على موقف الإسلام التاريخي المتسامح مع المسيحية ومع كل الديانات السماوية.

ج- إن التزام الدول الإسلامية بمبادئ الإسلام الحقيقية قولا وعملا من حيث احترام

حقوق الإنسان وكرامته وآدميته من شأنه أن يحسن صورة الإسلام في العالم ويبطل مزاعم الغرب ضد الإسلام، وهذا كله ينعكس أثره إيجابيًا على المسلمين الذين يعيشون في الغرب.

وحتى يمكن تحقيق هذه البرامج وغيرها من أمور أخرى يحتاجها المسلمون في الغرب لابد من إنشاء مؤسسة إسلامية متخصصة لرعاية الأقليات المسلمة في العالم، ولا يكفي أن يكون بند الأقليات الإسلامية أحد بنود العديد من المنظمات الإسلامية التي ليس بينها في الغالب أي تنسيق.

فالمطلوب هو مؤسسة متفرغة لهذا العمل بتمويل إسلامي تكون هي حلقة الوصل بين العالم الإسلامي والأقليات المسلمة في العالم، وتكون مهمتها القيام بإعداد الدراسات اللازمة ووضع الخطط والبرامج ومتابعة التنفيذ.

وهذا الاقتراح وثيق الصلة بإحدى التوصيات العامة التي أصدرها المؤتمر العالمي السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي الذي انعقد في الرياض عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م. فقد أوصى هذا المؤتمر حكومات الدول الإسلامية والهيئات والمنظمات المعنية بإنشاء صندوق يسمى «صندوق الأقليات الإسلامية».

ثانيا: البعد المتعلق بالمسلمين في الغرب:

أما البعد الثاني الذي يتصل بالمسلمين الذين يعيشون في الغرب فإن عليهم مسئولية كبيرة في مساعدة أنفسهم، ليس فقط من أجل ضمان استمرار وجودهم في الغرب، بل أيضًا من أجل دعم هذا الوجود وازدهاره والتطلع إلى غد أكثر إشراقا.

وأود في هذا الصدد أن أعرض بعض التصورات التي اعتقد أن لها أهميتها القصوى في مستقبل الإسلام في الغرب:

١- ضرورة اتحاد المجموعات الإسلامية في الدول الغربية وتوثيق الروابط فيما بينها والبعد عن الصراعات المذهبية الضيقة والتيارات السياسية التي من شأنها أن تقوض أواصر المودة بين المسلمين في الغرب.

فمن غير المعقول أن تنقل التجمعات الإسلامية معها إلى الغرب الصراعات السياسية والأيديولوجية والمذهبيات الضيقة السائدة في البلاد التي أتت منها، وتنسى - في غمار ذلك - مشاكلها الحقيقية التي ينبغي أن تهتم بها.

وما زلت أذكر ما دار من مناقشات في أحد المراكز الإسلامية في أوربا عند زيارتي لهذا المركز عام ١٩٨٠م. فقد دارت المناقشات كلها من خلال منطلقات سياسية وأيديولوجية يؤمن بها هذا الفريق أو ذاك، وهذا كله يعد من قبيل الهزل في وقت الجد، وفيه إضافة للجهد والوقت وتمزيق للروابط واستنفاد للطاقة. فماذا يبقى هناك من طاقة لحل المشكلات في بلاد المهجر؟

إن مما لا شك فيه أن هناك تحديات خطيرة تواجه المسلمين في الغرب. والوعي بالمشكلات الحقيقية التي تواجههم ووضعها في إطارها الصحيح ومراعاة الأولويات في هذا الصدد هو البداية الصحيحة في سبيل البحث عن حلول لهذه المشكلات.

٢- ضرورة فهم العقلية الغربية والتعامل معها من هذا المنطلق؛ فلا يعقل أن يعيش المسلم في الغرب وهو يجهل العقلية الغربية وأنماط السلوك الغربي. فالله قد خلقنا مختلفين لنتعارف ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا التعارف هو الخطوة الأولى للفهم المتبادل والاحترام المتبادل والتعاون المشترك. وبذلك يمكن القضاء على أسباب الصراع وانعدام الثقة والأحكام المسبقة على كلا الجانبين.

٣- على المسلمين في الغرب أن يقدموا للآخرين صورة مشرقة عن الإسلام وذلك بتقديم النموذج الإسلامي الحي المجسد لتعاليم الإسلام عملا لا قولا فقط، وجوهرا لا شكلا فحسب.

ويتمثل ذلك في السلوك الإسلامي الملموس الذي يجذب ولا ينفر، فهذا السلوك على المستوى الفردى والجماعى له أثره البالغ لا في تعديل صورة الغرب عن الإسلام فحسب، بل لجذب الغربيين للإسلام أيضًا.

وليس هناك معنى لأن نركز في الغرب على المظاهر الشكلية على حساب الجوهر، فالإسلام ليس مجرد مظاهر ورسوم ولكنه عقيدة تمتلئ بها جوانب النفس فتضيء إشراقا ومحبة للجميع.

وقد ذكر أحد الأساتذة المسلمين في إحدى الجامعات الألمانية أن شابًّا ألمانيا مسلمًا يدرس مع أقرانه دراسات إسلامية في أحد معاهد الاستشراق وبصرف النظر عن المظهر الغريب لهذا الشاب، والذي هو - في حد ذاته - منفر بالنسبة للآخرين، فإنه دخل في إحدى المرات إلى المعهد الذي يدرس فيه فوجد زملاءه - وهم مسيحيون - يقرؤون في المصحف بعض آيات القرآن الكريم تتصل بما يدرسونه. فما كان منه إلا أن نهرهم بغلظة وانتزع المصحف من بين أيديهم، ونهاهم عن لمسه لأنهم كافرون[1].

فهل مثل هذا السلوك هو الأسلوب السليم لجذب الآخرين إلى الإسلام أو - على الأقل - لإعطائهم صورة مشرقة للسلوك الإسلامي؟

٤- إقامة الندوات العلمية المشتركة مع العناصر الغربية المستعدة للتفاهم، والمحبة للتعايش في سلام وأمن واستقرار مع المسلمين، وفتح حوار إيجابي معها يركز على العناصر الإيجابية المشتركة وينحى - جانبا - كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات بين الجانبين.

وبهذه الطريقة يكسب المسلمون في الغرب أصدقاء يمكن أن يكون لهم أثر في خدمة الوجود الإسلامي في الغربي.

٥- إيجاد الصيغة المناسبة للحفاظ على الذاتية الإسلامية للمسلمين في الغرب - من جانب - والمشاركة الفعالة في أنشطة المجتمعات الغربية - من جانب آخر.

فالمسلمون في الغرب لا يجوز لهم أن ينعزلوا في حارات مثل حارات اليهود، ولكنهم - من ناحية أخرى - لا يجوز لهم أن يذوبوا في المجتمع الغربي، بمعنى أن يفقدوا هويتهم الدينية والثقافية.

---

(١) محمود حمدى زقزوق: هموم الأمة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٧.

ولا ننسى أن هناك أخطارًا حقيقة في هذا الصدد تهدد الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين في الغرب.

ومن هنا فإنه من الضروري أن تحصن الأسر المسلمة أبناءها بالثقافة الإسلامية الرشيدة، مثلما نحصن الأطفال عن طريق الأمصال المناسبة ضد الأمراض المختلفة، وهذا يحتم إقامة مؤسسات ثقافية إسلامية في بلاد الغرب للمساعدة على تحقيق هذا الهدف.

وتتمثل هذه المؤسسات الثقافية في مؤسسات إسلامية للتثقيف العام تكون - من ناحية - فرصة لالتقاء أبناء الجاليات الإسلامية في الغرب، ومن ناحية ثانية: تعمل على تأكيد الانتماء الإسلامي ودعمه لدى أبناء هذه الجاليات، ومن ناحية ثالثة: تعمل على استكمال النقص في برامج التعليم العام في هذه البلاد؛ حيث لا تكون هناك في الغالب برامج للتربية الإسلامية، أو إذا كان هناك شيء من هذا القبيل يكون هامشيًا ولا يفى بالغرض.

وتسير هذه المؤسسات الثقافية - جنبًا إلى جنب - مع المراكز الإسلامية القائمة، ومع الاهتمام بإنشاء مدارس إسلامية ما دامت قوانين البلاد تسمح بذلك.

٦- ضرورة فهم حقائق الواقع وحسن التعامل مع هذا الواقع. لقد قرأت في صحيفة إسلامية تصدر في إحدى الدول العربية أن حزبًا إسلاميًا قد تم تشكيله في دولة أوربية وأنه أعلن أنه يريد الشريعة الإسلامية في هذا البلد، فهل هذا كلا معقول!؟

إن هذا يعني عدم فهم للواقع الغربي من ناحية، ومن ناحية أخرى يعطي للآخرين الفرصة لتأليب الرأي العام ضد المسلمين في الغرب؛ وهنا تظهر تُهم الأصولية والعنف والعدوانية... إلخ.

ومن جهة ثالثة نسأل: هل تم التطبيق في العالم الإسلامي حتى نطالب به هنا في الغرب؟

إن المؤمن كيس فطن وعليه أن يبتعد عن الأسلوب الساذج في التعامل مع حقائق الحياة.

ثالثا: البعد المتعلق بالغرب:

أما البعد الخاص بالغرب، فإنه يتوقف على البعدين السابقين؛ فالمبادرة بالنسبة لدعم مستقبل الإسلام في الغرب لن تأتي من الغرب ذاته، ولكنها لا بد أن تأتي من الجانب الإسلامي.

وإذا أردنا أن نلخص أهم النقاط في الموقف الغربي إزاء الإسلام والمسلمين الذين يعيشون في الغرب فإننا نحددها في التساؤلات التالية:

١- ما مدى تقبل المجتمعات الغربية للوجود الإسلامي؟

٢- ما مدى جدية المجتمعات الغربية في مكافحة العنصرية المعادية للأجانب بصفة عامة وللإسلام بصفة خاصة؟

٣- ما مدى استعداد الغرب للتعامل مع الإسلام بموضوعية وإنصاف في وسائل الإعلام كما يفعل مع الديانات الأخرى؟

٤- ما مدى استعداد الغرب لتصحيح الأخطاء في المعلومات المدرسية عن الإسلام؛ حتى لا تنشأ الأجيال الغربية الجديدة وهي تسير في نفس خط المعاداة للإسلام والمسلمين؟

إن من الواضح أن تعديل المواقف والتصورات الغربية والإجابة عن هذه التساؤلات يتوقف على مدى تعاملنا الإيجابي مع البعدين السابقين.

وهذا يضاعف من مسئوليتنا على مستوى العالم الإسلامي ـ من جهة ـ وعلى مستوى الأقليات المسلمة في الغرب ـ من جهة أخرى.

ونخلص من ذلك كله بأن مفتاح حل مشكلات الوجود الإسلامي في الغرب في أيدي المسلمين أنفسهم، وليس في يد غيرهم، فإذا لم نساعد أنفسنا فلن يساعدنا أحد، كما أن الله سبحانه وتعالى لن يساعدنا أيضًا إلا إذا ساعدنا أنفسنا.. وهذا قانون قرآني ثابت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين أن أعاننا بفضله ومدده وتثبيته على إتمام هذا الكتاب بعد معايشة زمنية طويلة، ومعايشة ذهنية أطول.

ونظرًا لأهمية الموضوع وجدته وقوته واتساعه، فإن تناوله استلزم منا تطويفًا وتجميعًا وإلمامًا بكل ما يتصل بالحوار في الإسلام، وعكفنا على تحليل هذه المادة المجموعة وتصنيفها وتبويبها، وقد وجدنا عدة موضوعات فكرية جديدة في قضية الحوار لم تعرض لها الكتابات السابقة قديمها وحديثها بصورة مفصلة؛ فأنعم الله علينا بالمادة العلمية التي أثرت المعالجة، وذلك من خلال تلاقح الأفكار، ودوام المدارسة والتنقيب والبحث والاستقصاء، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وفي سبيل الوفاء بكثير من القضايا المتصلة بالحوار في الإسلام، والإلمام بكثير من جزئياته وعناصره؛ عولج الموضوع من خلال سبعة فصول رئيسة؛ اكتنزت في داخلها عشرات المباحث المهمة؛ ومن أهمها:

- مفهوم الحوار وأهميته.
- بين الحوار والجدل.
- مقومات الحوار.
- موضوعات الحوار، وآدابه، ومعوقاته.
- مشروعية الحوار في القرآن الكريم والسنة النبوية.
- تاريخ الحوار الإنساني، وتطوره، وصفاته.
- منهجية الحوار، وشروطه، ومقوماته.
- خصائص الحوار القرآني.

- ■ كيفية الحوار مع الذات، وأهميته.
- ■ كيفية الحوار مع الآخر، وأهميته.
- ■ الحوار الحضاري وقضاياه.
- ■ ثمرات الحوار في مجالات الدعوة.
- ■ ثمرات الحوار في مجالات التربية.
- ■ ثمرات الحوار في مجالات الثقافة.

وفضلًا عن هذا فإن هناك موضوعات مهمة، عرضنا لها، ورغم ذلك فإنها تحتاج إلى المزيد من الدراسات، ومنها:

١- غايات الحوار في الإسلام.

٢- كيف تتعلم الحوار الجيد من القرآن الكريم، ومن السنة المشرفة؟

٣- أهمية الحوار النبوي في جوانب الهداية من الإقناع والتوجيه.

٤- منهجية الحوار القرآني، وأثرها في مخاطبة الكفار واليهود والمنافقين والعصاة.

٥- منهجية الحوار القرآني، وأثرها في مخاطبة المؤمنين والمهتدين.

٦- أهمية أدب الحوار في حوار المسلمين مع أنفسهم.

٧- أهمية أدب الحوار في حوار المسلمين مع غيرهم.

٨- أهمية أدب الحوار في تعبير المسلمين عن دينهم وثقافتهم وحضارتهم.

٩- أهمية الحوار مع الآخرين في جانب الدعوة إلى الله تعالى.

١٠- أهمية الحوار التربوي في تحقيق نتائج أفضل للتعلم.

١١- أهمية الحوار مع الآخرين في الجانب الثقافي وتفاعل الحضارات.

١٢- انعكاس مفهوم عالمية الإسلام على جانب التفاعل.

١٣- مفهوم الحوار الحضاري في مقابل صدام الحضارات.

١٤- تطور علاقة الإسلام بالغرب وبالحضارات الأخرى.

١٥- معوقات حدوث الحوار الحضاري.

١٦- معوقات الحوار بين الأديان.

١٧- التعايش السلمي في الإسلام من النموذج إلى التطبيق.

١٨- مواصفات الحوار الحضاري المنشود.

١٩- مستقبل الحوار مع الحضارات الأخرى.

٢٠- أفكار جديدة لإيجاد حوار صحيح مع أنفسنا، ومع الآخرين.

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لهذه الموضوعات المعاصرة من ينهض لإتمامها وإثرائها، وإضافة قضايا أخرى تبرز الحاجة إليها كلما تطورت الدواعي الإنسانية والحضارية.

ونأمل أن تنهض الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية والدعوية في بلاد المسلمين؛ خاصة في بلادنا العربية بإبراز الصورة الصحيحة لهذا الدين، والرد على دعاوى المغرضين والحاقدين والمبطلين والجاحدين.

اللهم هيئ لهذه الأمة الشريفة أمر رشد وهداية؛ يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، وتُقام فيه الحجة، ويُعان أهل الدعوة والحق، ويزهق أهل الباطل، وترتفع كلمة الإسلام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه
الراجي عفو مولاه
والفقير إلى رحمة ربه
أحمد عبده عوض
١١ من رمضان ١٤٣١هـ

المراجع

المراجع

١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، الطبعة الثالثة، ١٣٧١هـ، مكتبة البابي الحلبي القاهرة.

٢) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر.

٣) أخبار عمر رضي الله عنه، علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي، الطبعة الثامنة ١٤٠٣هـ المكتب الإسلامي، بيروت.

٤) آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي، دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة.

٥) أدب الاختلاف في الإسلام، د طه جابر فياض العلواني، مطابع الدوحة الحديثة، قطر. د.ت.

٦) أدب الحوار والمناظرة، د علي جريشة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر.

٧) آداب الحوار في الإسلام د سيد طنطاوي: نهضة مصر، يونيو ١٩٩٧.

٨) أدب الخلاف، د صالح بن حميد البخاري، مطابع جامعة أم القرى، ١٤٠٠هـ مكتبة الأدب، القاهرة.

٩) استخراج الجدل من القرآن، عبد الرحمن الحنبلي، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ مطابع الفرزدق.

١٠) الإسلام والعالم بين التسامح والتعصب، رمضان أحمد عبد ربه عصفور، مكتبة وهبة، مصر ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١١) أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ المطابع العالمية، الرياض.

١٢) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

١٣) الاعتصام، الشاطبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

١٤) آفات على الطريق، د السيد محمد نوح، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر.

١٥) اقتضاء الصراط المستقيم، شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الحديث بالأزهر.

١٦) الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، ولي الدين الدهلوي، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ مؤسسة الرسالة، ودار النفائس، بيروت.

١٧) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨) تاريخ الطبري، لأبي جعفر بن جرير الطبري، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور محمد الطاهر، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤م.

٢٠) التعريفات، علي بن حمد الشريف الجرجاني، الطبعة الأولى ١٩٦٩م، مكتبة لبنان، بيروت.

٢١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ط دار إحياء الكتب العربية، مصر.

٢٢) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبعة المدني، بجدة.

٢٣) جامع الأصول، الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان.

٢٤) جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٥ - ١٩٩٤م.

٢٥) جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد البر القرطبي، دار الفكر.

٢٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

٢٧) الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية د. يوسف عبيد دار الطباعة المحمدية القاهرة، ١٤٠١هـ - ١٩٨٧م.

٢٨) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، مطبعة المدني، السعودية.

٢٩) حوار الرسول ﷺ مع اليهود، د محسن بن محمد بن عبد الناظر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الكويت.

٣٠) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، المغامسي خالد محمد، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني ١٤٢٥ هـ.

٣١) الحوار أصوله وآدابه السلوكية: الضويان أحمد عبد الله، دار الوطن الرياض ط ١.

٣٢) حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرون رؤية إسلامية للحوار، العليان عبد الله علي المؤسسة العربية للدراسات والنشر عمان ط ١ ٢٠٠٤.

٣٣) الحوار في القرآن قواعده أساسه معطياته، فضل الله محمد حسين دار المنصورة للنشر الجزائر.

٣٤) الحوار مع أهل الكتاب، خالد عبد الله القاسم، ١٤١١هـ، جامعة الملك سعود السعودية.

٣٥) خلق المسلم، محمد الغزالي، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.

٣٦) الخلاف بين العلماء، محمد الصالح العثيمين، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة.

٣٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٣٨) درء تعارض العقل والنقل، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود.

٣٩) دلائل النبوة، البيهقي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٠) الدعوة إلى الله: الرسالة الهدف، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١ ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م.

٤١) رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة، حوار حول الحوار، محمد إبراهيم الفيومي، ١٩٨١م عالم الكتب، القاهرة.

٤٢) روح الدين الإسلامي: عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤.

٤٣) زاد المسير، ابن الجوزي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٤) زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت.

٤٥) سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر للطباعة والنشر.

٤٦) سنن أبي داود، سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي، ١٤٠٨هـ، دار الجيل، بيروت.

٤٧) سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، مصر.

٤٨) سنن النسائي، بشرح السيوطي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٤٩) السنن الكبرى للبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ. مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، الهند.

٥٠) سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الثامنة ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥١) صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الطبعة الخامسة ١٤٠٦هـ عالم الكتب، بيروت.

٥٢) صحيح مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥٣) صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن رأفت الباشا، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة، ودار النفائس، بيروت.

٥٤) العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر بن العربي، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت.

٥٥) فقه السيرة، محمد الغزالي، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة السابعة ١٩٧٦م، دار الباز.

٥٦) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

٥٧) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت.

٥٨) مباحث علوم القرآن، مناع القطان مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٧ ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٥٩) المسند، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر.

٦٠) الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

٦١) مناهج الجدل، د زاهر عوض الألمعي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

٦٢) النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر، د سعيد شبار، منشورات الفرقان. ط ١، ١٩٩٠.

٦٣) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د يوسف القرضاوي، كتاب الأمة، ع ٦ شوال ١٤٠٦هـ.

٦٤) فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق سورية ط ١١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

٦٥) في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، د عبد العزيز بن عثمان التويجري منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم د والثقافة: إيسيسكو ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٦٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق بيروت ط ٧ - ١٩٧٨م.

٦٧) هل يشكل الإسلام خطر على الغرب عبد الله فهد النفيسي: سلسلة مقالة عني بتحريرها و إضافة هوامشها ساجد العبولي المطيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ١، ٢٠٠٣م.

السيرة الذاتية والإنتاج العلمي
لفضيلة الدكتور/ أحمـد عبده عـوض

المؤهـل:

- حصل على الماجستير والدكتوراة في «الدراسات اللغوية والإسلامية» من عام (١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٢م)، من كلية التربية «قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة طنطا، وعمل معيدًا، ثم مدرسًا مساعدًا، ثم مدرسًا، ثم أستاذًا بالجامعة ذاتها.
- أشرف على عشرات الرسائل في الماجستير والدكتوراة داخل مصر وخارجها.
- عمل أستاذًا بجامعة «أم القرى» بمكة المكرمة في الفترة من (١٩٩٥م إلى ٢٠٠٠م)، وأثناء ذلك كانت له برامج دينية في «إذاعة القرآن الكريم» بمكة المكرمة، ومشاركات في الصحف السعودية، ومحاضرات في «نادي مكة» الثقافي الأدبي.

التخصص:

- أستاذ: العلوم اللغوية والإسلامية.
- داعية وكاتب إسلامي، عضو اتحاد الكتاب المصري، عضو جمعية حماة العربية، محاضر بمعهد الإذاعة والتليفزيون.
- متحدث في البرامج الدينية في إذاعة القرآن الكريم، وفي قنوات «التليفزيون المصري» و«العربي» الأرضية والفضائية.

الأنشطة:

▪ يشارك في المؤتمرات اللغوية والإسلامية والتربوية، داخل مصر وخارجها.

▪ يشارك بدور بارز في الدعوة الإسلامية في الكتابة؛ في المجلات والصحف، وفي اللقاءات اليومية والأسبوعية الثابتة في المساجد.

▪ يشارك في دورات تدريب الأئمة والخطباء، وفي دورات إعداد القيادات.

▪ المشاركة مع الهيئات الثقافية والدينية، في الموضوعات والقضايا التي تعالج مشكلات الشباب، وفي المسابقات الثقافية والدينية، وفي إلقاء خطبة الجمعة على مدى ثلاثين عامًا متواصلة في موضوعات تتصل بقضايا التثبيت والإيمان، ومواجهة مشكلات الحياة.

الاهتمامات:

١- الكتابة الإسلامية والتأليف.

٢- العناية بدراسة القضايا الاسلامية.

٣- العناية بتأصيل الفكر الاسلامي.

٤- الدفاع عن اللغة العربية، وبيان أهميتها للدين الإسلامي.

٥- رصد الأخطاء اللغوية، وتشخيصها، والصدى لعلاجها.

٦- العناية بقضايا التربية الاسلامية القرآنية.

٧- بيان وسطيَّة الاسلام وسماحته، ويسره، واعتداله، ومناسبته لظروف الناس وأحوالهم، وتحبيب الناس في الإسلام.

٨- تذكير الناس بورع السلف، وكيفية محاسبة النفس، وتصفية أعمال القلوب، وكيفية التعرف على الله عَزَّوَجَلَّ.

اللهم اجعل هذا كله خالصاً لوجهك الكريم وتقبله منا يارب العالمين

المؤلفـات المنشـورة

١- فنون اللغة (رؤية فنية، ملامح قرآنية)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٢- التقوى في القرآن الكريم (دراسة لغوية، تفسيرية، إحصائية) دار الصحابة بطنطا.

٣- العدل في القرآن الكريم (بين العلم والكون والإيمان) المكتبة القيمة بالقاهرة.

٤- الإشارات العلمية في القرآن الكريم (بين العلم والكون والإيمان) المكتبة القيمة بالقاهرة.

٥- الإسلام والبعث الحضاري. مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٦- فضل التحدث باللغة العربية، والالتزام بها. مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٧- الموت حقيقة منسية. مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٨- مداخل تعليم اللغة العربية. دار الندى للنشر.

٩- معالم شهر الصيام. مشترك، مركز الكتاب للنشر.

١٠-قضايا البيئة من منظور إسلامي. مشترك، دار الندى للنشر.

١١-تحقيق مخطوطة (الفرائد والقلائد) للإمام الثعالبي. مشترك.

١٢-تحقيق مخطوطة (غور الأمور) للحكيم الترمذي. مشترك.

١٣-تحقيق مخطوطة (الصراط المستقيم) للفيروز أبادي. مشترك.

١٤-الزواج بين الدين والطب. مشترك.

١٥-المخدرات بين الدين والطب. مشترك.

١٦-نورانيات سورة «يوسف» عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٧-نورانيات سورة «التوبة».

١٨-تعليم اللغة العربية، بين الفروع والفنون.

١٩-صفات أهل القرآن الكريم.

٢٠-دراسات في علوم القرآن الكريم.

٢١-تحقيق مخطوطة (بحر الكلام في علم التوحيد).

٢٢-تحقيق مخطوطة (تاريخ المساجد الثلاثة).

٢٣-تحقيق مخطوطة (الدرة الفاخرة).

٢٤-تحقيق مخطوطة (لطائف أهل الإلهام).

٢٥-تحقيق مخطوطة (مسائل القرآن) للرازي.

٢٦-أدب الطفل العربي، رؤية إسلامية.

٢٧-الإعداد لمعجم عن الإمام النورسي.

٢٨-الأخطاء الشرعية في الأمثال العامية.

٢٩-الخط في التراث العربي الإسلامي.

٣٠-خير الزاد في صلاح العباد.

٣١-العقيدة والسلوك، والانفصام بينهما.

٣٢-التسامح في الإسلام (صور ومقابلات).

٣٣-الوسطية والاعتدال في المنهج الإسلامي.

٣٤-طاعة الله ورسوله الكريم وأولي الأمر.

٣٥-أصول المنهج العلمي عند العرب والمسلمين.

٣٦-قراءة تأمُّلية، في فكر الإمام الغزالي.

٣٧-دور المضمون الإعلامي في النهضة الثقافية للأمة الإسلامية.

٣٨-الإسلام والبعث الحضاري.

٣٩-اللغة العربية جامعة للفكر العربي والإسلامي.

٤٠-قضايا إيمانية حول أسماء الله الحسنى.

٤١-أسماء القرآن الكريم.

٤٢-التربية الإيمانية في القرآن الكريم.

٤٣-سبيل الوصول إلى بلاغة الرسول ﷺ (ثلاثة أجزاء).

٤٤-الخطرات منجيات ومهلكات.

٤٥-خواطر قرآنية إعجازية.

٤٦-تجليات الإيمان في حياة المسلم.

٤٧-سمات المنهج العلمي والإعلامي في الإسلام.

٤٨-القراءة العربية، مدخل قرآني.

٤٩-الكتابة العربية، مدخل قرآني.

٥٠-تدريس التربية الإسلامية.

٥١-الرسول ﷺ في القرآن الكريم.

٥٢-آداب المعاملات في الإسلام.

٥٣-الأخطاء اللغوية، وخطورتها في التحدث والكتابة.

٥٤-موجبات الرحمة. مشترك.

٥٥-عزائم المغفرة. مشترك.

٥٦-أنوار المنان في سيدة آي القرآن.

٥٧-حوار الحضارات والأديان في الميزان.

٥٨-الحوار في الإسلام، ودوره في الدعوة والتربية والثقافة.

سلسلة لقاء الإيمان:

هذه السلسلة:

١- الأدعية الجامعة.

٢- أسـرار وأنـوار.

٣- في صحبـة الأحاديـث القدسيـة.

٤- في رحـاب الرحمـن (المسافرون إلى الله).

٥- التجـارة الرابحـة (المجاهدة والتجارة مع الله).

٦- من الهدايـة إلى الثبـات.

٧- وتزودوا (الاستقامـة والإنابـة).

٨- فاسألوا أهل الذكر (فتاوى مبسطـة).

٩- المحمديـات (في ظلال أخلاقـه ﷺ).

١٠-نصرة رسـول الله ﷺ.

١١-مـع الله (رحلـة اليقيـن).

١٢-ففـروا إلى الله (الموقظـات).

١٣-الذين يبلغون رسالات الله (في معيـة الله).

١٤-سُبحـانـك (ويأبـى الله)

١٥-وكيـف تكفـرون ...؟ (معيـة الإيمان والعـلم والمحبـة).

١٦-هـذا ذكـر (سـور وإعجـاز).

١٧- آداب ومعامـلات.

١٨-ليـــس منــــــا.

١٩-واتقــوا يومًا ترجعــون فيــه إلى الله (رحلة الحياة).

٢٠-لعلــك ترضـــى (ولســوف ترضـــى).

كتب جديدة للمؤلف (منشورة، جاهزة للنشر، قيد النشر):

١- ليالي الفضل في القرآن الكريم (مشترك).

٢- إرشاد الناسك إلى أداء المناسك.

٣- تفسير سورة الإخلاص، والمعوذتين.

٤- تفسير سورة المسد.

٥- أيام الفضـــل.

٦- من فيــض الإيمان.

٧- الإيمان حب ويقين.

٨- طعم الإيمان.

٩- تلقيح الإيمان.

١٠-النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

١١-في رحاب القرآن الكريم.

١٢-في رحاب الإيمان.

١٣-ارتفاع الهمـــة.

١٤-مع الله.

١٥-البيان في تلاوة القرآن (قواعد الأداء، والتجويد).

١٦-أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية.

١٧-التكافل الاجتماعي والإغاثة.

١٨-فقه الحوار في السنة النبوية (مع المسلم والآخر).

١٩-دعاء العارفين.

٢٠-تفسير سورة الإسراء.

٢١-المهاجرون إلى الله.

٢٢-موسوعة أدب الثناء على الله.

٢٣-ويأبى الله.

٢٤-ولا تيأسوا.

٢٥-أشواق إلى الحرمين.

٢٦-البيعة مع الله تعالى.

٢٧-التكاليف والأوراد.

٢٨-مفتاح السعادة ومخ العبادة (مشترك).

٢٩-الصيام .. علو الهمة، واستقامة الأمة.

٣٠-ينابيع الخير.

٣١-تجليات الإيمان في حياة المسلم.

٣٢-حمية الجاهلية.

٣٣-ففروا إلى الله.

٣٤-الفرج بعد الشدة.

٣٥-ابحث عن الصادقين.

٣٦-رحلة التفاؤل والتشاؤم.

٣٧-رحلة الحجيج (خمسة أجزاء).

٣٨-المحكمات والمتشابهات في القرآن الكريم.

٣٩-الشمائل المحمدية

٤٠-مجاهدة فتن الشيطان.

٤١-فهل من مدكر.

٤٢-حلاوة الإيمان.

٤٣-حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب

برامج دينية جديدة بفضل الله عَزَّوَجَلَّ:

١- صباح الإيمان	قناة الناس / قناة البركة / قناة الفتح.
٢- مساء الإيمان	قناة البركة.
٣- فهل من مدكر	قناة الحافظ.
٤- ذلك هدي الله	قناة النجاح / قناة الفتح الفضائية.
٥- فقه المرأة المسلمة	القناة الأولى والثانية.
٦- السابقون إلى الله	قناة الشباب الدينية.
٧- دعاء وشفاء	قناة الصحة والجمال.
٨- مناجاة	قناة الصحة والجمال.
٩- المسابقة القرآنية العالمية للقرآن الكريم	قناة البدر الفضائية.

البرامج المرئية والمسموعة في إجهزة الإعلام

١- برنامج (لقاء الإيمان) في القناة السادسة على مدى عدة أعوام على الهواء مباشرة.

٢- برنامج (أسرار وأنوار) قناة المحور الفضائية «٢٠٠٤م».

٣- برنامج (فاذكروني اذكركم) القناتان الأولى والثانية»٢٠٠٣م - ٢٠٠٤م».

٤- برنامج (في رحاب القرآن) قناة السفر العربي الفضائية المصرية «٢٠٠٥ م».

٥- برنامج (في نور الأحاديث القدسية) الفضائية المصرية «٢٠٠٥م».

٦- قناة التنوير: جنود الله «٢٠٠٥م».

٧- برنامج (مفاهيم إيمانية) الفضائية السودانية «٢٠٠٥م».

٨- برنامج (من آيات الرحمن) القناة الثقافية «٢٠٠٤م».

٩- برنامج (بلاغة الرسول ﷺ) إذاعة القرآن الكريم المصرية على مدى سنوات عديدة.

١٠-برنامج (حديث من القرآن الكريم) إذاعة القرآن الكريم «بالسعودية».

١١-برنامج (عظماء الإسلام) القناة الثالثة من «٢٠٠٠م إلى ٢٠٠٤م» وبرنامج (حديث الجمعة).

١٢-برنامج (الفتاوى) في قنوات اقرأ، المحور، دريم، الثقافية.

١٣-برنامج (في نور القرآن الكريم) القناة الثانية.

١٤-برنامج (المجلة الإسلامية) القناة الأولى.

١٥-برنامج (مع الله) و(فضفضة إيمانية) في قناة الناس.

١٦-تسجيلات صوتية ومرئية في شركة صوت القاهرة.

١٧-عدة إصدارات صوتية تتجاوز الخمسين، ولله الحمد.

- سلسلة «المحمديات» شركة النور الإسلامية
- سلسلة «ففروا إلى الله» شركة النور الإسلامية
- سلسلة «موقظات» شركة ذي النورين
- سلسلة «داعي الله» شركة عمران للتسجيلات الإسلامية

١٨-أكثر من ستين كتابًا شرعيًّا مطبوعًا منشورًا داخل مصر وخارجها.

١٩-أمسيات دينية وخطبة الجمعة في إذاعة القرآن الكريم، وبرنامج (تقديم التلاوة) في إذاعة القاهرة (البرنامج العام).

٢٠-برنامج (صباح الإيمان) يقدم في الفترة الصباحية على مدى ساعتين ونصف على الهواء مباشرة في قناة الناس الفضائية ولله الحمد.

فضلًا عن جهد متواضع في نشر الدعوة الإسلامية على مدى ثلاثة عقود، ولله الحمد، وأحتسب الأجر من الله تعالى.

نفع الله بكم، وشرح الله صدوركم، وأدام عليكم نعمته وحفظه، وجعلكم من أسباب تبليغ الرسالة ونشر الإسلام ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهـــرس الكتـــاب

الموضوع | **الصفحة**

للتواصل مع الدكتور/ أحمد عبده عوض

الهواتف: ٠١٠٠٢٣٥٠٤٠٤ - ٠١٠٠٣٩٢٠٤٥٤

٠١٠٦٦٨٧١٦٥٦ - ٠١٠٠٢٤٢٨٣١٣

٠١٠٠٨٦٦٤٥٣٦ - ٠١١١٦٥٢٦٢٦٩

٠١٠٠٧٤١١٣٥٣ - ٠١٠٠٤٥٤١٨٧٤

هذا الكتاب

رحلة تتميز بالموسوعية والتعمق مما يجعل من هذا الكتاب تطويفًا وتجميعًا وإلمامًا بكل ما يتصل بالحوار في الإسلام، وطرحًا لعدة موضوعات فكرية جديدة في قضية الحوار لم تعرض لها الكتابات السابقة قديمها وحديثها بصورة مفصلة، وذلك من خلال تلاحق الأفكار، ودوام المدارسة والتنقيب والبحث والاستقصاء.

وكثيرة هي الموضوعات المهمة التي تنطوي بين دفتي هذا الكتاب، والتي تتعلق بآداب الحوار ومشروعيته ومنهاجه وشروطه ومقوماته، كما يعرج هذا الكتاب بأسلوب مميز للحوار مع الذات والآخر، والحوار الحضاري، وثمرات هذا الحوار وأهميته في مجال الدعوة والتربية، كل ذلك يعتمد على خلفية راسخة تتخذ أصولها من القرآن والسنة، وتستضيء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، والسلف الصالح.

هذا ما يجعل من هذا الكتاب درة ثمينة، وثمرة علمية غالية، نسأل الله العلي العظيم أن ينفع بذلك المسلمين، وأن يرزقنا القبول والسداد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مركز الكتاب للنشر